Mnyool.Com

الأرض الطيبة

بيرل باك

ترجمة
د. ابراهيم اسكندر

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

مؤلفة الرواية

ولدت (بيرل سيدنستريكر بك Pearl Sydenstricker Buck) في بلدة (هيلز بورو) بولاية فيرجينيا الغربية بأمريكا يوم ٢٦ يونية سنة ١٨٩٢ وقبل أن تتم السنة الاولى من حياتها سافرت الى الصين حيث كان أبوها يشتغل بالتبشير. ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها ألحقت بمدرسة داخلية في شنغهاي. ثم عادت لأمريكا بعد سنتين والتحقت بكلية (راندولف ـ ماكون).

ولما عادت الى الصين قضت سنوات في شمالها، ثم انتقلت الى مدينة نانكين حيث عملت مدرسة الآداب الانجليزية بجامعة نانكين، ثم في الجامعة الجنوبية الشرقية، ثم في جامعة (شنج ـ يانج).

وفي سنة ١٩٢٥ عادت الى أمريكا حيث حصلت على درجة الاستاذية من جامعة (كورنيل) وفازت بجائزة (لورا مسنجر) للتاريخ عن موضوع «الصين والغرب».

وأول رواية أخرجتها هي «ريح الشرق» التي ألفتها خلال رحلتها الثانية لأمريكا. ثم أخرجت رواية «الأرض الطيبة» فأعجب بها النقاد جميعاً، ومكثت واحداً وعشرين شهراً في طليعة الكتب الشديدة الرواج. وقد حازت جائزة (بوليتز) لأحسن رواية لمؤلف أميركي ظهرت في تلك السنة، وترجمت بعد ذلك الى ما يقرب من عشرين لغة، ومنها اللغة الصينية، فقد ظهرت بها في ثلاث طبعات مختلفة. ثم اقتبست منها

رواية مسرحية. كما اقتبست منها شركة (مترو ـ جولدو ين ـ ماير) فيلماً سينمائياً عرض في جميع أرجاء العالم!

وظهرت لها بعد ذلك رواية «الابناء». وهي تتمة لرواية «الأرض الطيبة» ـ في سنة ١٩٣٢. وقد وصفها وليم ليون فيلز بأنها من المؤلفات الممتازة في العصر الحديث. ثم ظهر الكتاب الأخير عن أسرة وانج في سنة ١٩٣٥ باسم «بيت منقسم على نفسه». وصارت الروايات الثلاث تباع في مجلد واحد بعنوان «بيت الأرض».

وفي خلال ذلك ظهرت لها في سنة ١٩٣٤ رواية قائمة بذاتها باسم «الأم». كما نشرت لها قبل ذلك ترجمة لأشهر قصة صينية وهي قصة (شوي هو شوان) وقد جعلت عنوانها بالانجليزية: «كل الناس اخوة». وفي سنة ١٩٣٦ نشرت لها روايتا «المنفى» و «الملك المقاتل» وكانتا ترجمة لحياة أمها وأبيها. وفي سنة ١٩٣٨ كتبت لأول مرة عن الحياة الأمريكية في رواية «القلب الفخور». وكانت الحلقة الاولى لسلسلة روايات عن النساء الأمريكيات.

وقد منحتها جامعة (بيل) في سنة ١٩٣٣ درجة الاستاذية الفخرية في الآداب. وفي السنة التالية انتقلت الى أمريكا حيث أقامت بها ومنحت ميدالية هو يلز سنة ١٩٣٥ واختيرت عضواً في المعهد الوطني للفنون والآداب سنة ١٩٣٦. ثم منحتها الاكاديمية السو يدية جائزة نو بل للآداب سنة ١٩٣٨ «لوصفها الدقيق الواضح للحياة الصينية الريفية». كما منحت درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة فيرجينيا الغربية وجامعة سانت لورنس.

وفي سنة ١٩٣٩ نشرت لها رواية «الوطني». وأعقبتها في سنة ١٩٤٠ بروايتها الثانية عن الحياة الأمريكية واسمها «آلهة آخرون». ثم أثرت فيها الحرب فنشرت في سنة ١٩٤٢ رواية عن أهوالها باسم «بذرة الفول». وأخرجت تكملة لها في سنة ١٩٤٣ باسم «الوعد».

وفي خلال ذلك نشرت لها مئات من المقالات والقصص الصغيرة، كما ألقت كثيراً من المحاضرات. وطبع بعضها في ثلاثة مجلدات، كما طبع بعد ذلك مجلدان شملا قصصاً صغيرة كتبتها، وأربعة كتب ألفتها خصيصاً للأطفال. وأسست (جمعية الشرق والغرب) وتولت رياستها، وغايتها التقريب بين الشرقيين والغربيين. وهي تكتب كل شهر نقداً للكتب في مجلة (آسيا وأمريكا)، كما أنها مستشارة لشركة (جوان داي) وتتولى مراجعة ما يكتبه لها الروائيون المبتدئون.

مقدمة المؤلفة

ألفت هذا الكتاب «الأرض الطيبة» منذ أربع عشرة سنة في مدينة (نانكين) باقليم (كيانجسو) بالصين. وقد كتبته في غرفة مكتبي، وكانت غرفة هادئة بالسطح تطل نوافذها على سقوف المنازل القائمة وراء سور المدينة، وعلى مقبرة (سون ـ يات ـ سن) البيضاء التي تسطع على سفح الجبل القرمزي اللون هناك.

والناس الذين كتبت عنهم فيه لم يكونوا يعيشون في ذلك الاقليم الغني، وانما هاجروا الى (نانكين) في الجنوب حين اضطرتهم المجاعة الى المهاجرة من موطنهم في اقليم (أنهوي) الشمالي. وقد عشت فيه فترة من الزمن فعرفتهم عن قرب. وقد عادوا الى ذلك الاقليم بعد انتهاء المجاعة.

على أن تلك المدينة التي في الجنوب (نانكين).. وذلك الاقليم في الشمال، هما الآن مثل كل الشاطىء الشرقي للصين، تحت سلطان الاحتلال[1] والبيت الذي كنت أجلس فيه هادئة مطمئنة قد احتله اليابانيون. ومن يدري ما ارتكبوه في تلك الغرفة من غرائب الفعال! وقد عانت مدينة نانكين هجوماً قاسياً شنيعاً من العدو، وقتل آلاف من أهلها ونهبوا واغتصبت نساء كثيرات. والبيوت الجميلة التي كانت الحكومة الصينية قد شيدتها حين اتخذت من (نانكين) عاصمة للصين الجديدة، هي الآن مسرح لا يظهر عليه سوى أشباح الحكام المحتلين ومعاونيهم القساة!

---

(١) كتبت المؤلفة هذه المقدمة في سبتمبر سنة ١٩٤٤ حين كانت الحرب تدور مع اليابان.

وأيا ما كان الأمر فاني واثقة من أن أشخاص «الأرض الطيبة» لا يزالون أحياء، ذوي قوة وعزم ووفاء للأرض التي يحبونها. وسيكونو هناك حين يطرد العدو من بلادهم، وسيعود أبناؤهم من الجيش ــ ما عدا الذين ماتوا في سبيل وطنهم ــ ليضعوا الأسس من جديد. واذا كانت الانسانية قد أفادت من سنوات الحرب هذه، فلا شك أن الفائدة الكبرى لهذه الحرب أنها أبرزت للعالم صفات المجد والبطولة والتضحية وما اليها من صفات الشعب الصيني البسيط العظيم!

بيرل. س. بك

حياة جديدة

كان اليوم يوم زواج (وانج لنج). وحينما فتح عينيه في فجر ذلك اليوم وردد بصره في عتمة الستائر حول سريره، خيل اليه أنه يختلف عن فجر سائر الايام. وكان السكون يشمل البيت، لا يقطعه إلا سعال أبيه الشيخ الذي يقطن الغرفة المواجهة لغرفته، وقد اعتاد وانج لنج أن يقبع في فراشه ولا يغادره إلا اذا سمع ذلك السعال يقترب فيا لصباح ثم يعقبه صوت باب غرفة أبيه وهو يغلقها وراءه.

غير أنه في صباح هذا اليوم لم يصبر ولم ينتظر، بل قفز من فراشه وأزاح الستائر التي حول سريره. وكان الفجر قد انبثق ولم ينتشر الضوء بعد، فنظر من خلال ثقب صغير في الورق الذي يغطي النافذة، ثم أخذ يمزق هذا الورق و يقول لنفسه: «نحن الآن في الربيع، فلست بحاجة الى هذا!».

وكأنما خجل من أن يجهر برغبته في أن يكون البيت نظيفاً في هذا اليوم، ومد يده من خلال النافذة ليتحسس الهواء، و بدا أثر البشر والتفاؤل في وجهه إذ هبت ريح هادئة رقيقة من الشرفة، تبشر بقرب هطول المطر الذي تحتاج اليه الحقول لكي يثمر زرعها. ثم ابتسم إذ تذكر ما قاله لأبيه أمس من أن الشمس إن ظلت على اشراقها فلن تنتج الحقول من القمح ما يملأ كفاً!.. ومضى يحدث نفسه قائلا: «شكراً للسماء!.. لكأنما اختارت هذا اليوم بالذات لتبارك زواجي فتزف الي البشرى بمطر غزير فقمح وفير!».

وخرج مسرعاً الى الغرفة الوسطى التي تفصل غرفته عن غرفة أبيه، وكان قد ارتدى سروالته الزرقاء وشد الى وسطه حزاماً أزرق

مثلها، وترك نصف جسمه الأعلى عارياً ريثما يسخن الماء ليغتسل.. ثم مضى الى الكوخ المجاور الذي يتخذونه مطبخاً، فدخله بعد أن نحى عن بابه رأس الثور الواقف به. وكان المطبخ كالبيت كله مبنياً من اللبن (الطوب النييء) المجفف في الشمس بعد صنعه من الطين والتبن. وفيه الفرن الذي شيد في عهد جده ولم يجدد بعد ذلك، فصار لونه أسود قاتماً لطول عهده بتراكم الدخان والغبار!. فوضع (وانج) فيه قدراً مدورة ضخمة من الحديد بعد أن ملأها بالماء الذي اغترفه من آنية هناك بنصف قرعة مجففة.

وكان حذراً جداً وهو يغترف الماء حتى لا يقع على الأرض شيء منه، ولا عجب فالماء من الاشياء الثمينة التي يجب الحرص عليها. ثم ما لبث قليلا حتى أخرج القدر من الفرن وصب كل الماء الدافىء الذي بها على جسده وهو فرح فخور.. انه منذ كان طفلا صغيراً في حجر أمه لم ير أحد جسده قط، أما اليوم، فهناك زوجة سترى جسده ولهذا يجب أن يكون نظيفاً!

ولما فرغ من ذلك، خف الى ما وراء الفرن حيث أخذ من ركن بالمطبخ مقداراً من الاعشاب الجافة وقذف بها في فوهة الفرن لتجديد النار المشتعلة فيها، وكان يحدث نفسه أثناء ذلك بأن هذه هي آخر مرة يشعل فيها بنفسه نار الفرن في الصباح، بعد أن ظل يشعلها صباح كل يوم منذ ماتت أمه قبل ست سنوات، ليعد ماء ساخناً يصبه في آنية و يحملها الى أبيه الذي يجلس حينئذ في فراشه يسعل كعادته و يبحث بيديه عن حذائه فوق أرض الغرفة كأنما يريد أن يستعجله ليهدىء بالماء الساخن من نوبة سعاله في الصباح!

لقد آن للأب والأبن كليهما أن يستريحا، فهناك امرأة ستأتي الى البيت، وليس على (وانج لنج) بعد اليوم أن يستيقظ في الفجر كل يوم، صيفاً وشتاء، لكي يوقد النار، بل أنه سيمكث في فراشه حتى تحضر

اليه أيضاً آنية ماء حار، واذا كان المحصول جيداً فسيكون في الماء بضع أوراق من الشاي!

وأمعن في تخيلاته، وشعر بشيء من الرثاء لتلك الزوجة فلعل هذه المهمة ستثقل عليها!. لكنه قال لنفسه: «ان أطفال يجرون في الغرف الثلاث التي يتكون منها المنزل!.. لقد كانت هذه الغرف الثلاث كثيرة بالنسبة له ولأبيه، وكان البيت يبدو نصف خال منذ وفاة أمه. وكان أبوه لا يفتأ يرد عن البيت أقارب أكثر عدداً، وكثيراً ما قال له أخوه ذو الاطفال العديدين: «كيف يقطن شخصان اثنان فقط منزلا فسيحاً كهذا؟.. ينبغي أن ينام الأبن الشاب مع أبيه الشيخ في سرير واحد ليدفىء جسمه!». وإذ ذاك يرد الشيخ قائلا: «انني أدخر سريري لحفيد سوف يأتي فيدفىء عظامي في الكبر!».

والآن سوف يأتي الأحفاد، بعضهم تلو بعض، حتى ليتطلب الأمر وضع سرر لهم الى جانب الحيطان في الغرف الوسطى كذلك، و يمتلىء البيت بالسرر!

وانطفأت النار في الفرن ووانج يفكر في أطفاله القادمين، وبدأ الماء يبرد في القدر، وبدأ أبوه الشيخ في عرض الباب ملتفعاً بثيابه من غيرأن يوثق أزرارها وكان يسعل و يبصق، ثم سأله: لماذا لم تأت بالماء الساخن بعد ليبعث الحرارة الى صدري؟».

فتذكر وانج لنج ما كان بصدده وتولاه الخجل، وغمغم من وراء الفرن قائلا: «ان الوقود رطب والريح رطبة...».

وقطع كلامه إذ عاد أبوه الى السعال بغير انقطاع، ولم يزل كذلك حتى غلا الماء في القدر، فأنزلها (وانج لنج) على الارض، وصب بعضه في آنية كان قد أعدها لذلك، ثم أخذ بعض أوراق جافة من وعاء لامع ونشرها على سطح الماء، وهنا اشتد جحوظ عيني أبيه، وصاح به وهو لا يزال يسعل: «ما هذا التبذير؟ ان من يشرب الشاي كمن يأكل الفضة!».

فرد عليه وانج قائلا وهو يبتسم: «ان اليوم له شأن آخر، فاشرب واغتبط يا أبتاه!».

وأمسك الشيخ الآنية بيديه الجافتين وهو لا يزال يهمهم بكلمات النقد واللوم، وأخذ ينظر الى أوراق الشاي وهي تتفتح فوق سطح الماء وكأنه يأبى أن يتجرع هذا الشراب الثمين، فقال له ولده: «ان الشاي سيبرد!».

فقال الشيخ: «صدقت!». ثم أخذ يرشف جرعات كبيرة من الشاي، وقد بدت في وجهه دلائل الرضا كشأن الطفل إذ يعجبه ما قدم له من طعام. على أنه لم يفته أن يلاحظ على ابنه أنه يصب الماء بلا اكتراث من القدر في وعاء عميق من الخشب، فرفع رأسه وصعد فيه بصره وقال له: «ماذا تصنع؟. ان هذا الماء يكفي لانتاج محصول وفير!».

ولم يجب وانج بل استمر يصب الماء حتى آخر نقطة منه وهو ساكت، فقال له والده محنقاً: «ماذا دهاك؟».

فأجابه بصوت خافت: «انني لم أغسل جسدي منذ عيد رأس السنة!».

وكأنما خجل من أن يصارح أباه بأنه يريد أن ينظف جسده قبل أن تقع عليه عينا امرأة!. ثم سرعان ما حمل الوعاء ومضى به الى غرفته فدخلها وأغلق بابها خلفه. بينما نهض أبوه الشيخ ومشى متعثراً الى الغرفة الوسطى حيث وضع فاه في فتحه الباب المغلق بغير احكام وصاح بابنه قائلا:

ـ لا يجدر بنا أن نبدأ مع المرأة هكذا: شاي في ماء الصباح وكل هذا الاستحمام!

فرد عليه وانج من وراء الباب قائلا: «انه ليوم واحد!.. ثم أني سأرش الارض بالماء بعد أن أغتسل وهكذا لن يضيع بغير فائدة!».

فسكت الشيخ، بينما فك الشاب حزامه ثم تجرد من ثيابه، وغمس فوطة صغيرة في الماء الساخن وأخذ يحك بها جسمة الأسمر النحيل حتى صار البخار يحيط به. ثم ذهب الى صندوق كان لأمه وأخرج منه ثياباً زرقاء جديدة من القطن.. انه قد يشعر اليوم بالبرد اذا خلع عن نفسه ثياب الشتاء السميكة. غير أنه لم يرض أن يضع هذه الثياب الخلقة على جسمه النظيف، ولم يحب أن تراه عروسه أول مرة في مثلها!. وصحيح أنها بعد حين سيكون من واجبها أن تغسل الثياب وترقعها، ولكن لا ينبغي أن تفعل ذلك أول يوم!

وارتدى فوق السترة والسراويل القطنية ثوباً طويلا من القطن، كان قد اعتاد أن يرتديه في أيام الأعياد وحدها، أي نحو عشرة أيام في السنة. ثم فك ضفيرته الطويلة المدلاة فوق ظهره وتناول مشطاً من الخشب وجعل يمشط شعره.

وهنا جاء أبوه مرة أخرى ووضع فمه في فتحة الباب وصاح قائلا: «أليس لي ما آكله اليوم؟. اني في مثل سني هذه تبقى عظامي لينة رخوة كالماء حتى أزودها بالغذاء!».

فهتف به وانج لنج وهو يربط شعره: «سآتي فوراً.!». ثم فتح الباب وغادر الغرفة وهو يحمل وعاء الماء ليرش به الارض أمام الباب الخارجي للبيت.

وكان قد نسي طعام الفطور، فرأى أن يضع قدراً من الحنطة في قليل من الماء المغلي ويقدمه لأبيه، لكنه تذكر أنه استنفد كل الماء الذي كان في القدر لاستحمامه، وعليه اذن أن يوقد النار مرة أخرى، فشعر بشيء من الكدر والضيق بأبيه وقال يحدث نفسه: «ان هذا الشيخ الفاني لا يفكر في شيء عدا طعامه وشرابه!».

وعزى نفسه مرة أخرى بأنه لن يعاني هذا التعب بعد اليوم، فستكون هناك من تعد الطعام له ولأبيه الشيخ!. ثم مضى فوضع قليلا

من الماء في القدر بعد أن استمده من بئر قرب الباب، فلما غلا الماء بعد قليل وضع فيه الحنطة، ثم ذهب بالطعام الى أبيه، وقال له:

ـ سيكون عشاؤنا الليلة أرزاً يا أبي. أما الآن فاليك هذه «البليلة».

فقال الشيخ وهو يجلس الى مائدة بالغرفة الوسطى و يحرك الطعام بعودين صغيرين من الخشب: «لم يبق في السلة سوى قليل من الأرز!».

فقال وانج: «اذن.. نقلل من الأرز في عيد الربيع». ولكن الشيخ لم يسمع إذ كان مشغولا بازدراد الطعام الذي أمامه!

ثم ذهب الى غرفته ومر بأصبعه على حاجبيه الحليقين وعلى خديه فرأى أن يحلقهما من جديد. ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد، ففي استطاعته أن يذهب الى شارع الحلاقين فيحلق رأسه قبل أن يقصد الى الدار التي بها زوجته.. نعم.. في استطاعته ذلك ما دام معه ما يكفي من النقود!

وتناول من حزامه كيساً صغيراً وعد النقود التي به، وكان ستة ريالات فضية وقبضتين من النقود النحاسية. ولم يكن قد أنبأ والده بعد بأنه دعا الى تناول العشاء معهما عمه الشيخ وابن عمه الشاب وثلاثة فلاحين من الجيران، ولا بأنه اعتزم لذلك أن يشتري لحم خنزير وقليلا من السمك وحفنة من أبي فروة. وقد يمكنه أيضاً شراء مقدار من لحم البقر ليطهوه مع الكرنب الذي زرعه في حديقته. ولكن هذا لا يكون إلا اذا بقيت معه نقود بعد شراء الزيت وصلصة فول الصويا، وبعد أجرة حلق رأسه!

ورأى وانج أنه لا بد من حلق رأسه على أية حال!.. فترك أباه الشيخ وغادر البيت في باكورة الصباح وقد بدأت الشمس تشرق على السحب وتجفف الندى الذي على القمح والشعير، وكأنما استيقظت هواية الفلاح في نفسه فأخذ يفحص السنابل التي لم تنضج بعد ولا

تزال خالية تنتظر المطر لكي تمتلىء. ثم شم الهواء ونظر الى السماء في قلق، ولكن قلقه زال إذ رأى السحب معتمة ثقيلة بما تحمله من مطر، ثم قال لنفسه: «يجب أن أشتري عوداً من البخور لأضعه في المعبد الصغير لاله الأرض!. أجل في يوم كهذا اليوم يجب ألا يفوتني مثل هذا الأمر!».

ومضى في طريقه وسط الحقول، ثم وقف قليلا يتأمل بيتاً كبيراً يقوم عند مدخل سور البلدة، فهذا البيت هو بيت «هوانج» الذي نشأت فيه المرأة التي ستصبح زوجته، جارية رقيقة منذ طفولتها. ذلك هو بيت هوانج. ان بعض الناس يقولون: خير للانسان أن يبقى عازباً من أن يتزوج امرأة كانت أمة في بيت كبير. غير أنه لما قال لأبيه: أفلا أتزوج أبداً؟ أجابه أبوه قائلا: «ان الزواج يكلف الانسان شططاً في هذه الايام فان كل امرأة تطلب لنفسها خواتم من ذهب وثياباً من حرير قبل أن تتزوج الرجل، فلا يبقى أمام الفقراء أمثالنا إلا أن يتزوجوا بالاماء!».

وتحرك أبوه بعدئذ وذهب الى بيت هوانج يسأل عن جارية قد تزيد على حاجة أهل الدار فيتزوجها ولده وقال: «أريد جارية لا تكون صغيرة السن ولا تكون بارعة الحسن!».

وقد رضي وانج لنج على مضض بأ لا تكون زوجته جميلة، وكان يود لو كانت له زوجة حسناء يهنئه الرجال بها، ولما رآه أبوه عابساً صاح به قائلا: «وماذا نفعل بامرأة حسناء؟. اننا نحتاج الى امرأة تخدم البيت وتنجب الاطفال وتعمل في الحقل. فهل المرأة الحسناء تفعل ذلك؟. انها لن تفكر إلا في الثياب الملائمة لها!. كلا! لا نريد امرأة حسناء في بيتنا. اننا فلاحون. وسوى ذلك أين هي الجارية الحسناء التي تبقى عذراء في بيت كبير؟. ان كل أسيادها الشبان يشبعون نهمهم منها. خير للانسان أن يكون الرجل الاول لامرأة قبيحة من أن يكون الرجل الواحد بعد المئة لامرأة جميلة!. وهل تظن أن امرأة حسناء تسر لرؤية

يديك الخشنتين ووجهك الذي لفحته الشمس كما تسر لرؤية اليدين الناعمتين والوجه الناضر لأبن أحد السراة ممن استمتعوا بها؟!».

وأدرك أن أباه على صواب، ومع هذا جاهد نفسه قبل أن يجيب بعنف:

- اني على الأقل لا أريد لنفسي امرأة في وجهها آثار الجدري، أو تكون شفتها العليا مقطوعة!

ولم تكن بالمرأة آثار من الجدري ولا بشفتها العليا قطع، وكان الشاب يعرف ذلك ولكنه لا يعرف شيئاً سواه. وكان هو وأبوه قد اشتريا خاتمين من الفضة مطليين بالذهب، وقرطين من الفضة كذلك. وقد حمل أبوه هذه الحلي الى السيد الذي يملك الجارية دلالة على خطبتها. ولكن (وانج لنج) لا يدري شيئاً عن المرأة التي ستصبح زوجته سوى أن له أن يذهب هذا اليوم لأخذها!

ولما وصل الى بوابة البلدة وقف قليلا يتأمل السقائين الذين يسيرون خارجها وهم يدفعون أو يجرون عربات محملة بأوعية كبيرة مملوءة بالماء، وقد تدفق بضعة منها على أرض النفق المعتم لمدخل البلدة وجدرانه السميكة المشيدة من الطين والتبن. وكان الجو هناك بارداً حتى في أيام الصيف ولذا كان بائعو البطيخ يعرضونه على الرصيف وقد شقوه شطرين. ولكنه لم يجد هناك أحداً منهم وانما كانت هناك سلال مملوءة بالخوخ الاخضر أسندها باعتها الى الجدران وأخذوا يصيحون: «باكورة خوخ الربيع! اشتر وكل ونظف أمعاءك من سموم الشتاء!».

فقال وانج لنج لنفسه: «اذا كانت تحب الخوخ فسأشتري لها حفنة منه عند عودتي».

واتجه الى اليمين قرب نهاية البوابة قاصداً الى شارع الحلاقين. وكان قد سبقه الى هناك بعض الفلاحين، وجلسوا عارضين منتجاتهم من الخضراوات، وقد نفد أكثرها بعد أن لبثوا ساعات الليل الأخيرة

الباردة في هذه المهمة. وقد تفاداهم وانج لنج حتى لا يعرفهم بعضهم، إذ لم يحب أن يسمع شيئاً من نكاتهم في ذلك اليوم. وكان الحلاقون واقفين صفاً خلف أكشاكهم الصغيرة، فقصد الى أبعدهم وجلس فوق كرسي وأشار الى الحلاق وكان واقفاً يتحدث مع جاره فجاء مهرولا وأسرع فصب في وعاء نحاسي ماء ساخنا من اناء كان موضوعاً على آنية فحم، وسأل وانج بلهجة أرباب المهنة: «أتريد حلاقة كاملة؟».

فأجابه قائلا: «أريد حلق شعر رأسي ووجهي».

فسأله الحلاق: «ألا تريد تنظيف الأذنين والأنف أيضاً؟».

فقال له في حذر: «كم يتكلف ذلك؟».

فغمس الحلاق قطعة من قماش سوداء في الماء الحار ثم أخرجها وقال له: «أربعة دراهم!».

فقال وانج لنج: «سأدفع لك درهمين». وهنا التفت الحلاق الى جار له وتبادل معه نظرات ماكرة، ثم قال لوانج: «اذن.. انظف لك احدى أذنيك وأحد خيشوميك فقط!.. فعلى أي جانبي الوجة تريد ذلك؟».

وأدرك وانج لنج من ضحك جار الحلاق أنه وقع في يد ماكر خبيث لاذع النكتة، وكان يشعر دائماً بالنقص حيال أهل المدينة أيا كانوا، فسارع الى القول: «كما تشاء.. كما تشاء!». ثم أسلم اليه رأسه، فأخذ الحلاق يضع على رأسه ووجهه الصابون و يمسح و يحلق كما يريد، ومن حين لآخر يربت كتفه وظهره متطوعا لازالة توتر أعصابه، ثم قال له وهو يحلق له جبهته:

ـ انك لن تكون فلاحاً قبيح المنظر اذا حلق شعرك. ان الزي الحديث يقضي بقطع الضفيرة.

وأخذ يعمل بموساه حول دائرة الشعر التي بأعلى الرأس، فقال له وانج لنج:

ـ اني لا أقدر أن أقطعها بغير اذن من أبي!

فضحك الحلاق وترك تلك الدائرة ثم مضى في الحلاقة حتى أتمها، فنهض وانج لنج ونقده الأجر المتفق عليه. وقد شعر وهو يضع النقود في يد الحلاق، بأنه أسرف أكثر مما ينبغي، غير أنه لما سار في طريقه وقع الريح على جلده الحديث الحلاقة شعر بارتياح وقال لنفسه: «انها مرة في العمر!».

ثم ذهب الى السوق واشترى رطلين من لحم الخنزير، وراقب القصاب وهو يضع اللحم في ورقة جافة من أوراق اللوتس. ثم اشترى بعدئذ ستة أرطال من لحم البقر، وظل يقاوم تردده حتى اشترى كل ما تحتاج اليه مأدبة الطعام. وتوجه أخيراً الى تاجر شمع فابتاع عودين من البخور. ثم عاد أدراجه قاصداً الى دار (هوانج) في خجل شديد!

ولما صار بباب الدار تملكه الرعب، وجعل يسائل نفسه: «كيف جئت وحدي؟.. لقد كان الأولى أن يصحبني أبي أو عمي أو (تشنج) أقرب جار لنا، أو أي انسان!».

انه لم يدخل قط بيتاً كبيراً من قبل. فكيف يدخل الآن وطعام الزفاف على ذراعيه و يقول: «لقد جئت من أجل امرأة!».

ووقف بالبوابة الكبيرة المغلقة ينظر في حيرة الى خشبها الأسود والاطار الحديدي الذي يتوسطها، ثم ينظر الى تمثالي الأسدين المقامين على جانبيها من الحجر للحراسة!. وأخيراً وجد أن من المحال ولوج هذا الباب، وشعر باعياء مفاجىء فرأى أن يذهب أولا لشراء شيء من الطعام لنفسه إذ كان قد نسي أن يأكل!

وهناك في مطعم بشارع صغير قريب وضع درهمين على منضدة وجلس اليها فجاء غلام قذر الهيئة عليه مئزر أسود لامع فصاح به قائلا: «سلطانيتين من عصيدة الأرز!».

ولما جاء بهما الغلام اليه أخذ يأكل ما فيهما بشراهة وهو يقذف الطعام الى فمه بعودين من القش، بينما تناول الغلام الدرهمين بين ابهامه وسبابته ثم قال له: «أتريد مزيداً من العصيدة؟». فهز وانج لنج رأسه نفياً وظل جالساً ينظر حوله، ولم يكن هناك أحد يعرفه بين الجالسين الى المناضد الكثيرة بالمطعم يأكلون أو يشربون الشاي. وكانوا جميعاً من الفقراء فبدا بينهم نظيفاً أنيقاً يكاد يحسب من الأغنياء حتى ان متسولا جاء اليه واستجداه، فسره هذا لأنه لم يحده له من قبل قط، ووضع في كشكول المتسول قطعتين من عملة صغيرة كل منها خمس درهم فسارع المتسول الى دسهما في أسماله ومضى.

وضاق خادم المطعم ببقاء وانج لنج جالساً من غير أن يطلب شيئاً آخر، فقال له بصبر نافد وقحة ظاهرة: «اذا كنت لا تريد أن تطلب لنفسك شيئاً آخر فستضطر الى دفع ايجار لهذا الكرسي!».

واغتاظ وانج لنج من هذه الوقاحة وهم بمغادرة المطعم غير أنه تذكر أن عليه أن يعود من هناك الى دار (هوانج) ليطلب امرأة، فتصبب العرق من جسمه كما لو كان يكدح في الحقل، وقال للغلام بصوت واهن: «أحضر لي شاياً!».

فسأله الغلام: «أين الدرهم ثمن الشاي؟» فنظر اليه مرتاعاً، ثم دفع اليه درهما آخر وغمغم قائلا: «هذه سرقة!». وفي هذه اللحظة لمح جاره الذي دعاه الى وليمة العشاء داخلا الى المطعم، فركز بصره على اناء الشاي. ثم تجرع ما فيه مرة واحدة ونهض مسرعاً فغادر المطعم من باب جانبي. فلما صار في الشارع مرة أخرى قال لنفسه في يأس: «لا بد مما ليس منه بد». ثم مضى في خطى بطيئة صوب دار (هوانج).

كانت البوابة مفتوحة على مصراعيها، إذ كان الوقت وقت ظهيرة، وكان البواب جالساً في بلادة وهو ينظف أسنانه بعد الغداء بعود من القش. وكان رجل طويل القامة، له شامة كبيرة على خده الأيسر

تتدلى منها ثلاث شعرات طويلة لم تقطع قط. ولما رأى وانج لنج قادماً وهو يحمل سلة ظن أنه بائع فصاح به قائلا: «ماذا تريد؟».

فأجاب في تلعثم: «انني.. وانج لنج... الفلاح!».

فعاد البواب يسأله في دهشة: «وما شأني بوانج لنج الفلاح؟!».

فاشتد تلعثم وانج لنج وهو يجيب قائلا: «لقد جئت... لقد جئت... نعم لقد جئت يا سيدي!».

فقال البواب متبرماً: «اني أرى أنك قد جئت!.. فماذا هناك بعد ذاك؟!».

فقال وانج لنج بصوت خافت كأنه همس: «ها هنا امرأة!».

وعندئذ ضحك البواب وقهقه وقال: «اذن أنت هو!. لقد كلفت أن أنتظر عريساً اليوم. ولكني لم أعرفك وأنت تحمل هذه السلة!».

فقال وانج لنج معتذراً: «ان بها قليلا من اللحم».

وتوقع أن يقوده البواب الى الداخل ولكنه لم يتحرك من مكانه. وأخيراً سأله وانج: «أأدخل وحدي؟».

فبدا البواب وكأنه ارتاع لذلك، ثم قال له: «تدخل وحدك؟.. ان السيد الشيخ يقتلك لا محالة!».

ولما لحظ السذاجة البادية عليه قال له: «ان قطعة صغيرة من الفضة هي مفتاح نافع!».

فأدرك وانج لنج أن الرجل يريد نقوداً منه، وعندئذ قال له: «انني رجل فقير».

فقال له البواب: «دعني أنظر ما في حزامك!».

وهنا وضع وانج لنج السلة التي يحملها على الارض، ورفع ثوبه وأخرج من حزامه كيساً صغيراً ونثر ما فيه بكفه اليسرى في سذاجة!..

وكان قطعة فضية وأربعة عشر درهماً من النحاس. فقال له البواب ببرود: «سآخذ القطعة الفضية!».

وقبل أن يحتج أو يرفض كان البواب قد أخذها ووضعها في كمه ثم تركه بالباب ودخل الدار في خطى واسعة وهو يصيح قائلا: «العريس!.. العريس!».

ولم يسع وانج لنج إلا أن يتبعه برغم كدره مما حدث وفزعه من أعلان قدومه على هذا الشكل، ومضى وهو يحمل السلة خلفه لا يلتفت يميناً ولا يساراً وعيناه الى الارض ووجهه يكاد يحترق خجلا كلما سمع صوت البواب يصيح بكلمة (العريس) فتجاوبه الضحكات من كل جانب. حتى اذا خيل له أنه مر بمائة غرفة أو أكثر، وقف البواب فجأة ثم دفعه الى غرفة صغيرة للانتظار، فوقف بها وحده في حين غاب البواب في غرفة أخرى وعاد بعد لحظة يقول: «ان السيدة الكبيرة قد أمرت بمثولك أمامها!»

وتقدم وانج لنج يريد الدخول ولكن البواب أوقفه قائلا: «لا يمكنك أن تقابل سيدة عظيمة وأنت تحمل سلة على ذراعك.. سلة بها لحم خنزير وفول!. كيف تقدر أن تنحني إجلالا للسيدة ومعك هذه السلة؟!».

فقال له وانج لنج: «صدقت.. صدقت يا سيدي!». غير أنه لم يرد أن يضع السلة على الارض خشية أن يسرق منها شيء. وأدرك البواب ذلك فصاح به في لهجة ازدراء شديد: «في بيت كهذا نطعم الكلاب بمثل هذا اللحم!». ثم أمسك السلة ووضعها خلف الباب ودفع وانج لنج أمامه وسار كلاهما في شرفة طويلة يعتمد سقفها على عمد مزينة بأشكال محفورة فيها، حتى دخلا قاعة لم ير (وانج لنج) مثيلا لها من قبل، فقد كانت من الاتساع بحيث يمكن أن يوضع فيها بيته كله. فرفع رأسه متأملا الاشكال المرسومة والمحفورة في السقف، وهنا تعثر بالباب حتى كاد يقع لولا أن سارع البواب فأمسك ذراعه وصاح به

قائلا: «هل من الأدب أن تقع على وجهك هكذا أمام السيدة الكبيرة؟!».

فخجل وانج لنج ثم تمالك نفسه ولم يعد ينظر إلا أمامه ليتبين طريقه ولا يتعثر مرة أخرى!. فلما توسط القاعة رأى أمامه سيدة بالغة الكبر مجعدة الوجه تجلس على كرسي كبير فوق منصة، وكان جسمها النحيل تغطيه ثياب فاخرة من حرير أسمر مطرز باللآلىء، وعلى منضدة واطئة بجانبها غليون للأفيون يتصاعد منه الدخان فوق مصباح صغير!

ونظرت هي اليه بعينين سوداوين ضيقتين حادتي البصر كأنهما عينا قرد، فجثا على ركبتيه بين يديها وسجد على أرض الغرفة مسرعاً، فقالت السيدة العجوز للبواب: «ارفعه!. ان مراسم الخضوع هذه ليست ضرورية. هل جاء في طلب المرأة؟».

فأجاب البواب: «أجل أيتها السيدة ذات المجد التليد».

فألقت نظرة فاحصة على وانج لنج ثم قالت للبواب: «لماذا لا يتحدث عن نفسه اذن؟».

فقال لها البواب: «هذا لأنه يا سيدتي العظيمة أبله أو أحمق!».

فأثار هذا الجواب غيظ وانج لنج ونظر الى البواب نظرة غضب. ثم واجه السيدة قائلا:

ـ انني لست إلا فلاحاً بسيطاً أيتها السيدة العظيمة القديمة. ولست أدري كيف أخاطب من لها مثل مقامك العالي!».

فنظرت اليه العجوز ملياً باهتمام ظاهر وهمت بالكلام لولا أن يدها أطبقت على الغليون إذ ناولتها إياه احدى الجواري. وما لبثت قليلا حتى نسيت وجوده وأخذت تشد أنفاساً من الغليون، وسرعان ما خفتت حدة نظراتها وبدا عليها الذهول، في حين ظل واقفاً في مكانه صامتاً، حتى وقعت عليه عيناها مرة أخرى فقالت في لهجة يشوبها الكدر: «ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟!».

وأدرك وانج لنج أنها نسيت كل شيء، ونظر الى البواب فلما رآه جامداً في مكانه لا يتحرك ولا يريد أن يتكلم، قال لها مشدوهاً: «اني أنتظر المرأة أيتها السيدة العظيمة!».

فقالت له متعجبة: «المرأة؟.. أية امرأة؟!».

وهنا انحنت الجارية الواقفة بجانبها على أذنها وهمست اليها بضع كلمات فتنبهت السيدة العجوز من غفلتها وقالت: «آه.. لقد نسيت!.. انها مسألة صغيرة. لقد أتيت في طلب الجارية المسماة (أولان).. اني أذكر أننا وعدنا بأن نزوجها لأحد الزراع. أأنت هو الذي سيتزوجها؟».

فانحنى أمامها وقال في خجل ملحوظ: «أجل يا سيدتي الجليلة!».

فقالت السيدة لجاريتها: «نادي (أولان) فوراً.!».

لقد أرادت أن تنتهي من هذه المسألة في أسرع وقت لكي تعود فتخلو الى غليون الأفيون. ولم تمض دقيقة حتى عادت الجارية تقود بيدها شابة طويلة القامة ربعة القوام ترتدي ثوباً أزرق نظيفاً وسراويل من القطن، فألقى وانج لنج عليها نظرة وقلبه يخفق خفقاناً سريعاً. وحدث نفسه قائلا: «حسناً!. انها لأحسن كثيراً مما تخيلت!». بينما قالت السيدة العجوز في غير اكتراث: «تعالي أيتها الجارية!.. لقد جاء هذا الرجل في طلبك!».

فاقتربت (أولان) من السيدة ووقفت حانية رأسها متشابكة اليدين. فسألتها السيدة: «هل أنت مستعدة؟».

فردت الجارية في بطء: «أجل يا مولاتي!».

ولما سمع صوتها لأول مرة نظر الى ظهرها وهي واقفة أمامه. لقد كان صوتها لا بأس به فهو ليس بالمرتفع ولا الناعم ولكنه واضح يدل على هدوء. وكان شعرها ناعماً وثوبها نظيفاً أنيقاً. ولحظ في استياء أن قدميها غير مربوطتين كأقدام الصينيات الحسان، ولكنه لم يفكر في

ذلك طويلا لأن السيدة العجوز كانت وقتئذ تقول للبواب: «احمل صندوقها الى البوابة ودعها تذهب معه!».

ثم أشارت الى وانج لنج ليقترب وقالت له: «قف بجانبها ريثما أتكلم!».

ولما وقف بجانب عروسه قالت له السيدة: «ان هذه المرأة قد جاءت الى بيتنا وهي طفلة لا يزيد عمرها على عشر سنوات، وقد عاشت هنا حتى بلغت العشرين من عمرها الآن. وقد اشتريتها في سنة مجاعة إذ هاجر أهلها الى الجنوب بعد أن لم يجدوا شيئاً يأكلونه. وكانوا قد وفدوا من الشمال من بلدة (شانتونج) ثم عادوا الى هناك ولا أعلم عنهم شيئاً بعد ذلك. وأنت ترى أنها قوية الجسم ولها وجه مربع مثل قومها. انها ستعمل عندك بجد في الحقل وستسحب الماء من البئر وتفعل كل ما تطلبه منها. انها ليست جميلة ولكنك لست بحاجة الى الجمال، فان الرجال المتبطلين وحدهم هم الذين يحتاجون الى الحسان لتسليتهم. ولكنها تحسن أداء ما تؤمر به. كما أنها هادئة الطبع. ثم هي فيما أعلم لا تزال عذراء إذ ليس لها من الجمال ما يغوي أبنائي وأحفادي. فاذا ظهر غير ذلك فالمسئول عنه لا يمكن أن يكون إلا أحد الخدم. على أن الجواري الحسان هنا كثيرات، ولهذا أشك كثيراً في أن أحد الخدم هنا يتركهن الى مثلها. والآن هيا خذها واستفد منها. انها جارية طيبة وإن تكن بطيئة وغبية الى حد ما!. ولولا أني وعدت في المعبد بعمل الخير تأهباً لحياتي الأخرى، لاحتفظت بها لأنها صالحة للخدمة في المطبخ. ولكني تعودت أن أزوج كل جارية لي اذا رغب أحد في زواجها، ولا سيما اذا كان أحد من السادة لا يريدها!».

ثم التفتت الى أولان وقالت لها: «أطيعيه واحملي له أبناء تلو أبناء. واحضري الي أول ولد لكي أراه!».

فقالت لها أولان بخضوع: «سمعاً وطاعة يا مولاتي!». ثم سكتت وبقي وانج لنج ساكتاً وهو واقف بجانبها، إذ لم يدر أيجب عليه أن

يتكلم أم لا، ولكن السيدة العجوز أنقذته من هذه الحيرة إذ صاحت فجأة: «هيا.. اذهبا!». فحنى وانج لنج رأسه اجلالا وتحية لها، ثم خرج مسرعاً وفي أثره أولان عروسه ووراءها البواب حاملا صندوقها على كتفه فلما بلغوا الغرفة التي ترك بها وانج لنج سلته، وضع البواب الصندوق إذ لم يرد أن يحمله أكثر من ذلك، ثم تركهما هناك وانصرف من غير أن ينبس بكلمة!

ونظر وانج لنج الى وجه عروسه لأول مرة فوجده مربعاً تدل ملامحه على الصدق والاخلاص، و بتوسطه أنف قصير عريض ذو خياشيم كبيرة، وفم واسع، وعينان صغيرتان سوداوان لا تدلان على كثير ذكاء ولكن على حزن عميق غير واضح!.. وكان وجهها من ذلك النوع الذي لا يقدر على التعبير حتى لو أراده!. وقد تلقت نظراته اليها من غير أن تبدو عليها حيرة أو مجاوبة وكأنها تمثال لا حياة فيه!

وقال وانج لنج لنفسه: «انها عاطلة من كل حسن فوجهها الأسمر قد شوهته آثار الجدري، وشفتها مشقوقة. وها هي ذي قد حلت أذنيها بالقرط الذي أهديتها اليها، كما حلت أصبعها بالخاتمين اللذين بعثت بهما». ثم تنهد وقال لها في لهجة تنم عن سروره بأن قد صارت له زوجة: «سنأخذ معنا الصندوق والسلة!».

ولم تقل هي شيئاً، وانما انحنت على الصندوق ورفعته على كتفهاوحاولت أن تنهض به لكنها ترنحت تحت ثقله. فقال لها: «سأحمل أنا الصندوق، فاحملي أنت هذه السلة!».

وحمل الصندوق على ظهره دون أن يعبأ بالثوب الذي يلبسه وهو أحسن ثيابه، وحملت هي السلة من مقبضها ومشت خلفه في صمت. وكأنما تذكر هو كثرة الغرف التي مر بها، فأشفق من تعب الحمل الثقيل الذي على ظهره وقال لها: «أليس للدار باب جانبي؟».

ففكرت هنيهة كأنها لم تفهم لأول وهلة ما يريده، ثم أومأت برأسها موافقة وقادته خلال فناء مهجور نما العشب على أرضه وجف

الماء في بركته، وهناك تحرك تحت شجرة صنوبر محنية وقفت أمام باب مستدير قديم ففتحته، وخرجا منه الى الشارع!

وفي طريقهما الى داره، التفت خلفه لينظر اليها مرة أو مرتين وهي تسير على قدميها الكبيرتين صامتة لا تدل ملامحها على أي تعبير. فلما بلغا باب السور وقف وبحث باحدى يديه في حزامه عن الدراهم بينما الصندوق على كتفه تسنده يده الاخرى. ثم أخرج درهمين واشترى بهما ست خوخات خضراء صغيرة وقال لها بخشونة: «خذي هذه وكليها!».

فتناولتها بشغف كما يتناول الطفل لعبة أعجبته، ولكنها لم تنطق بكلمة. ولما نظر اليها مرة أخرى وهما يمشيان على طرف حقول القمح وجدها تقضم إحداها بحذر ولما رأته ينظر اليها غطتها بيدها ووقفت فكيها عن الحركة!

ومضيا في طريقهما هكذا حتى وصلا الى الحقل الغربي الذي أقيم به معبد الارض. وهو بناء صغير لا يعلو على قامة الانسان وقد شيد من طوب أسمر وجعل سقفه من القرميد. وكان جد وانج لنج الذي قضى حياته عاملا في هذه الحقول نفسها، قد بنى هذا المعبد بعد أن أحضر له (الطوب) من البلدة على عربة يد كانت له. وكانت حيطانه مغطاة بالطين من الخارج، وفي إحدى سنوات الرخاء استؤجر فنان القرية ليرسم عليها منظراً للتلال والأحراش. غير ان المطر ظل أجيالا يهطل فوق هذا الرسم حتى لم يبق منه سوى ظل لا يكاد يبين!

وفي داخل المعبد قبع تحت السقف صنمان صنعا من طين الحقول التي حول المعبد، يمثلان إله الارض وزوجته، وعليهما ثوبان من ورق أحمر مذهب وكان للاله شارب صغير مدلى الطرفين صنع من شعر حقيقي. وفي عيد رأس السنة من كل عام كان أبو (وانج لنج) يأتي بورق أحمر جديد مقطوع بعناية ويلصق منه ثوبين جديدين على الصنمين، إذ كان المطر والجليد يهطلان عليهما طول الشتاء، كما كانت الشمس في الصيف تصل أشعتها اليهما فتفسد الثوبين!

على أن ثوبي الصنمين في ذلك الوقت كانا لا يزالان سليمين إذ

كانت السنة قد بدأت منذ عهد وجيز، فشعر وانج لنج بالفخر لحسن مظهرهما، وأخذ السلة من فوق ذراع زوجته، ثم بحث تحت لحم الخنزير عن البخور الذي اشتراه وقد خاف أن تكون عيدانه قد انكسرت فيكون ذلك فألا غير حسن، ولكنه وجدها كاملة لم تنكسر فرشقها جنباً الى جنب في رماد العيدان التي كانت مكدسة أمام الصنمين، لأن أهالي القرية كلهم كانوا يعبدونهما. ثم أشعل ناراً أوقد بها البخور. ووقف هو وزوجته أمام الصنمين يرقبان عيدان البخور المحترقة في صمت وسكون.

ولما رأت الرماد قد أثقل على عيدان البخور اقتربت منه وأزاحته بسبابتها. وكأنما خافت مغبة ما فعلته فنظرت الى وانج لنج متسائلة ولكنه كان مرتاحاً الى ما فعلته. وشعرت بأن هذا البخور يحرق لأجلهما معاً فقد كانت الساعة ساعة زواجهما. ووقف كلاهما صامتين بينما استحال البخور رماداً. ولما كانت الشمس قد أذنت بالمغيب فقد حمل الصندوق على كتفه ومضى مع زوجته قاصدين الى البيت!

وكان أبوه الشيخ واقفاً بالباب يستمتع بآخر شعاع للشمس قبل غروبها، فلما رآهما مقبلين لم يبد حراكاً، إذ كان مما لا يتفق مع وقاره أن يلحظ وجود الزوجة، بل أنه تظاهر بالتطلع الى السحب ثم قال لولده: «ان هذه السحابة التي الى يسار القمر الجديد تنبىء بالمطر ولن يتأخر عن ليلة غد!».

ولما رأى وانج لنج يأخذ السلة من زوجته صاح به قائلا: «هل أنفقت نقوداً!».

ووضع السلة على المائدة وقال في إيجاز: «سيكون لدينا ضيوف الليلة!».

ثم حمل الصندوق الى الغرفة التي ينام بها ووضعه الى جانب الصندوق الذي به ثيابه، ونظر اليه مستغرباً ولكن الرجل الشيخ ما

لبث حتى جاء الى الباب وقال له: «لست أرى نهاية للتبذير الذي في هذا البيت!».

وكان في قرارة نفسه مسروراً لأن ابنه قد دعا ضيوفاً، ولكنه رأى ألا يبدي سوى الشكوى أمام زوجة ابنه كيلا تتعود الاسراف من أول يوم.

ولم يقل وانج لنج شيئاً بل حمل السلة ومضى بها الى المطبخ، بينما تبعته المرأة الى هناك. ثم تناول الطعام من السلة وأخذ يضعه قطعة قطعة على حافة الفرن، فلما انتهى من ذلك قال لها: «هذا لحم خنزير، وهذا لحم بقر. وسيتناول العشاء الليلة سبعة أشخاص. أيمكنك اعداد الطعام؟».

ولم يكن ينظر اليها وهو يخاطبها لأن ذلك لا يليق به!.. فأجابت المرأة ببساطة: «لقد كنت من جواري المطبخ منذ دخلت دار (هوانج). وكان هناك لحوم في كل وجبة!».

فأومأ وانج لنج برأسه موافقاً وتركها هناك، ولم يرها بعد ذلك حتى جاء الضيوف وفي مقدمتهم: عمه الذي كان مرحاً ماكراً جائعاً كعادته، وابن عمه وهو فتى وقح في الخامسة عشرة من عمره، وجماعة من زملائه الفلاحين منهم اثنان كان يتبادل معهما الحبوب والعمل في وقت الحصاد، ومنهم (تشنج) أقرب جيرانه وهو رجل وديع دقيق الجسم، لا يتكلم إلا اذا اضطر الى الكلام!

وبعد أن جلس الضيوف في الغرفة الوسطى مترددين بدافع الأدب والخجل، ذهب وانج لنج الى المطبخ ليأمر زوجته باحضار الطعام للضيوف، فسره منها أن أجابته قائلة: «سأناولك الآنية وأنت تضعها على المائدة فاني لا أحب أن أظهر أمام الرجال!».

لقد شعر وانج لنج بالفخر لأن هذه المرأة زوجته، ولأنها تكره أن تظهر أمام الرجال الغرباء. ثم أخذ منها الآنية عند باب المطبخ ووضعها على المائدة بالغرفة الوسطى وصاح قائلا: «هيا كلوا.. أنت يا عمي وأنتم يا أخواني!».

وكان عمه شغوفاً بالتنكيت فقال له: «ألا نرى العروس الحسناء؟».

فأجاب وانج لنج في حزم: «اننا لم نصبح شخصاً واحداً بعد. ولا يليق أن يراها أحد قبل ذلك!».

ثم حثهم على الأكل ليغير مجرى الحديث، فأقبلوا على الطعام بشهية، وقصروا كلامهم على امتداح ألوانه، بينما وانج لنج يرد تحياتهم في تواضع قائلا: «انه طعام ردىء سيء الطهو!». لكنه في قرارة نفسه كان فخوراً بألوان الطعام التي أبدعتها زوجته الصناع، حتى لقد شعر هو نفسه بأنه لم يذق مثلها من قبل!

وفي تلك الليلة بعد أن تناول الضيوف عشاءهم وشربوا الشاي وفرغت نكاتهم، كانت المرأة لا تزال قابعة وراء الفرن، حتى اذا ودع وانج لنج آخر ضيف ذهب اليها فوجدها نائمة على أكداس القش الى جانب الثور. ولاحظ أن بعض القش قد علق بشعرها، وما سمعته يناديها حتى رفعت ذراعها فجأة كأنما تتقي ضربة ستنزل عليه... ثم فتحت عينيها ونظرت اليه نظرة حائرة فخيل اليه أنه يرى طفلة أمامه، وأمسك بيدها وقادها الى غرفته حيث اغتسل في الصباح، ثم أشعل شمعة حمراء كانت على المنضدة. وفي ضوء هذه الشمعة شعر فجأة بالحياء إذ وجد نفسه وحده مع المرأة، لكنه أخذ يحدث نفسه مشجعاً بقوله: «هذه امرأتي ولا بد مما ليس منه بد!». ثم أخذ يخلع ثيابه متثاقلا، بينما زحفت هي حول ركن الستارة وأخذت تعد السرير من غير أن تحدث صوتاً. ثم قال لها بخشونة: «حين ترقدين لا تنسي أن تطفئي النور!».

ثم رقد على الفراش وجذب اللحاف الى كتفيه مدعياً النوم، ولكنه لم ينم بل كان يرتعد وكان كل عصب من أعصابه متوتراً. ولما شمل الغرفة الظلام وشعر بأنها بجانبه تملكته نشوة شديدة وضحك ضحكة خشنة!

الولد الأول

بدا وانج لنج ينعم بالعيش الرغد: ففي صباح اليوم التالي لوصول زوجته الى داره ظل راقداً في فراشه وأخذ يرقب المرأة التي أصبحت كلها ملكاً له. وقد نهضت وجذبت حولها ثيابها المفككة وأوثقت رباطها حول رقبتها وحول وسطها، ثم لبست حذائها المصنوع من القماش وربطته بالاربطة التي في مؤخرته. وانعكس عليها ضوء آت من الثقب فرأى وجهها بوضوح، وأدهشه أنه لم يطرأ عليه أي تغير، في حين أنه هو نفسه شعر بأن تلك الليلة قد أحدثت به تغيراً كثيراً..! ثم أخذ يسائل نفسه: «ما لهذه المرأة قد قامت من السرير وكأنها كانت تنهض منه كل يوم طول حياتها الماضية؟!».

وارتفع سعال أبيه الشيخ مشاكساً في عتمة الفجر فقال وانج لنج لزوجته: «اذهبي الى أبي بسلطانية ماء حار لأجل صدره».

فسألته: «أأضع بها أوراق شاي؟». فأزعجه هذا السؤال البسيط، وود لو يجيب قائلا: «لا ريب. يجب أن تكون فيها أوراق شاي. أم تحسبيننا بلغنا من الفقر الى حد نشبه معه المتسولين؟».

نعم، لقد ود لو تفهم زوجته أنهم في هذا البيت لا يقيمون وزناً لأوراق الشاي! فانها في دار هوانج كانت ترى كل سلطانية ماء يخضر لونها من أوراق الشاي. ولعل الجواري أنفسهن في ذلك البيت لا يحتسين الماء الساخن وحده!. بدلا من الماء القراح. ثم قال لنفسه: «الواقع أننا لسنا أغنياء!». ثم أجابها في غير اكتراث: «كلا!.. لا لزوم للشاي انه يهيج السعال عنده!».

ثم رقد في سريره دافئاً مغتبطاً في حين خرجت هي الى المطبخ فأشعلت النار في الفرن وغلت الماء!

وكان بوده لو يواصل النوم إذ ليس أمامه عمل في ذلك اليوم، ولكن جسده كان قد اعتاد النهوض في باكورة صباح كل يوم، فلم يستطع مواصلة النوم بعد ذلك، واكتفى بأن بقي ممدداً في فراشه يتذوق بذهنه وجسده لذة الكسل!

وكان لا يزال يشعر بالخجل من التفكير في هذه المرأة التي صارت له، فقضى جانباً من الوقت يفكر في حقوله وفي حبات القمح وفي مقدار المحصول اذا سقطت الأمطار وفي بذور اللفت التي يريد شراءها من جاره (تشنج) اذا اتفق معه على السعر. ولكن هذه الافكار التي تطرق ذهنه كل يوم كان يتخللها برغمه غير قليل من التفكير في حياته الجديدة، وخطر له بغتة، وهو يفكر في الليلة الفائتة، أن يسائل نفسه: «هل مالت اليه زوجته وأحبته؟» وكان ذلك أمراً عجيباً بالنسبة له، فقبل الآن كان يسأل نفسه: «ترى هل تعجبه؟. وهل يرتاح اليها في الفراش وفي البيت؟ انها اذا كان وجهها عاطلا من الحسن وجلد يديها خشناً، فان بشرة جسدها ناعمة وجسمها لم يمسه أحد من قبل!».

وحينما بلغ به التفكير الى ذلك الحد أطلق مثل تلك الضحكة الجامدة القصيرة، التي صدرت عنه في الظلام في الليلة الماضية، ثم قال لنفسه: «أجل!.. ان السادة الصغار لم يروا ما وراء ذلك الوجه العادي الذي لجارية المطبخ. ان جسدها جميل وهو مع كبر عظامه مستدير ناعم!».

وبغتة تمنى لو أنها مالت اليه كما تميل الزوجة الى زوجها، ثم خجل من نفسه واشتد خجله حين فتح باب الغرفة على أثر ذلك ودخلت زوجته في صمت حاملة اليه آنية يتصاعد منه البخار، فجلس في سريره وتناولها منها، وكانت أوراق شاي تعلو سطح الماء، فنظر اليها

نظرة سريعة جعلتها تشعر بالخوف فقالت: «اني لم أضع شاياً للشيخ... لقد فعلت كما قلت لي... ولكن لك أنت!».

وأدرك أنها خائفة منه، فسره ذلك وأجاب قبل أن تتم كلامها: «اني أحبه. نعم أنا أحبه!». وأخذ يرشف الشاي مسروراً، وقد شعر في قرارة قلبه بفرح جديد خجل من أن يعترف به لنفسه: «ان زوجته تحبه ولا ريب في ذلك!».

وفي الأشهر التالية، كان يخيل اليه أنه لا يفعل شيئاً سوى أن يرقب امرأته هذه. ولكنه في الحقيقة كان يواصل عمله أنشط مما كان قبل الزواج، فيحمل فأسه على كتفه و يسير الى الحقل حيث يزرع صفوفاً من الحب، أو يربط الثور الى المحراث و يحرث الارض تمهيداً لزرع الثوم والبصل. غير أن العمل أصبح عنده ضرباً من ضروب الترف، لأنه متى آذنت الشمس بالمغيب كان يرجع الى بيته فيجد الطعام معداً ليأكله، كما يجد المائدة قد أزيل التراب من فوقها والآنية وعيدان الملاعق نظيفة فوقها. وكان عليه قبل ذلك أن يعد الطعام عقب عودته برغم ما به من تعب، إلا اذا جاع أبوه الشيخ قبل الأوان فعندئذ كان يعد لنفسه طعاماً خفيفاً أو يخبز قطعة من الخبز قبل أن تختمر!

لقد صار في استطاعته أن يجلس على الدكة التي أمام المائدة فور وصوله الى البيت فيجد ما يأكله!. وكانت أرض البيت تكنس، وكوم الوقود يكمل كلما نقص. فان زوجته كانت اذا خرج هو الى الحقول، تخرج هي أيضاً لتحتطب من الأحراش القريبة، وتمضي ساعات تجمع الأعشاب الجافة وأغصان الشجر وورقها، ثم تعود ظهراً ومعها من الوقود ما يكفي لطهو طعام الغداء. وقد سر أباه الشيخ أنهم لم يعودوا بحاجة الى شراء الوقود!

و بعد الظهر كانت تأخذ فأساً وسلة وتحملهما على كتفها وتذهب الى الطريق الرئيسية المؤدية الى البلدة حيث تحمل البغال والحمير الأثقال رائحة غادية، وهناك تلتقط ما يتساقط من هذه الدواب وتعود به الى

البيت وتكدس السماد في الفناء لاستخدامه في الحقول. وكانت تؤدي هذه الاعمال من غير أن تنطق بكلمة أو يكلفها اياها أحد. واذا انتهى النهار كانت لا تأوي الى فراشها إلا بعد أن تطعم الثور في المطبخ و بعد أن تحمل الماء الى فمه ليشرب!

وكانت ترقع الثياب المقطعة، وتعرض الفراش للشمس وتخلع أغطية الألحفة وتغسلها ثم تجففها، وتستخرج قطع القطن التي أصبحت جافة بها فتقتل الحشرات التي في طياتها وتضعها في الشمس. وكانت كل يوم تؤدي عملا بعد آخر حتى صارت الغرف الثلاث نظيفة وتكاد تنم عن الرخاء. وقد تحسنت صحة الشيخ فخفت حدة سعاله وصار يستطيع الاستمتاع بأشعة الشمس عند الجدار الجنوبي للبيت وهو أشبه بالنائم شاعراً بالدفء والارتياح!

غير أن هذه المرأة لم تكن تتكلم قط إلا اذا أرغمتها ضرورات الحياة على الكلام. وكان وانج لنج يراقبها وهي تمشي في ثبات و بطء على قدميها الكبيرتين في غرف المنزل، و يختلس النظر الى وجهها المربع الجامد ونظراتها التي يرتسم فيها الخوف، فلا يكاد يفهم من أمرها شيئاً. وكان بالليل يعرف متانة جسدها ونعومته. ولكن في النهار كانت ثيابها ــ التي لا تعدو الثوب القطني الازرق البسيط والسراو يل ــ تغطي كل ما يعرفه منها، فكانت شبيهة بخادمة أمينة خرساء ولا أكثر من ذلك. ولم يكن من اللائق أن يسألها: «لماذا لا تتكلمين؟» و يكفي أنها تؤدي واجباتها أحسن الاداء!.

وأحياناً كان وهو يعمل في الحقول يتجه فكره اليها: ترى ما الذي رأته في بيت (هوانج) ذي المائة حجرة؟ وكيف كانت حياتها قبل الآن، تلك الحياة التي لم يكن شريكها فيها! انه لم يقدر أن يعرف شيئاً من ذلك. ثم يتغلب عليه الخجل من فضوله ومن اهتمامه بها. انها على أي حال ليست إلا امرأة؟

غير أن ترتيب ثلاث غرف واعداد وجبتين لا يشغلان امرأة كانت جارية في بيت كبير تشتغل فيه من الفجر الى منتصف الليل. ففي أحد الايام كان وانج لنج مشغولا بزرع حبوب القمح بالفأس حتى كاد العمل يقصم ظهره واذا به يرى ظلا ينعكس على الأخدود الذي انحنى فوقه فلما التفت رآها واقفة تحمل فأساً على ظهرها، وقالت له بايجاز: «ليس في البيت ما أعمله حتى المساء». ثم أخذت تعمل بفأسها في الأخدود الذي الى يساره بينما الشمس تلفح وجهها إذ كان ذلك في بداية الصيف، وصار العرق يتصبب منها. وكان وانج لنج قد خلع رداءه فصار يعمل وظهره عار، ولكنها هي كانت تعمل وثوبها الرقيق يغطي كتفيها، وسرعان ما ابتل من العرق ولصق بجسمها. وبقيا ساعات يعملان و يتحركان معاً في انسجام تام من غير أن يتبادلا كلاماً، فشعر (وانج لنج) برابطة الوحدة تربطه بها، وبدد هذا الشعور كل تعب أحسه. غير أنه لم تكن له فكرة واضحة عن أي شيء، وانما كان بينهما ذلك الانسجام في الحركة، وفي تعريض هذا الجزء من الارض أو ذاك للشمس، تلك الارض التي هي موطنهما ومصدر غذائهما والتي تصنع منها آلهتهما كذلك...وكانت التربة خصبة سمراء تتشقق بسهولة تحت سن الفأس. وأحياناً كانا يمسان بالفأس قطعة طوب أو خشب، ولم يكن ذلك شيئاً مذكوراً. ومن يدري لعل في العصور الماضية قد دفنت في ذلك الارض أجسام رجال ونساء أو سقطت بيوت كانت قائمة!. وهكذا سوف يكون مآل بيتهما كذلك إذ يعود في يوم ما الى الارض، ومثلهما جسداهما أيضاً. ان لكل دوره في هذه الارض!

ولما غربت الشمس قوم ظهره ببطء ونظر الى المرأة وكان وجهها مبللا بالعرق يعلوه تراب، وكانت سمراء كلون الارض نفسها، وكانت ثيابها المبللة الداكنة لاصقة بجسدها. وقد سوت آخر اخدود ببطء. ثم قالت بلهجتها العادية بلا مقدمة: «اني حامل».

ولما سمع (وانج لنج) ذلك وقف ذاهلا. وماذا يستطيع قوله حيال ذلك؟. ثم انحنت لتلتقط قطعة طوب وتقذف بها بعيداً عن الاخدود.

وكأنما قالت شيئاً عادياً مثل: «لقد أحضرت بعض الشاي» أو كأنما قالت: «يمكننا أن نأكل!».

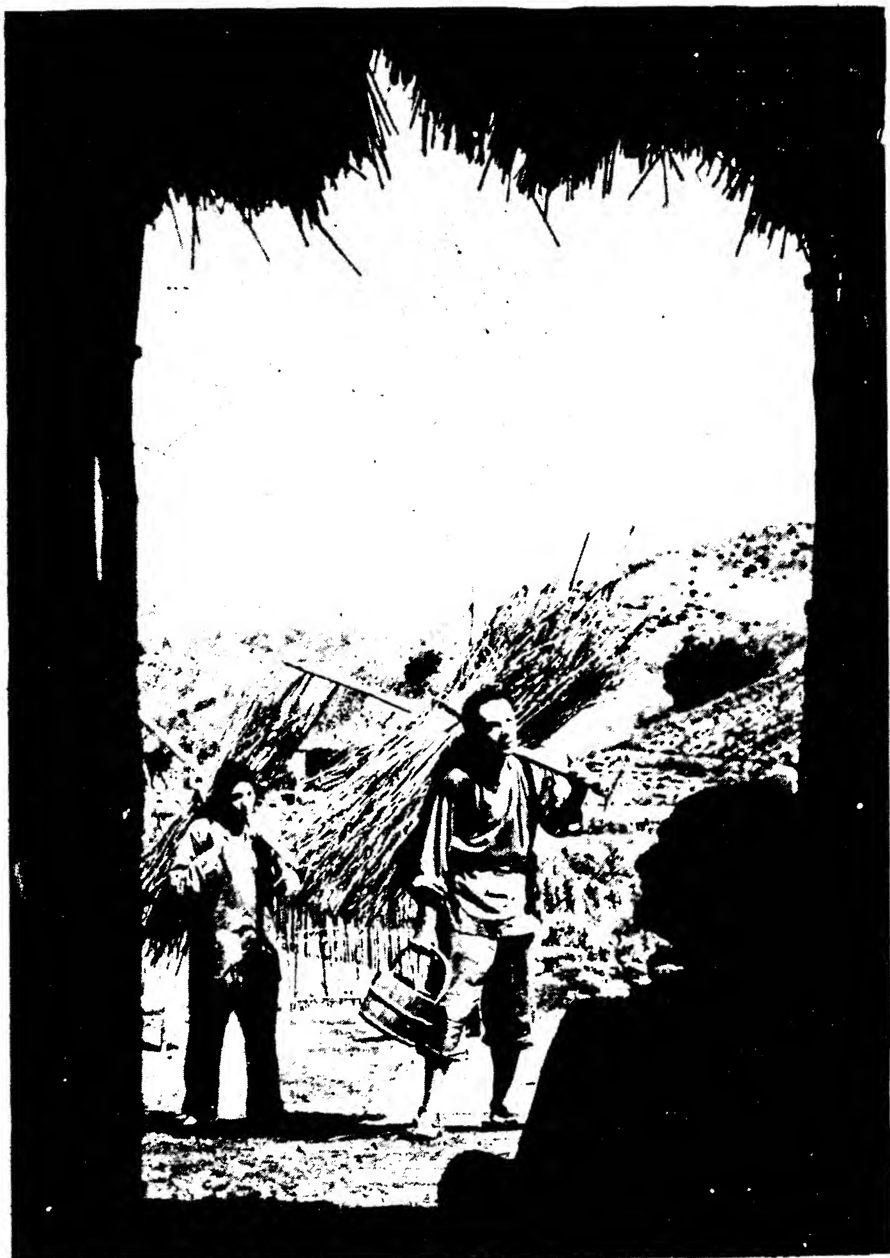
لقد بدا أمر الحمل عادياً عند أولان!.. أما هو فانه لم يقدر أن يعبر عن أهمية هذا النبأ بالنسبة له، وانما خفق قلبه ثم وقف فجأة وقال لها: «حسناً!». ولم يزد على ذلك شيئاً!. بل اكتفى بأن أخذ منها الفأس وقال لها بصوت مختنق: «يكفي ذلك. لقد انتهى النهار. وسنخبر الشيخ!».

وفي طريقهما الى البيت كانت تمشي وراءه على مسافة ست خطوات!.. وكان الشيخ واقفاً بالباب وقد شعر بالجوع والشوق الى طعام العشاء الذي صار لا يعده لنفسه أبداً منذ صارت بالبيت امرأة.. وكان قليل الصبر فصاح بها: «انني أكبر سناً من أن أنتظر طعامي هكذا!».

وحينما مر به وانج لنج قاصداً الى غرفته همس اليه قائلا: «انها أصبحت حاملا!».

وحاول أن يقول ذلك بلهجة عادية كما لو يقول: «لقد زرعت الحبوب في الحقل الغربي اليوم»، ولكنه لم يستطع. ومع أنه قاله بصوت منخفض فقد خيل اليه أنه صاح به أعلى مما يجب، فزر الشيخ عينيه لحظة ثم فهم وقرقر بالضحك... وقال لزوجة ابنه حين رآها: «هه. هه. هه. هه. اذن فأمامنا حصاد!». ولم ير وجهها في الغسق ولكنها أجابت ببساطة: «سأعد الطعام الآن». فقال لها الشيخ بشغف: «أجل. أجل. الطعام». وتبعها الى المطبخ كالطفل. وكما أن فكرة مجيء حفيد له قد أنسته الطعام، فالآن أنساه الطعام كل فكرة عن حفيده...

أما وانج لنج فقد جلس على مقعد الى المائدة في الظلام، وأسند



أولان تسير خلف زوجها وانج لنج عند عودتهما الى البيت بعد أن عملا معا فى الحصاد

رأسه على ذراعيه بعد أن ثناهما. لقد تولدت حياة جديدة من جسمه ومن صلبه!



قال وانج لنج لزوجته لما اقتربت ساعة وضعها: «يجب أن تكون لدينا امرأة ذات خبرة لمساعدتك في الوقت المناسب».

وعجب إذ هزت رأسها نافية احتياجها الى هذه المساعدة، وبقي هنيهة يتأملها وهي تنقل الآنية من فوق المائدة بعد طعام العشاء، وكان أبوه الشيخ قد أوى الى فراشه، وليس في الحجرة من ضوء سوى ما يبعث به مصباح صغير من الصفيح به زيت فول وفتيلة من القطن، فلما انتهت من هذه المهمة سألها مندهشاً: «لماذا لا تريدين امرأة لمساعدتك؟». ولكنها اكتفت بأن هزت رأسها مرة أخرى!

وكان قد بدأ يعتاد منها ذلك الحديث الذي لا يزيد دورها فيه على ايماءة بالرأس أو اشارة باليد، أو كلمة تخرج اضطراراً من فمها الواسع!. بل شرع لا يحس نقصاً في هذا الحديث، لكنه مع هذا عاد يقول لها: «سيكون الأمر غريباً، فالبيت ليس فيه سوى رجلين، وقد كانت أمي تدعو امرأة من القرية في مثل هذه الحالة. وأنا لا أدري شيئاً عن هذه الأمور. أليس بذلك البيت الكبير أحد، جارية عجوز مثلا صديقة لك، يمكنها أن تأتي؟».

وكانت هذه أول مرة يذكر فيها البيت الكبير منذ جاءت اليه. فالتفتت اليه وقد انقلبت سحنتها وضاقت عيناها على صورة لم يعهدها من قبل، وقالت له في غضب: «لا أحد من ذلك البيت!».

وهنا سقط من يده غليونه الذي كان بصدد ملئه وأخذ ينظر اليها متعجباً من غير أن يتكلم، أما هي فاستعادت هدوءها بعد قليل ثم أخذت تجمع العيدان التي يؤكل بها وكأنها لم تقل شيئاً. فقال لها وقد اشتدت دهشته: «اننا وأبي ليست لنا خبرة بالولادة. ولا يليق بأبي أن

يدخل غرفتك، ثم أني لم أر قبل الآن حتى ولا بقرة أثناء الولادة، ويداي الخشنتان قد تضران بالطفل. وهكذا ترين أننا في حاجة الى أحد من البيت الكبير حيث تلد الجواري!».

وكانت قد كدست العيدان الخاصة بتناول الطعام فوق المائدة، فنظرت اليه هنيهة ثم قالت:

ــ حين أعود الى ذلك البيت سيكون ولدي بين ذراعي وسيكون مرتدياً ثوباً أحمر، وعلى رأسه قبعة طرزت في جبهتها صورة بوذا بلون ذهبي، وفي قدميه حذاء رسمت في مقدمته صورة نمر. وسأكون أنا مرتدية حذاء جديداً وثوباً جديداً من الحرير الأسود، وإذ ذاك أتوجه الى المطبخ حيث قضيت أيامي. ثم الى القاعة الكبرى حيث تجلس السيدة العجوز بأفيونها، وسيرونني وولدي جميعاً!».

ولم يكن قد سمع منها قط مثل هذه الكلمات الكثيرة، وكانت تصدر عنها في بطء، وفي غير انقطاع، فأدرك أنها قد رتبت الأمر كله لنفسها، ولا شك أنها كانت تدبره وهي تعمل الى جانبه في الحقول!

وقال لنفسه: «ما أعجبها امرأة! لقد كنت أحس أنها لا تفكر في الطفل الذي توشك أن تضعه، لأنها كانت تمضي في عملها هادئة ساكتة يوماً بعد يوم. ولكنها في الواقع كانت تتمثل طفلها وقد ولد وألبس ثيابه كاملة، وتتمثل نفسها كأم مرتدية ثوباً جديداً!».

ولم يجد ما يقوله لها بعد ذلك، فعاد الى غليونه وملأه بقليل من الطباق بعد أن ضغطه بين سبابته وابهامه وحتى جعل منه ما يشبه الكرة. وأخيراً قال لها في شيء من الغلظة: «أحس أنك ستحتاجين الى شيء من النقود؟!».

وقالت بخوف: «حبذا لو تعطيني ثلاث قطع فضية!.. انه مبلغ كبير ولكني حسبته بعناية ولن أضيع درهماً واحداً منه في غير طائل!..

فتحسس وانج لنج حزامه، وكان قد باع بالأمس في سوق البلدة

حملا ونصف حمل من القش بعد أن قطعه من البركة التي بالحقل الغربي، وحصل بذلك على مبلغ أكثر قليلا مما طلبته فأخرج ثلاث قطع فضية ووضعها على المائدة، ثم أضاف اليها بعد تردد قليل قطعة رابعة كان قد ادخرها طويلا لكي يجرب بها يوماً حظه في الميسر، لشرب الشاي، ولكنه ضن بها أن تضيع في هذا السبيل، فاكتفى بالتفرج على اللاعبين حين ذهب الى هناك. ثم رجع الى ما تعوده من تمضية ساعات فراغه القلائل في مظلة القصاص حيث يستمع الى قصة قديمة ولا يدفع سوى درهم واحد حين يمر القصاص بسلطانيته على السامعين!

وقال لها وهو يشعل غليونه: «خير لك أن تأخذي هذه القطعة أيضاً حتى تجعلي ثوب الطفل من الحرير... على أي حال أنه أول طفل لنا!».

أولان تسير خلف زوجها وانج لنج عند عودتهما الى البيت بعد أن عملا معاً في الحصاد.

فلم تأخذ قطع النقود تواً وانما ظلت تنظر اليها ووجهها جامد لا أثر فيه لحس. ثم قالت همساً: «هذه أول مرة تقبض فيها يدي على عملة فضية!».

ثم أخذتها بغتة وأطبقت يدها عليها وأسرعت الى غرفة النوم، بينما مكث وانج لنج يدخن، ويفكر في العملة الفضية التي كانت على المائدة.

ان هذه الفضة جاءت من الارض.. الارض التي يستمد حياته منها ويفني حياته في سبيلها!.. وقد انتزع غذاءه منها بسكب عرقه عليها نقطة نقطة، وانتزع من ذلك الغذاء تلك القطع الفضية!. وكان من قبل اذا أخرج من كيسه قطعة من الفضة ليعطيها أحداً من الناس، يشعر كأنه يبذل قطعة من حياته!. أما الآن فهو لا يشعر بأي ألم لاعطائه

زوجته تلك القطع الفضيةالأربع!. ولماذا يتألم؟. ان فضته لم تذهب الى يد غريبة عنه، ولسوف تتحول الى شيء أكثر قيمة منها، الى ثياب تغطي جسد ولده. وهذه المرأة العجيبة التي صارت له، تكد وتكدح ولا تقول شيئاً، ستكون أول من يرى الطفل مرتدياً تلك الثياب!

وحانت ساعة الوضع بعد أيام، وكانت الشمس قد غربت منذ قليل، وقد مكثت زوجة وانج لنج الى جانبه في الحقل طول النهار تعمل بلا انقطاع في حصد الأرز!

ومن قبل ذلك كانت خير معين له على حصد القمح بعد أن امتلأت سنابله، ثم في غمر الحقل بالماء وبذر الأرز وتعهده حتى تم نضجه بمساعدة شمس الخريف الدافئة.

وكانت هي تعمل معه بمنجلها ذي اليد القصير أشد انحناء على الزرع، ولكنها أبطأ حركة بسبب الحمل الذي في بطنها، فلما فاتت الظهيرة ازداد تعبها ولاحظ هو ذلك فالتفت اليها قلقاً وقد كفت عن العمل ووقفت معتدلة تاركة منجلها يسقط من يدها وتصبب وجهها عرقاً، فقالت له:

ــ لقد حانت الساعة!.. سأذهب الى البيت الآن.. لا تأت الى غرفتي إلا اذا ناديتك. ولكن أحضر لي الآن غابة مقشرة حديثاً وشقها بالطول لكي أقطع بها سرة الطفل!

ومضت خلال الحقول الى البيت، وكأن ليس هناك شيء، وبعد أن راقبها ذهب الى حافة البركة التي في الحقل الخارجي. واختار غابة خضراء رفيعة وقشرها بعناية ثم شقها بطرف منجله. وكانت ظلمة المساء قد بدأت تنتشر سريعاً فوضع منجله على كتفه وقصد الى البيت.

وعجب حين وصل الى البيت إذ وجد عشاءه ساخناً على المائدة، ووجد أباه يتناول عشاءه أيضاً. اذن أعدت الطعام لهما برغم آلامها؟!.

حقاً ان من النادر أن توجد امرأة مثلها!.. ثم ذهب الى باب غرفتها وصاح: «ها قد جئت بالغابة المطلوبة!».

وانتظر متوقعاً أن تناديه ليقدم لها الغابة، ولكنها لم تفعل وانما جاءت الى الباب ومدت يدها خلال فتحته وأخذت الغابة من غير أن تقول كلمة، ولكنه سمعها تلهث كما يلهث الحيوان حين يجري مسافة طو يلة.

ونظر الشيخ من فوق سلطانيته ثم قال لابنه: «كل قبل أن يبرد الطعام... ان الأمر يتطلب وقتاً طو يلا.. اني أذكر جيداً حين ولد أول ولد لي فقد انبثق الفجر قبل أن ينتهي الوضع. آه. تصور أنه من بين كل الاولاد الذين رزقتهم وحملتهم أمك ـ نحو عشرين تقريباً وقد نسيت عددهم ـ لم يبق سواك على قيد الحياة!.. من هذا ترى كيف أنه يجب على المرأة أن تحمل مراراً وتكراراً!».

و بقي وانج لنج ساكتاً، بينما عاد أبوه الشيخ فقال وكأنه نسي ما بصدده: «في مثل هذا الوقت غداً قد أكون جداً لغلام ذكر!». ثم أخذ يضحك فجأة وقد كف عن الأكل وصار يقرق كالدجاج في ظلمة الغرفة. أما وانج لنج فوقف عند الباب يستمع الى لهاث زوجته، وما لبث قليلا حتى شم رائحة دم من خلال الباب وكانت رائحة كريهة أزعجته، بينما ازداد لهاث المرأة داخل الحجرة سرعة وارتفاعاً حتى صار كصيحات تهمس بها، ولكن لم يصدر عنها أي صوت مرتفع. ولما لم يستطع أن يحتمل أكثر مما احتمل، وهم بأن يقتحم الغرفة، سمع صرخة شديدة رفيعة فهتف سائلا وقد نسي امرأته وآلامها: «هل هو غلام؟».

واستمر الصراخ الرفيع وهي لا تجيب، فسألها مرة أخرى: «أغلام هو؟.. تكلمي.. انها كلمة واحدة لا أكثر!».

فردت المرأة بصوت ضعيف كأنه صدى: «غلام!».

وهنا عدا وانج لنج الى المائدة فارتمى على المقعد الذي كان يجلس عليه! ما أسرع ما حدثت الولادة!.. نعم لقد برد الطعام منذ حين، وأبوه الشيخ قد نام على الدكة. ولكن الأمر تم بسرعة على أية حال!.

ثم هز كتف أبيه الشيخ وصاح به صيحة ظفر: «انه غلام! وأنت الآن جد وأنا أب!».

فاستيقظ الشيخ من نومه فجأة وعاد للضحك كما كان يفعل حين غلبه النوم، وقال بصوت كأنه نق الدجاج: «أجل.. طبعاً، جد.. جد!». ثم قام وتوجه الى سريره وهو لا يزال يضحك!

وتناول وانج لنج اناء الأرز وأخذ يأكل بسرعة وقد شعر بالجوع الشديد فجأة، وكان يسمع المرأة في غرفتها وهي تجر نفسها وصراخ الطفل المستمر، فقال لنفسه فخوراً: «أحسب أننا لن ننعم بالهدوء في هذا البيت بعد اليوم!».

ولما فرغ من الأكل، قام ومشى الى باب حجرة الوالدة مرة أخرى، وفي هذه المرة هتفت به لكي يدخل فدخل مسرعاً!. وكانت رائحة الدم المراق لا تزال تفوح في الجو، ولكن لم يكن هناك أثر منه إلا في قصعة من الخشب، صبت زوجته فيها ماء ودفعتها الى تحت السرير حتى لا يكاد يراها!

وعلى ضوء الشمعة الحمراء التي أوقدتها، لمحها راقدة على السرير وقد غطت نفسها بعناية، ولمح الى جانبها طفلها ملفوفاً في سراو يل قديمة لأبيه كما يقضي العرف بذلك. فاقترب من السرير وهو لا يدري ماذا يقول وقد أفعم قلبه بالعواطف، ثم انحنى على الطفل وجعل ينظر اليه، وكان له وجه مستدير مجعد شديد السمرة، و برأسه شعر أسود طو يل رطب، وكان قد انقطع عن الصياح ورقد مغمض العينين!

ونظر الى زوجته ونظرت اليه. وكان شعرها لا يزال مبللا من أثر الألم والتعب وعيناها لا تزالان غائرتين. وفيما عدا ذلك كانت كما هي

دائماً. ولكنه تأثر من منظرها وهي راقدة هكذا واتجه بقلبه الى هذين الاثنين، ثم قال:

ـ غداً أذهب الى المدينة وأشتري رطل سكر أحمر وأذيبه في ماء مغلي لتشربيه!

ثم نظر الى الطفل مرة أخرى وقال فجأة: «لا بد أن نشتري ملء سلتين من البيض ونصبغه باللون الاحمر لنوزعه في القرية، حتى يعرف الجميع أني قد ولد لي ولد!».

وفي اليوم التالي لميلاد الطفل قامت أولان كعادتها وأعدت الطعام لزوجها وأبيه، ولكنها لم تذهب الى الحقول للحصاد مع وانج لنج فبقي يعمل وحده هناك الى ما بعد الظهر، ثم ارتدى جلبابه الأزرق ورجع الى البلدة حيث توجه الى السوق واشترى بخمسين درهماً خمسين بيضة ليست حديثة ولكنها لا تزال صالحة للأكل، ثم اشترى ورقاً أحمر ليغليه معها في الماء لكي تصطبغ بلونه. وحمل البيض في السلة وقصد دكان حلوى حيث اشترى رطلا وزيادة من السكر الأحمر، وقد لفه البائع بعناية في ورق أسمر ووضع تحت خيط القش الذي ربطه به شريطاً من الورق الأحمر، ثم قال لوانج لنج وهو يبتسم: «لعل هذا لأم طفل ولد حديثاً؟».

فقال وانج لنج بكبرياء: «انه ولد بكر!».

فقال له التاجر بغير اكتراث: «حظ سعيد!». ثم شغل عنه بعميل آخر حسن البزة دخل الدكان في تلك اللحظة، وكان قد اعتاد أن يوجه مثل تلك التحية الى كل عميل، لكن وانج لنج حسبها تهنئة خاصة به، وأعجب بأدب الرجل فانحنى له مودعاً، ثم انحنى له مرة أخرى عند باب الدكان!

وخيل اليه وهو يسير تحت أشعة الشمس في الشارع المترب أن أحداً غيره لم يؤت مثل حظه الحسن! وقد فكر في ذلك أولا بشعور الفرح ولكنه ما عتم أن تولاه الخوف، فانه لا ينبغي للانسان في هذه الحياة

أن يكون سعيداً جداً، والجو والارض مملوءان بالارواح الشريرة التي تستكثر على البشر سعادتهم، وبخاصة اذا كانوا فقراء!

ودخل بغتة دكان الشمع الذي يبيع البخور أيضاً، واشترى أربعة عيدان من البخور، عوداً لكل شخص في بيته، وبهذه العيدان الأربعة توجه الى المعبد الصغير لالهي الحقل ورشقها في الرماد المتخلف عن البخور الذي وضعه وزوجته هناك من قبل، وراقب العيدان وهي تحترق ثم عاد قاصداً الى بيته راضياً مطمئناً الى أن هذين الصنمين الصغيرين القابعين تحت سقفهما الصغير سيحولان بالقوة العظيمة التي يملكانها دون وصول أي أذى الى الأسرة التي صارت مؤلفة من أربعة أفراد!

وفي اليوم التالي خرجت أولان مع زوجها الى الحقول لتعمل بجانبه على عادتهامن قبل حتى لا يدرك أحد أي شيء!. وكان الحصاد قد تم فأخذا يدرسان القمح في الجرن المجاور لباب البيت، يدرسانه معاً بمدقة في يد كل منهما. حتى اذا فرغا من ذلك أخذا يذريانه ويغربلانه، وهما يقذفان به من سلال البوص الكبيرة المسطحة الى الهواء ثم يتلقيانه ثانية عند سقوطه، فيطير القش مع الهواء!

وبعد حين هناك مهمة زرع قمح الشتاء ثانية في الحقول. ولما شد الثور وحرث الارض كانت المرأة وراءه بفأسها تكسر الطين الجامد الذي تجده في الأخاديد.

وكانت الأم تكد طول النهار وترقد الطفل على لحاف قديم ممزق تضعه على الارض فينام. واذا بكى وقفت عن العمل وكشفت عن ثديها ووضعته في فمه وهي جالسة على الارض والشمس ترسل شعاعها فوقهما، شمس الخريف التي لا تترك دفء الصيف حتى يرغمها برد الشتاء. وكانت المرأة والطفل في مثل سمرة الارض وكانا يجلسان هناك وكأنهما صنمان صنعا من الطين. وكان تراب الحقول على شعر المرأة وعلى رأس الطفل الأسود الناعم.

ولكن اللبن كان يتدفق من ثديي المرأة أبيض كالجليد، واذا رضع الطفل من ثدي فاض كالنافورة من الثدي الآخر فتتركه يفيض، فقد كان لديها أكثر من كفايته برغم ما به من شراهة، فكانت تترك اللبن يسيل من غير اهتمام به لوثوقها من وفرته. وأحياناً كانت ترفع ثديها تدع اللبن يسيل على الارض حتى تقي ثيابها، فكان يسقط على الارض فتتكون منه بقعة ناعمة داكنة خصبة. وكان الطفل بديناً مرحاً يتغذى بذلك الغذاء الذي لا ينفد الذي تقدمه له أمه!

ولما حل فصل الشتاء كانوا قد تأهبوا له، فان الحصاد لم يسبق له مثيل، وكان البيت الصغير ذو الغرف الثلاث قد ضاق بالمخزون فيه. وكان يتدلى من عروق السقف خيوط من البصل المجفف والثوم، وكان في الغرفة الوسطى وفي غرفة الشيخ وفي غرفتهما أيضاً حصر مصنوعة من (البوص) على شكل زلع ضخمة مملوءة بالقمح والأرز. وكثير من هذا كله كان معداً للبيع ولكن (وانج لنج) كان مقتصداً ولا ينفق نقوده في لعب الميسر أو في الطعام الشهي كالمزارعين الآخرين الذين يضطرون الى بيع القمح عند الحصاد بسعر منخفض، بل أنه على العكس كان يحتفظ به ولا يبيعه إلا بعد أن يسقط الجليد على الأرض أو عند رأس السنة حين يكون أهل المدينة مستعدين لأن يشتروا الغذاء بأي ثمن!

وقد كان عمه يضطر دائماً الى بيع قمحه حتى قبل أن يتم نضجه. وأحياناً كان يبيعه وهو في الحقل لكي يوفر على نفسه مشقة حصده ودراسه و يحصل على نقود قليلة حاضرة. ولكن زوجة عمه كانت امرأة حمقاء بدينة الجسم شديدة الكسل وكانت لا تفتأ تطلب أطايب الطعام وأحذية جديدة. أما (أولان) امرأة (وانج لنج) فكانت تصنع بنفسها كل الأحذية له ولأبيه الشيخ ولنفسها وطفلها. وهو لا يدري ماذا كان يفعل لو أنها أرادت شراء أحذية!

ولم يكن هناك قط شيء يتدلى من عروق السقف في بيت عمه القديم المتهدم. ولكن في بيته هو كان ثمة فخذ خنزير اشتراه من جاره تشنج حين ذبح خنزيره إذ مرض. وقد ذبح الخنزير قبل أن يخف وزنه ولذا كان فخذه كبيراً، وملحته (أولان) ببراعة وعلقته لكي يجف، وكان هناك أيضاً دجاج لهما ذبحاه وأخرجت (أولان) أمعاءه ثم جففته بريشه بعد أن ملأت جوفه بالملح!

ووسط هذه الوفرة قبعوا بالدار حين حل فصل الشتاء وهبت على الشمال الشرقي رياح قاسية قارسة. وسرعان ما أصبح الطفل يجلس وحده. وكانوا قد أقاموا مأدبة بمناسبة مرور سنة على ميلاده، ودعا اليها (وانج لنج) كل من دعاهم ليلة زفافه حيث قدم لكل منهم عشر بيضات مسلوقة ومصبوغة باللون الاحمر، ومنح كل من أتى من أهل القرية بيضتين. وهذا عدا توزيع «حساء الشعرية» التي هي رمز لطول عمر الوليد!

وكان كل من أهل القرية يغبط (وانج لنج) مبدياً اعجابه بولده البدين الذي له وجه كالقمر!

وفي أيام الشتاء كانو يفتحون الباب الجنوبي للدار لتدخل منه أشعة الشمس، بينما يغلقون الباب الشمالي اتقاء للريح، وصار (وانج لنج) يجلس على لحاف يفرش على الارض في الدار، إذ لم يكن هناك عمل في الحقول!

وبقي (وانج لنج) ينتظر في قلق حتى سقطت الامطار فجأة في يوم هادىء، بعد أن سكنت الريح وصار الجو دافئاً. وهنا جلس أفراد الأسرة جميعاً بالبيت يراقبون الامطار المبشرة بالرخاء وهي تسقط غزيرة في الحقول وفوق حافة الباب. وقد دهش الطفل وصار يمد يديه ليمسك بخيوط المطر ويضحك، فلا يسعهم إلا أن يضحكوا معه، بينما جلس الشيخ القرفصاء بجانبه وقال: «لا يوجد طفل كهذا الطفل في اثنتي عشرة قرية. ان أطفال أخي لا يلحظون شيئاً قبل أن يستطيعوا المشي».

وفي مثل هذا الوقت كان الفلاحون يتزاورون إذ يشعر كل منهم بأن السماء تؤدي عنهم العمل في الحقول، وبأن زراعاتهم تروى من غير أن تنكسر ظهورهم تحت ثقل جرادل الماء التي يحملونها معلقة على طرفي خشبة فوق أكتافهم لري تلك الزراعات!

كانوا يجتمعون في هذا البيت أو ذاك لشرب الشاي وتبادل الاحاديث، وهم يتنقلون من بيت لآخر حفاة الأقدام ممسكين بمظلات من الورق المقوى لاتقاء المطر. أما النساء فكن يقبعن في البيوت خلال هذه الفترة ليصنعن الاحذية أو ليرقعن الثياب ـ اذا كن مقتصدات ـ أو ليفكرن في المعدات اللازمة لرأس السنة الجديدة!

على أن (وانج لنج) وزوجته لم يكونا يكثران من التزاور، فالواقع أن القرية كلها لم يكن بين بيوتها المشتتة بيت كبيتهما مملوء بالدفء والخير، وكان (وانج لنج) يخشى أن تؤدي كثرة التزاور الى لجوء أهل القرية الى الاقتراض منه، فقد كان عيد رأس السنة على الابواب، وأكثر الأهلين لا يملكون من المال ما يكفي لشراء الملابس الجديدة وإقامة المآدب!. وعلى ذلك آثر الاعتكاف بالبيت. حيث يصلح جرافاته المصنوعة من (البوص) المشقوق و ينسج لها حبالا جديدة من الكتان الذي ينتجه بنفسه، وكلما وجد سناً مكسورة بها وضع بدلا منها سناً أخرى.

أما (أولان) زوجته فكانت بجانب العناية بوليدها تصلح الادوات المنزلية. فاذا وجدت ثقباً باحدى الجرار لم ترمها كما يفعل غيرها من النساء لتستعمل جرة جديدة بل تمزج الطين بالفخار وتسد تلك الثغرة ثم تسخنه فتعود الجرة جديدة كما كانت!

وهكذا مكثا في بيتهما ونعم كل منهما برضا الآخر عن عمله وان يكن كل منهما لا يزيد قط كلمات متفرقة مثل: «هل ادخرت الحبوب للزرعة الجديدة؟». أو: «سنبيع التبن ونحرق سيقان الفول في الفرن». وفي أحيان قليلة كان (وانج لنج) يقول لها: «هذه حساء شعرية

جيدة!». فتجيب (أولان) تواضعاً: «ان دقيق القمح الموجود عندنا هذه السنة من صنف جيد».

وادخر (وانج لنج) من محصول سنة الرخاء هذه قبضة من الريالات الفضية فاضت عن حاجته، فخاف أن يبقيها في حزامه أو يخبر بوجودها أي أحد سوى زوجته. وأخذ يبحثان معاً أين يخبئانها، وأخيراً اهتدت المرأة الى حفر ثقب صغير في الجدار الداخلي لغرفتهما خلف السرير، فخبأ فيه (وانج لنج) تلك الريالات، ثم غطته بالطين!

وشعر الزوجان بالغنى والطمأنينة، وقال (وانج لنج) لنفسه: «حسناً!.. الآن صار لدينا المال أكثر مما ننفقه، وصار لي اذا مشيت بين رفقائي أن أمشي راضياً شاعراً بالاطمئنان!».

اقتربت السنة الجديدة فأخذ اهل القرية يستعدون لاستقبالها. وذهب (وانج لنج) الى المدينة حيث اشترى من دكان الشمع بها بعض الورق الاحمر، ثم رسم عليه بالفرشاة بماء الذهب حرف السعادة وحرف الغنى، ولصق ذلك الورق على أدواته الزراعية لكي تجلب له حسن الحظ في السنة الجديدة. ولصق قطعة منه على كل من المحراث وقرني الثور والدلوين اللذين يحمل بهما السماد والماء. ووضع على أبواب بيته قطعاً من ذلك الورق رسمت عليها بالفرشاة كلمات الفأل الحسن، كما وضع على مدخل الدار قطعة على هيئة زهرة. واشترى كذلك ورقا أحمر لصنع ثياب جديدة للصنمين، وقد تولى أبوه الشيخ هذه المهمة وأداها بمهارة برغم رعشة يديه من الكبر، ثم أخذ (وانج لنج) تلك الثياب ووضعها على الصنمين الصغيرين في المعبد الصغير بالحقل وحرق قليلا من البخور أمامهما لمناسبة السنة الجديدة. واشترى لبيته كذلك شمعتين حمراوين ليوقدهما ليلة رأس السنة فوق المائدة وتحت صورة اله كانت ملصوقة على الحائط بالغرفة الوسطى.

ومرة أخرى، توجه (وانج لنج) الى المدينة واشترى دهن خنزير وسكرا أبيض، وجعلت (أولان) ذلك الدهن أبيض ناعما، ثم أخذت

مقدارا من دقيق الارز كانت قد طحنته من أرزهم في الطاحونة التي يديرها الثور كلما أرادوا، ومزجت هذا الدقيق بالدهن والسكر وصنعت من عجينتهما كعكا دسما لعيد رأس السنة، يسمى (كعك القمر) وقد تعلمت صنعه في بيت (هوانج) الذي نشأت فيه!

ولما وضعت الكعك على المائدة معدا للأكل، شعر (وانج لنج) بقلبه يوشك أن ينفجر من الفخر، فليس بالقرية كلها امرأة أخرى تستطيع أن تصنع مثل ما صنعته امرأته من كعك لا يأكله الا الاغنياء في الاعياد. وكانت قد وضعت في بعضه قطعا من الكريز الاحمر والبرقوق الاخضر المجفف. وبلغ من اعجاب (وانج لنج) به أنه قال: «ان مثل هذا الكعك حرام أن يؤكل!».

وكان أبوه الشيخ يحوم حول المائدة فرحا بالالوان الزاهية وكأنه طفل صغير، وما لبث أن قال: «ناد أخي وأولاده ودعهم يروا!».

غير أن (وانج لنج) رأى أن ليس من الحكمة أن يدعى عمه وأولاده لا لشيء سوى أن يشهدوا كعكا، فقال لأبيه: «انه لفأل سيء أن ينظر أحد الى الكعك قبل عيد رأس السنة!».

وقالت (أولان) و يداها ما زالتا تحملان آثار دقيق الارز والدهن: «ان هذا الكعك ليس لنا أن نأكل منه سوى كعكة أو اثنتين. اننا لسنا أغنياء حتى نأكل سكرا أبيض ودهنا. وانما أعددت هذا الكعك للسيدة العجوز في البيت الكبير، فسآخذ الطفل اليها في اليوم الثاني من السنة الجديدة وأقدم لها الكعك هدية!».

وبهذا زاد الكعك أهمية عن ذي قبل. وسر (وانج لنج) لأن زوجته ستذهب زائرة الى تلك القاعة الكبرى ـ التي وقف بها مرة فقيرا وجلا، وسيكون معها ابنهما مرتديا ثيابا حمراء وكعك مصنوع من أحسن صنوف الدقيق والسكر والدهن!

وهكذا صار كل ما عدا هذه الزيارة في عيد رأس السنة أمرا ثانو يا في بيت (وانج لنج). ولما رأى ثوبه الاسود الجديد المصنوع من القطن والذي حاكته له أولان، قال لنفسه:«سألبس هذا الثوب حين آخذها مع الطفل والكعك الى ذلك البيت الكبير!».

وفي يوم رأس السنة، حرص (وانج لنج) على أن يبقى مرتديا ثيابه العادية، وقد صح ما توقعه اذ جاء عمه وجيرانه الى البيت ليهنئوه وأباه بالعيد، وأخذوا يصيحون في طلب الطعام والشراب. وكان قد حرص كذلك على اخفاء الكعك الملون في احدى السلال حتى لا يضطر لتقديمه لأولئك الضيوف العاديين، ولما امتدحوا الكعك الابيض البسيط الذي قدم لهم كاد يصيح بهم قائلا:«ماذا تقولون اذن لو أكلتم من الكعك الملون؟!». غير أنه أمسك ولم يقل شيئا!.

وفي اليوم التالي ـ وهو اليوم المخصص لتزاور النساء بعد أن أكل الرجال وشربوا في اليوم السابق ـ استيقظوا في الفجر فألبست (أولان) طفلها ثوبه الاحمر وحذاءه الذي رسم على مقدمته وجه نمر، ووضعت فوق رأسه، بعد أن حلق له أبوه بنفسه آخر يوم من أيام السنة الماضية، قبعة حمراء حيكت في جبهتها صورة مذهبة لبوذا، ثم وضعته على السرير. بينما ارتدى (وانج لنج) ثيابه بسرعة ومشطت زوجته شعرها الاسود الطويل وربطته بدبوس من نحاس أصفر مطلي بالفضة كان قد اشتراه لها ثم ارتدت ثوبها الجديد الذي حيك من القماش الذي صنعت منه ثوب زوجها الجديد، وكانت قد اشترت أربعا وعشرين قدما من ذلك القماش الجيد مع (السماح) بقدمين منه عند المقاس كما جرى العرف في دكاكين الاقمشة. ثم حمل الطفل وحملت هي سلة الكعك ومضيا الى بيت (هوانج) عبر الحقول القاحلة في فصل الشتاء!.

وهناك عند البوابة الكبيرة لبيت (هوانج) جاء اليهما البواب حين نادته (أولان) وما رآهما حتى فغر فاه دهشة وجعل يفتل الشعرات

الثلاث النابتة على خده وصاح قائلا:«آه! وانج المزارع! ثلاثة أشخاص بدلا من واحد!».

ثم لحظ الثياب التي يلبسونها فاستطرد قائلا:«لا حاجة بالانسان الى أن يتمنى لكم حظا في السنة الجديدة أحسن مما كان لكم في السنة الماضية!».

فأجاب وانج لنج في غير اكتراث كما يتحدث الانسان الى آخر لا يسمو الى طبقته:«ان المحصول كان جيدا!».

وأثر في البواب كل ما رآه فقال لوانج لنج:«أرجو أن تجلس في غرفتي الوضيعة حتى أعلن قدوم زوجتك وطفلك!».

ووقف (وانج لنج) يرقب زوجته أثناء عبورها الردهة حاملة طفلهما، والبواب خلفها يحمل هديتها الى ربة البيت الكبير. وكان ذلك كله مما يشرفه. حتى اذا غابا عن بصره اذ دخلا غرفة بعد أخرى، دخل مسكن البواب حيث استقبلته زوجة هذا بوجهها الذي تعلوه آثار الجدري، فقدمت له كرسيا ليجلس عليه، وهو كرسي الشرف الى يسار المائدة بالغرفة الوسطى، فجلس عليه بغير اكتراث، ولما قدمت له آنية بها شاي لم يزد على أن وضعها أمامه على المائدة ثم تركها كما هي كأن الشاي الذي بها ليس مما يليق بمثله أن يشربه!.

وخيل اليه أنه انتظر وقتا أطول مما ينبغي، فلما رأى زوجته مقبلة على كتفها الطفل، ومن خلفها البواب، نظر الى وجهها يريد أن يستشف ما وراءه وأن يستوثق من أن كل شيء على ما يرام. وكان قد تعود ادراك ما يعنيه أقل تغيير يبدو في ذلك الوجه الجامد، فارتاح لما بدا في نظراتها من دلائل الرضا التام، لكنه ود لو يسمع منها تفصيل ما حدث في جناح النساء الذي لا يتاح له أن يدخله الآن بعد أن لم يبق له شأن به. ومن أجل ذلك سارع الى القيام تأهبا للانصراف، ثم انحنى قليلا تحية للبواب وزوجته، وتناول الطفل من زوجته وتقدمها الى الباب

الخارجي للدار نظر اليها من فوق كتفه وهي تمشي وراءه وقال لها:«خيرا؟». فاقتربت منه قليلا وقالت همسا:«أعتقد أنهم في ذلك البيت يعانون ضائقة!».

وكانت تتكلم بصوت مختنق كما يتحدث الانسان عن آلهة يقاسون الجوع... فقال لها يستحثها على زيادة الشرح: «ماذا تعنين؟».

فقالت: «ان السيدة العجوز تلبس هذه السنة ذلك الثوب نفسه الذي كانت تلبسه في السنة الماضية. ولم أعهد عليها مثل ذلك قط من قبل. وكذلك العبيد لم أجد بينهم من يلبس ثيابا جديدة!».

ثم سكتت قليلا وأردفت قائلة: «أما ولدنا فلم يكن بين أبناء خليلات السيد العجوز نفسه من يقارن به في الجمال ولا من الثياب!».

فارتسمت ابتسامة عريضة على وجه (وانج لنج) ثم ضحك ضحكة عالية وضم الطفل اليه في حنان. على أنه سرعان ما شمله الخوف اذ فطن عقب ذلك الى أنه يمشي تحت صفحة السماء مع طفل جميل مستهدف لأية روح شريرة تمر مصادفة وسط الهواء!. ولم يسعه الا أن أخفى رأس الطفل في ثوبه وهمس الى زوجته قائلا:

ـ ما أسوأ حظنا اذ وهبنا طفلة أنثى لن يريدها أحد، وهي فضلا عن ذلك مغطى جسمها بالجدري! فلندع كي تموت!.

فأدركت زوجته ما يعني وقالت:«أجل. أجل!».

ولما اطمأنا الى هذه الحيطة التي اتخذاها، عاد (وانج لنج) يحث زوجته على الكلام فقال:«هل علمت لماذا قلت ثروتهم؟».

فقالت:«لم أتحدث الا قليلا مع الطاهية التي كنت أساعدها، على أني فهمت من كلامها ان هذا البيت لا يمكن أن يستمر غناه لأن الأسياد الشبان الخمسة فيه يسرفون في انفاق الاموال و يبعثون اليه بامرأة بعد أخرى بعد أن يملونها، في حين تلتهم السيدة العجوز من

الافيون كل يوم ما يكفي لملء خزائن بالذهب!».

فقال (وانج لنج) مندهشا:«أيفعلون ذلك حقا؟!».

واستطردت (أولان) قائلة: «ثم ان الابنة الثالثة ستتزوج في الربيع القادم، وصداقها يكفي لفدية أمير وشراء منصب رسمي في مدينة كبيرة ولن تكون ثيابها إلا من أفخر حرير (الساتان) على نماذج نسجت في (سوشو) (هانجشو).. وسيكون لها حائل يبعث خصيصاً من (شنغهاي) مع مساعديه خشية أن تجد ثيابها مغايرة لأحدث طراز هناك في تلك الجهات الاجنبية!».

فسألها (وانج لنج) وقد امتلأت نفسه اعجاباً وروعة من ذلك الاسراف: «من الذي ستتزوجه؟».

فقالت: «ستتزوج الابن الثاني لأحد الحكام في شنغهاي!».

وساد الصمت وقتاً غير قصير، ثم استأنفت (أولان) كلامها فقالت:

ــ لا شك أنهم أقل غنى من قبل، لأن السيدة العجوز نفسها أخبرتني أنهم يريدون بيع بعض الارض التي يملكونها جنوبي بيتنا خارج سور المدينة، وقد كانوا يزرعونها دائماً بالارز لأنها أرض طيبة و يسهل ريها من الخندق الذي حول السور!

فقال لها: «يبيعون أرضاً؟! لا شك أنهم بدأوا يفتقرون حقاً؟ ان الارض هي لحم الانسان ودمه!».

وجعل يفكر برهة ثم طرقت خاطره فكرة فصاح قائلا: «كيف لم أفكر في ذلك؟.. سنشتري تلك الارض!».

ونظر اليها مسروراً، فبدا الذهول مرتسماً على وجهها وقالت متلعثمة: «ولكن الارض... الارض!».

فصاح بصوت ينم عن كبرياء: «سأشتريها!.. نعم سأشتريها من بيت هوانج الكبير!».

فقالت له: «انها بعيدة عنا. وسنضطر الى أن نسير نصف الصباح لكي نصل اليها!».

فقال بعناد كما يقول الطفل حين يكرر طلباً له عند أمه: «سأشتريها!».

وسكتت هي قليلا ثم قالت في هدوء: «انه لشيء حسن أن يشتري الانسان أرضاً. انه بلا ريب أفضل من وضع المال في حائط من طين. ولكن لماذا لا تشتري قطعة أرض من عمك؟. انه يلح في بيع تلك الارض القريبة من حقلنا الغربي؟!».

فقال (وانج لنج) بصوت مرتفع: «لن أشتري تلك الارض التي لعمي. لقد كان يستمد منها المحصول طول العشرين سنة الماضية من غير أن يضع بها شيئاً من السماد أو الكسب، فتربتها أشبه بالجير وعلى هذا سأشتري أرض (هوانج) فهي أحسن كثيراً!».

ونطق بكلمة (أرض هوانج) بغير اكتراث كما لو كان يقول (أرض تشنج) جاره في الارض. انه سيكون أكثر من ند لأولئك القوم الذين يقطنون في ذلك البيت الكبير الاحمق المتلاف. انه سيذهب اليهم والفضة في يده و يقول ببساطة: «عندي مال. فما ثمن تلك الارض التي تريدون بيعها؟». وتصور نفسه يقول ذلك للسيد الشيخ ثم يقول لوكيله «اعتبرني كأي انسان آخر. فما هو الثمن العادل؟ انه في يدي». وزوجته التي كانت جارية رقيقة في مطابخ تلك الأسرة المتكبرة ستكون زوجة رجل يملك قطعة من الارض كانت منذ أجيال تجعل بيت هوانج بيتاً كبيراً. وكأنما تبينت مجرى فكره لأنها كفت بغتة عن كل اعتراض وقالت: «اشتر تلك الارض. ان أرض الأرز جيدة و هي قريبة من الخندق و يمكننا الحصول على الماء كل عام. انها مضمونة!».

وأحدث شراء تلك القطعة من الارض التي يملكها (وانج لنج) تغيراً كبيراً في حياته. وقد شعر بأسف شديد على اخراجه نقوده الفضية من

مخبئها في الجدار وذهابه بها الى البيت الكبير حيث كان له شرف التحدث مع السيد الكبير.. ان ذاك الجحر الذي كان مملوءاً بالفضة أصبح الآن خالياً منها، وهذه الارض الجديدة هي على أي حال في حاجة الى كد وكدح، ثم هي ـ كما قالت (أولان) زوجته ـ على بعد نحو ثلث ميل من البيت. وعدا هذا فان شراءها لم يعد عليه بما كان يتوقع من فخر. فقد ذهب الى البيت الكبير وقت الظهر وطلب مقابلة السيد الكبير، وإذ وجد أنه لا يزال نائماً قال للبواب: «قل للسيد الشيخ أني جئت لأمر ذي شأن يتعلق بالمال». فأجاب البواب قائلا: «ان جميع مال العالم لن يغريني بأن أوقظ النمر العجوز. انه نائم مع خليلته الجديدة».

وأخيراً لم يكن هناك بد من عقد الصفقة مع وكيل السيد الكبير، وهو شخص ماكر ناعم الملمس، ثقلت يداه بالمال الذي يلصق بهما خلال الصفقات التي يعقدها بالنيابة عن سيده العجوز الثري!

وهكذا لم يفرح (وانج لنج) كثيراً بشراء تلك الارض، ولكنها أصبحت له على كل حال، وتم ذلك في الشهر الثاني من السنة الجديدة، وان لم يدر أحد غير زوجته أنها أصبحت ملكاً له، وقد توجه على أثر ذلك ليتفقدها حيث تمتد بجانب الخندق المحيط بسور المدينة. وأخذ يقيسها بعناية فوجدها ثلاثمائة خطوة طولا مائة وعشرين خطوة عرضاً، وكانت هناك أربعة أحجار عليها شعار آل (هوانج) تحدد تلك الارض، فقال لنفسه: «لا بد من تحطيم هذه الاحجار، لتوضع بدلا منها أحجار تحمل (وانج لنج). ولكن فلنؤجل ذلك الآن فانه يجب ألا يعلم الناس أنني غني الى حد شراء أرض من ذلك البيت الكبير!».

ثم تغيرت نظرته الى الأمر وازدرى نفسه إذ اهتم بقطعة أرض صغير كل هذا الاهتمام!. انه حين وضع نقوده الفضية أمام الوكيل تناولها هذا بغير اكتراث وقال له: «يكفي هذا بضعة أيام لأفيون السيدة العجوز!».

وبدا له بغتة أن الفارق العظيم الذي بينه وبين ذلك البيت الكبير ليس من الممكن تخطيه، وأنه كالخندق المملوء ماء أمامه، أو السور العالي الذي وراءه. وعندئذ تملكته عزيمة قوية، وآلى على نفسه أن يعيد ملء ذلك الجحر في الحائط فضة، مرة بعد أخرى!

ثم حل الربيع ومعه رياح عاصفة وسحب يهطل منها المطر، وانقلبت أوقات التبطل في الشتاء أياماً طويلة يكدح فيها (وانج لنج) في أرضه، تساعده (أولان) زوجته بينما يعنى أبوه الشيخ بطفلها أثناء تغيبهما في الحقول من الفجر حتى غروب الشمس!

ولما لحظ (وانج لنج) أن (أولان) زوجته صارت حاملا مرة أخرى، تملكه الغيظ لأول وهلة لأن هذا قد يقلل مساعدتها له في العمل عند الحصاد، فصاح بها: «أهكذا اخترت هذا الوقت لكي تلدي من جديد؟!».

فقالت له: «في هذه المرة لا يعد الأمر شيئاً يذكر. ان المرة الاولى وحدها هي الصعبة!».

وفيما عدا ذلك لم يدر بينهما أي حديث عن الطفل الثاني المنتظر، الى أن كانا في الحقل يوماً، فاذا بها تضع فأسها فجأة، وتترك العمل معه عائدة الى للبيت، إذ شعرت باقتراب الوضع!

ولم يعد هو للبيت في ذلك اليوم لتناول الغداء كعادته، فقد كانت السماء مثقلة بالغيوم، والأرز الناضج في الحقل يتطلب الحصاد. وقبل أن تغرب الشمس عادت (أولان) للحقل تاركة وليدها الجديد في البيت، وكانت تبدو متعبة وإن بقي وجهها جامداً لا ينم عن شيء. فأراد (وانج لنج) أن يصرفها لتستريح ولكن التعب الذي قاساه في الحصاد وحده جعله قاسياً، فقال لنفسه: «لقد قاسيت في العمل وحدي طول اليوم مثل ما قاست هي من الوضع». ولم يزد على أن سألها وهو يواصل حصد الأرز بمنجله: «أهو ذكر أم انثى؟». فأجابت في هدوء: «انه غلام!».

ولم يتبادلا أي كلمة بعد ذلك، لكنه كان بادي السرور، وكأنما شعر بأن مواصلة العمل أصبحت أقل إجهاداً من قبل، وجعلا يشتغلان معاً في الحقل حتى بزغ القمر فوق سحب حمراء، وعندئذ رجعا معاً الى البيت!

ولما تناول عشاءه وغسل جسده الذي حرقته الشمس بماء بارد، ومضمض فاه بالشاي، ذهب ليرى وليده الجديد. وكانت (أولان) قد رقدت على السرير بعد انتهائها من طهو الطعام، ورقد الطفل الى جانبها وكان طفلا بديناً هادئاً ولكنه أقل حجماً من الطفل الأول حين ولد. فنظر (وانج لنج) اليه، ثم عاد للغرفة الوسطى راضياً، لكنه حدث نفسه بأن ليس هناك ما يدعو الى شراء بيض وصبغة بلون أحمر، ولا الى تلك النفقات الاخرى التي تحملها عند ميلاد الطفل الأول!

ثم صاح بأبيه قائلا: «الآن أيها الشيخ وقد ولد لك حفيد آخر سنضطر الى وضع الطفل الأكبر في سريرك!».

فابتسم الشيخ مسروراً، إذ كان يرجو من زمان بعيد أن ينام هذا الطفل معه في سريره ليدفىء جسمه المرتعش، غير أن الطفل لم يكن يرضى أن يترك أمه قبل الآن، لكنه سيرضى بذلك بعد قدوم هذا الطفل الجديد!

فأل سيء!

بدأ عم (وانج لنج) يسبب له كثيراً من المتاعب كما توقع هو نفسه ذلك من قبل. وكان عمه هذا هو الأخ الأصغر لأبيه، وبحكم صلة القرابة هذه كان له الحق في أن يعتمد هو وأسرته على (وانج لنج) اذا لم يجدوا كفايتهم من وسائل العيش!

وفيما مضى، حين كان (وانج لنج) وأبوه فقيرين، كان ذلك العم يبذل ما يستطيع من جهد في أرضه ليكسب منها ما يطعم به نفسه وزوجته وأولادهما السبعة. ولكن زوجته كانت من الكسل بحيث لا تتحرك لكنس أرض الكوخ الذي يعيشون به، كما أن أولئك الاولاد لم يكونوا أنشط منها. وكان من بواعث العار أن كبرت البنات منهم وبلغن سن الزواج لكنهن مع ذلك بقين يتسكعن في طرقات القرية مشعثات الشعر قذرات الثياب، وأحياناً كن يحدثن الرجال!

ولما صادف (وانج لنج) كبرى بنات عمه هكذا يوماً في الطريق تملكه الكدر من العار الذي تنزله بأسرته بمسلكها هذا، فذهب الى زوجة عمه وقال لها: «الآن من ذا الذي يرضى أن يتزوج ابنة عمي وهي تسير هكذا في الطرقات؟!.. انها بلغت سن الزواج منذ ثلاث سنوات، فكيف تترك لتتسكع هكذا؟. وقد رأيت جلفاً يضع يده على ذراعها في شارع القرية فجاوبته بضحكة خالية من الحياء!»».

ولما كان لسان امرأة عمه هو العضو النشط الوحيد في جسمها، فقد انطلقت تقول له:

ـ حسناً!.. انها بلغت سن الزواج حقاً، لكن من الذي يدفع صداقها

وتكاليف عرسها وأجر وسيط الزواج؟. ان من السهل أن يتكلم أولئك الذين يملكون من الارض أكثر مما يحتاجون اليه ولا يزالون يشترون المزيد من أرض الأسر الكبيرة بالفضة الفائضة لديهم، ولكن عمك رجل سيء الطالع وقد كان كذلك منذ البداية من غير ذنب جناه، فهكذا شاءت له الأقدار!.. واذا كان غيره يستطيعون انتاج القمح الجيد، فانه هو تموت بذوره في الارض ولا تنبت منها سوى أعشاب!. برغم كونه يكد و يكدح حتى يوشك أن يقصم ظهره!

ثم عمدت الى البكاء والنحيب وتولتها ثورة الغضب فحلت عقدة شعرها في مؤخرة رأسها حتى غطى وجهها وأخذت تصرخ وتقول: «انك لا تدري معنى أن يكون الانسان سيء الطالع!. ان حقول الآخرين تنتج أرزاً وقمحاً بينما حقولنا لا تنتج سوى حشائش!. وحيثما تقوم بيوت الغير مائة سنة أو تزيد تهتز الارض تحت أقدامنا حتى توشك جدران بيتنا أن تنقض. وحيثما تحمل النساء ذكوراً أحمل أنا انثى بعد ذكر!.. وهذا هو سوء الطالع الذي يلازمنا ولم نجد سبيلا الى التخلص منه!».

وبقيت المرأة تصرخ بأعلى صوتها حتى هرعت جاراتها اليها ليرين ما هناك، على أن (وانج لنج) ثبت في مكانه برغم ذلك ليتم المهمة التي جاء من أجلها ثم قال لزوجة عمه:

ــ ليس من شأني أن أنصح لعمي بأنه خير للفتاة أن تتزوج وهي عذراء!

وانصرف بعد ذلك قاصداً الى بيته تاركاً زوجة عمه تواصل الصراخ والبكاء، وكان في نيته أن يشتري هذه السنة قطعة أخرى من الارض من آل (هوانج) طبقاً لخطته التي رسمها لنفسه، كما أنه كان يعتزم بناء غرفة جديدة تضاف الى بيته. ولكن ساءه أنه في الوقت الذي بدأ فيه يكون أسرة مستقرة تعيش عيشة حسنة، اذا ببنات عمه اللاتي يحملن اسم أسرته يجلبن لها العار!

وفي صباح اليوم التالي زاره عمه في الحقل الذي كان يعمل وحده فيه، إذ كانت (أولان) في البيت تستعد لوضع وليد ثالث!

وكان العم في حالة يرثى لها من الفقر والاعياء، يرتدي ثياباً مهلهلة لو أن ريحاً هبت عليها لأصبح عاري الجسد، فلما بلغ الى موضع (وانج لنج) وقف بجانبه صامتاً، وكان هذا يعمل بفأسه في خط ضيق ليزرع فولا، فقال له وهو يواصل العمل:

ـ معذرة يا عمي!. انني لا أستطيع ترك العمل كما ترى لأن هذا الفول كما تعلم، يجب أن يزرع مرتين أو ثلاثاً، ولا شك أنك انتهيت من زرع فولك. أما أنا فاني فلاح بائس لا أتم عملي قط في حينه لأستريح!

وأدرك عمه ما وراء هذا الكلام، ولكنه قال في لين: «انني رجل سيء الطالع!. في هذا العام لم تنبت من الفول الذي زرعته حبة واحدة!. وسنضطر الى شراء الفول هذا العام اذا أردنا أن نأكله!».

ثم تأوه من أعماق قلبه، وقد أدرك (وانج لنج) أن عمه ما جاء إلا ليطلب اليه شيئاً، فأخذ يعمل فأسه في الارض بحركة منتظمة وبعناية كبيرة، يكسر كل مدرة في الارض الناعمة التي تم زرعها من قبل، وكان نبات الفول يقف مستقيماً في صفوف منتظمة، ويرسل ظلالا صغيرة في شعاع الشمس!

وأخيراً استطرد العم يقول: «لقد ذكرت لي المرأة التي في بيتي اهتمامك بالجارية الكبرى من بناتي، وأنت على حق في كل ما قلته، فانك أكبر عقلا من سنك.. أجل ينبغي لها أن تتزوج فقد بلغت الخامسة عشرة من عمرها وفاتها الخلف من ثلاث سنوات أو أربع. وأنا في خوف دائم من أن تحمل من كلب ضال وتجلب لي العار وللأسرة كلها!.. تصور ذلك يحدث في أسرتنا المحترمة؟!».

فغرس (وانج لنج) فأسه بعنف في الارض، وكان بوده لو يتكلم في صراحة ويقول لعمه: «ولماذا لا تحكمها اذن؟. لماذا لا تحجزها في

البيت كما ينبغي وتجعلها تكنس وتنظف وتطهو الطعام وتحيك الثياب للأسرة؟». ولكن هذا لا يجوز أن يقال لمن هو في مقام الوالد، ولذلك ظل صامتاً وأخذ يعمل فأسه حول نبات صغير، بينما استطرد عمه فقال في لهجة حزينة:

ـ لو كنت حسن الطالع لتزوجت ـ كما تزوج أبوك ـ امرأة تقدر أن تعمل معه وأن تلد أولاداً في آن واحد، أو مثل زوجتك أنت أيضاً!. ولكن زوجتي لسوء الحظ لا تعرف أن تنمي أي شيء سوى لحمها، وهي لم تلد إلا اناثاً، وولداً واحداً هو من البلادة بحيث يكاد يعد انثى. ولولا هذه المرأة وأناثها لاستطعت أن أصبح غنياً مثلك. وفي هذه الحالة كنت بلا ريب أشركك في ثروتي، وكنت أزوج بناتك لرجال صالحين وأجعل ابنك (صبياً) في دكان تاجر وأدفع له الضمانة بلا تردد، كما أبادر باصلاح بيتك وأطعمك من أطيب طعامي أنت وأباك وأطفالك، ذلك لأننا أسرة واحدة يجري في عروقنا دم واحد!

فأجاب وانج لنج بايجاز: «أنت تعلم أني لست غنياً!. وعندي في البيت خمسة أفواه تطعم، وأبي الشيخ لا يعمل لكنه مع هذا يأكل. والآن يولد لي فم آخر لا بد له من الطعام!».

فبان الغيظ في وجه عمه وقال له في حدة: «بل أنت غني جداً..! وقد اشتريت أرضاً من آل البيت الكبير بمبلغ ضخم لا يعلمه أحد إلا الآلهة. فهل أحد سواك بالقرية كان يستطيع ذلك؟».

وهنا تملك (وانج لنج) الغضب فرمى فأسه وصاح بغتة وهو ينظر الى عمه شزراً:

ـ اذا كان لدي قبضة من الفضة فهذا لأني وزوجتي نكد ونكدح، ولسنا مثل بعض الناس نجلس كسالى الى مائدة القمار أو نثرثر على عتبة الدار، تاركين الحقول تنمو بها الحشائش وأطفالنا يشكون العرى والجوع!

وهنا صعد الدم الى وجه عمه الأصفر، واندفع نحوه ولطمه بشدة على خديه وهو يصيح به: «كيف تجرؤ على أن تقول مثل هذا لعمك؟. أليس لك دين ولا خلق حتى تكون قليل الأدب الى هذا الحد؟!. ألم تسمع في الوصايا المقدسة أنه لا يجوز لانسان أن ينتقد من هو أكبر منه سناً؟!».

فوقف (وانج لنج) عابساً بلا حراك، وقد شعر بأنه أخطأ بتوجيه ذلك اللوم الى عمه، وان بقي في قرارة نفسه حانقاً عليه!

ثم صاح عمه قائلا: «سأذيع هذا الذي قلته لي في القرية كلها!.. وسيعلم الجميع أنك اتهمت ابنة عمك الكبرى أمس بأنها ليست عذراء!. وبأنك اليوم أضفت الى ذلك خطيئة أخرى فوجهت الى عمك نفسه اهانة لا تغتفر ناسياً أنه في مقام أبيك!. والآن لتكن بناتي كلهن غير أبكار، ولكني لا أقبل أن أسمع ذلك من أحد كائناً من كان!».

ثم أخذ يصيح قائلا: «سأنبىء القرية كلها!.. سأنبىء القرية كلها!». ولم يسع (وانج لنج) إلا أن يسترضيه كارهاً، فقد مس كبرياءه أن يقال ذلك عنه في القرية. وعلى أي حال فعمه وبناته من لحمه ودمه، وعلى هذا قال له في لهجة هادئة: «لا تغضب يا عمي!.. ماذا تريد أن أفعل؟!».

وهنا تولى الغضب عن عمه وحل محله الابتسام، ثم وضع يده على ذراع (وانج لنج) قائلا: «اني أعرفك!. أنت فتى طيب!. نعم ان عمك الشيخ يعرفك حق المعرفة فأنت ولدي ولا شك، والآن ضع في كفي قليلا من الفضة.. عشر قطع أو تسع قطع، وعندئذ أستطيع أن أرتب أمر جاريتي (يقصد ابنته) مع وسيط للزواج!.. انك كنت على صواب يا بني فقد حان الوقت لكي تتزوج تلك الجارية.. نعم لقد حان الوقت!».

ثم تأوه وهز رأسه أسفاً ونظر الى السماء نظرة توسل ورجاء، بينما أمسك (وانج لنج) فأسه وقذف بها بعيداً، ثم قال لعمه: «تعال معي الى البيت، فأنا لا أحمل الفضة معي كما يفعل الأمراء!».

ومشى أمامه في الطريق الى البيت، ولم ينبس بكلمة واحدة طول الطريق، لكنه كان يفكر حانقاً متحسراً على قطع جديدة سينتقل بعضها الى كف عمه، ومن يدري؟.. فقد يضيعها على مائدة القمار قبل أن يرخي الليل سدوله!

وحينما وصلا الى البيت، وجد (وانج لنج) ولديه الصغيرين يلعبان فوق العتبة عاريي الجسم في أشعة الشمس، فدفعهما من طريقه في جفاء، بينما ناداهما عمه اليه وأخذ يداعبهما في حنان ووداعة وهدوء، ثم أخرج من ثنايا ثيابه قطعتي عملة من النحاس فأعطى كلا منهما قطعة، وراح يضمهما و يشم خديهما قائلا: «يا لكما من رجلين صغيرين!».

ولم يقف (وانج لنج) ليشهد هذا المنظر، بل دخل الى الغرفة التي ينام بها مع زوجته وطفله الاخير، وقد بدت له مظلمة إذ كان آتياً من وهج الشمس في الخارج. وكاد لا يرى شيئاً فيها لولا نفاذ قليل من الضوء من خلال ثقب السقف، ثم شم رائحة الدم الدافىء وقد ملأت خياشيمه فصاح قائلا: «ماذا؟! هل حان الوقت؟».

فردت عليه (أولان) زوجته وهي راقدة في سريرها وقالت بصوت لا يكاد يبين من فرط الضعف: «نعم لقد انتهى الأمر. وهي في هذه المرة جارية لا تستحق الذكر!».

ووقف مكانه لا يتحرك، فقد تملكه شعور بالتشاؤم، وحدث نفسه قائلا: «انثى؟!.. ان كل هذه المتاعب قد سببتها انثى أيضاً هي الابنة الكبرى لذلك الشيخ الواقف بالباب!».

ولم ينطق ببنت شفة، بل قصد الى الحائط وأخذ يتحسس الثقب الذي خبأ النقود فيه، ثم أزال الحجر الذي يسده، ومد يده الى قطع النقود الفضية فأخذ تسعاً منها، وهنا قالت له زوجته بغتة وسط الظلام: «لماذا تخرج النقود من مكمنها؟».

فأجاب بايجاز «انني مضطر الى ذلك الآن!.. سأقرض عمي اياها!».

فسكتت قليلا، ثم قالت بلهجتها السهلة الرصينة: «ليس هناك اقراض في بيت عمك. ليس هناك إلا المنح!».

فقال وانج لنج بمرارة: «أعرف ذلك!. واني إذ أعطيه من مالي أشعر كأني أقتطع من لحمي، لا لشيء سوى أنه قريبي!».

ثم عاد الى عمه الواقف بالباب، فدفع النقود اليه ثم رجع مسرعاً الى الحقل وأخذ يعمل بعنف وكأنه يريد أن يقطع من أسسها، ولم يكن يفكر إلا في النقود الفضية، وتصورها ترمى بغير اكتراث على مائدة القمار ثم تقبض عليه يد أحد الكسالى بعد أن جمعها هو بعرق جبينه من ثمار حقوله لكي يحيلها أرضاً له!

وحينما حل المساء، كانت سورة غضبه قد هدأت قليلا، وتذكر بيته وطعامه، وفكر في الفم الجديد الذي جاء الى بيته في ذلك اليوم، وكان في حنقه على عمه قد نسي أن يلقي نظرة على وجه هذه المخلوقة الصغيرة الجديدة. فوقف معتمداً على فأسه وقد تملكه حزن شديد. انه لن يقدر أن يشتري الارض الجديدة المجاورة للقطعة التي اشتراها إلا بعد الحصاد القادم!...

وفي تلك اللحظة حوم فوقه في الجو سرب من الغربان السود وهي تنعق بصوت مرتفع وراقبها حتى حطت فوق الاشجار التي حول حقله، فلوح بفأسه كأنما يهددها لتطير، وعادت هي فطارت محلقة فوق رأسه وجعلت تحوم حواليه وكأنها تسخر منه بصيحاتها المزعجة، ثم ابتعدت أخيراً في الجو. فتنهد بصوت مرتفع. لقد كان ذلك فألا سيئاً!

جريمة الجوع

خيل الى (وانج لنج) أن الآلهة تنكرت له واعتزمت ألا ترعاها بعد ذلك أبداً!. فقد امتنع هطول الامطار، خلافاً لما كان يتوقع من هطولها في باكورة الصيف، واستمرت السماء صافية وحرارة الشمس تشتد يوماً بعد يوم، حتى صارت الارض جافة يابسة، ولم يكن الجو تظهر فيه أية سحابة منذ الفجر، فاذا حل الليل تألقت النجوم وبدا لونها الفضي المذهب قاسياً قابضاً برغم ما فيها من روعة وجمال!

وأجدبت الحقول برغم أن (وانج لنج) مكث يفلحها بأقصى ما يملك من جهد، وكانت سيقان القمح قد برزت في جرأة مادة رؤوسها لتمتلىء بالحبوب، ولكنها وقد طال بها انتظار الماء كفت عن النماء، ووقفت بلا حراك تحت شعاع الشمس، ثم انكمشت واصفرت وصارت هشيماً تذروه الرياح. وكذلك كانت زراعة الأرز التي وجه (وانج لنج) اليها نشاطه بعد أن يئس من زراعة القمح وطالما حمل اليها الماء في دلوين يحملهما على طرفي عصا غليظة خشنة أرهقت كتفيه الى أن جف الماء في البركة ولم يبق في قاعها سوى الطين وغاض ماء البئر وبعد غوره، حتى قالت (أولان) له يوماً: «اذا كان لا بد للاطفال أن يشربوا، ولأبيك الشيخ أن يرشف ماءه الساخن، فلا مناص من ترك الزرع دون ري!».

فرد عليها (وانج لنج) في كدر شديد: «حسناً!. انهم ينبغي لهم أن يموتوا عطشاً اذا كان لا بد للزرع أن يبقى بلا ري!».

لقد كانت حياتهم تعتمد كل الاعتماد على ما تنتجه الارض، وهذه هي حقولهم كلها لم تنتج شيئاً، فيما عدا قطعة الارض التي بجانب الخندق، وذلك لأن (وانج لنج) حين رأى الصيف ينقضي دون أمطار ترك كل حقوله الاخرى وصار يقضي يومه كله في تلك القطعة من الارض، يحمل اليها الماء من الخندق في صبر عجيب. وحينما حصد القمح الناتج منها سارع الى بيعه وقبض ثمنه فضة أطبق عليها كفه وقال لنفسه متحدياً القدر وتنكر الآلهة له: «لقد حطمت جسمي في سبيل هذه القبضة من الفضة، واذن من حقي أن أصنع بها ما أشاء!». ثم توجه فوراً الى دار (هوانج) وقابل الوكيل هناك وابتدره قائلا: «معي من المال ما أشتري به بقية الارض التي على الخندق!».

وكان (وانج لنج) قد سمع أن آل (هوانج) أشرفوا على الفقر، وأن السيدة العجوز لا تجد حاجتها من الأفيون أياماً عديدة متوالية فصارت كالنمرة الهائجة من الجوع، ولا تكف عن تعنيف الوكيل ولعنه، وقد تلطم وجهه بالمروحة وتصيح به قائلة: «ألم تبق لدينا أفدنة من الارض؟». كما سمع أن الوكيل نفذ صبره، وبلغ به الأمر أن قدم للأسرة ما كان يحجزه لنفسه من مال في الصفقات التي يعقدها لها!. وعدا هذا كله كان السيد الشيخ قد اتخذ لنفسه خليلة جديدة هي ابنة جارية كانت خليلته في شبابها ووهبها بعد أن سئمها الى خادم في الدار!

ان ذلك البيت الكبير لم يكن بد من تقوض مجده وضياع ثروته، فعميده السيد الكبير كلما أوغل في الكبر وزاد جسمه لحماً وشحماً، اشتدت رغبته في النساء الخفيفات الجسم اللاتي في عنفوان الشباب، وهو لا يريد أن يقتنع بأنه لم يبق يملك من الارض ما يكفي لشراء الحلى والثياب لخليلاته الكثيرات، فقد تعود فيما مضى أن يجد ما شاء من المال متى شاء!... والسيدة العجوز صارت لا هم لها إلا تدخين الأفيون في اسراف لا يقف عند حد!.. أما أولادهما فكانوا على غرارهما

في الاسراف، ولا يكفون عن طلب المال من الوكيل فاذا لم يلب رغباتهم فوراً لاموه واتهموه بسوء ادارته لأملاك الأسرة، ومن هنا نحل جسم المسكين وصار جلداً على عظم من الغيظ والقلق بعد أن كان بديناً كثير الشحم واللحم!

وفي هذه السنة لم تنتج حقول آل (هوانج) أي شيء من الحاصلات، لأن السماء لم ترسل اليها ماء. ومن أجل ذلك كله كان (وانج لنج) وهو يقول للوكيل: «معي فضة لشراء تلك القطعة» كأنه قال: «معي طعام لسد جوعكم!». فتشبث الوكيل بهذه الفرصة التي سنحت، وتمت الصفقة في دقائق معدودات!...

ولم يشعر (وانج لنج) بأن انتقال الفضة من يده هذه المرة بمثابة اقتطاع قطعة من جسمه، فقد حقق بها أمنية عزيزة لديه، وصار له الآن حقل فسيح من الارض الجيدة، فقد كانت مساحة القطعة الجديدة ضعف مساحة الحقل الأول. وفي هذه المرة لم ينبىء أحداً بما فعله، حتى ولا (أولان)

وانقضى شهر بعد آخر والمطر لا يسقط، حتى اذا اقترب فصل الخريف تجمعت في السماء سحب خفيفة صغيرة، فامتلأت طرقات القرية برجالها الواقفين في بلادة وقلق يرقبون هذه السحب و يتساءلون أهي محملة بالماء؟

ثم هبت فجأة ريح عاتية من الشمال الغربي، فعصفت بتلك السحب كما تزيح المكنسة كومة من التراب على الارض، وعادت السماء خالية قاحلة، وصارت الشمس تشرق كل يوم ثم تغرب، و بعدها يبزغ القمر وكأنه ــ لصفاء السماء ــ شمس صغيرة تضيء!

واستطاع (وانج لنج) أن يجني من حقوله قليلا من القمح والفول والذرة، وقد حرص على ألا يضيع أي شيء من هذا الحاصل القليل، فقام هو وزوجته بدق الفول وقشر الحنطة فوق أرض الغرفة الوسطى.

ولما أراد أن يضع (القوالح) جانباً لتكون وقوداً قالت له (أولان) زوجته: «كلا!.. لا تسرف فيها بالحريق. اني أذكر حين كنت طفلة في (شانتونج) أن مرت بنا سنوات عجاف مثل هذه، وعندئذ كنا نطحن (القوالح) ونأكلها، فهي خير من الحشائش!».

وتلقى هو وأبوه الشيخ وولداه كلامها في صمت رهيب وخوف كثير، ولكن الوليدة الجديدة لم تكن تعرف الخوف، إذ كان في ثديي أمها ما يكفي لطعامها وزيادة، على أن (أولان) ما لبثت قليلا حتى حملت من جديد فجف اللبن في ثدييها وصارت الطفلة تملأ البيت صراخاً من الجوع!

ولو أن أحداً سأل (وانج لنج): «كيف قمت بأودك وأود أسرتك في ذلك الخريف؟». لما وجد ما يجيب به، ولكن هول المجاعة جعل كل انسان في القرية لا يفكر إلا في نفسه!

وقد بقي يعني بثوره أشد عناية، و يجهد نفسه في تزو يده بقليل من التبن ما وجد الى ذلك سبيلا، فلما نفد التبن صار يقطع له أوراق الشجر الجافة حتى انتهت هذه أيضاً بحلول الشتاء. وأخيراً لم تكن هناك أرض تحرث، ولا بذور تبذر غير التي ماتت في بطن الارض، فقد أكلوا كل ما عندهم من البذور!. وهكذا ترك الثور يبحث عن غذائه بنفسه، واكتفى بأن عهد الى ابنه الأكبر أن يجلس فوق ظهره طول النهار و يمسكه بحبل مربوط الى أنفه حتى لا يسرق. ثم خاف أن يتركه كذلك فيذبحه جيرانه و يأكلوه، فصار يربطه الى باب الدار، ولم تمض أيام حتى بات الثور وكأنه هيكل عظمي لقلة الغذاء!

وأخيراً، لم يبق بالدار غير قليل من الفول، فقد نفد كل المدخر من الأرز والقمح برغم التقتير الشديد، ولم يسمع للثور خوار لشدة ضعفه وهزاله. وعندئذ قال الشيخ: «لم يبق لنا سوى الثور نأكله!». فصرخ (وانج لنج) رعباً وكأن أباه قال له: «سنأكل انساناً»، فقد كان الثور رفيقه في الحقول وقد سار وراءه طو يلا ممتدحاً اياه، أو لاعناً أباه، كما

يحلو له، وقد عرفه منذ كان فتى يافعاً إذ اشتروه وقتئذ عجلا صغيراً.. وعلى هذا قال لأبيه: «كيف نأكل الثور؟!.. وكيف نحرث الارض بعد ذلك؟».

فأجاب الشيخ في هدوء: «أما حياة الثور، وأما حياتنا جميعاً!».

ولكن لم تطاوعه نفسه على ذبح الثور، في ذلك اليوم. ثم مر اليوم التالي والذي بعده. وصاح الاطفال في طلب الطعام ولم يرضوا أن يسكتوا، ونظرت (أولان) الى زوجها نظرة توسل لأجل أطفالها الجياع، فأدرك أخيراً ألا بد من ذبح الثور، وقال بخشونة: «اذبحوه اذن.. أما أنا فلا أستطيع!».

ودخل الى الغرفة التي ينام فيها ورقد على السرير وأدنى اللحاف الى رأسه حتى لا يسمع صراخ الثور حين يذبح!. بينما خرجت (أولان) الى خارج الدار وتناولت سكيناً كبيرة من المطبخ وذبحت الثور، وأخذت اناء ليجري فيه دمه المهراق لتستخدمه في الطهو، ثم سلخت الحيوان الضخم وقطعته ارباً. ولم يرض (وانج لنج) أن يخرج من غرفته حتى تم الأمر كله وطهي اللحم ووضع على المائدة. غير أنه لما أراد أن يأكل منه اشمأزت نفسه ووقف لحم الثور في حلقه، فقنع بأن يشرب قليلا من المرق. وعندئذ قالت له أولان: «ان الثور قد كبر وشاخ. واذن يجب أن يؤكل، وثق أننا سيكون لنا ثور أحسن منه يوماً من الايام!».

وكأنما وجد (وانج لنج) في هذا القول شيئاً من العزاء فأكل قطعة لحم ثم قطعة أخرى، وأكلوا جميعاً حتى شبعوا. وانتهى الثور أخيراً ولم تبق منه إلا العظام فمصوا نخاعها، وجففت أولان جلده.

وثارت في البداية عداوة أهل القرية له إذ حسبوا أنه يخبىء عنهم فضة و يحبس دونهم طعاماً. وكان عمه من أوائل الذين أحسوا بالجوع فجاء متطفلا الى بابه، والواقع أنه وزوجته وأولادهما السبعة لم يكن لديهم ما يأكلونه.

فوضع (وانج لنج) في ذيل ثوب عمه مقداراً من الفول وقبضة من الحنطة ثم قال له بحزم: «ان هذا كل ما أستطيعه لمساعدتك، وعندي أبي وأولادي وكلهم أحق برعايتي!».

ولما عاد اليه عمه مرة أخرى صاح به: «ان صدق النبوءة من جانبي لن يملأ بيتي طعاماً». وتركه يمضي خالي الوفاض!

ومنذ ذلك عاداه عمه كالكلب الذي ركل، وصار يذيع في القرية أن ابن أخيه يملك فضة و يقتني طعاماً ولكنه لا يحب أن يعطي أحداً شيئاً!

وكانت بيوت القرية ينفد الطعام منها بيتاً بعد آخر، وتنفق آخر درهم لها في أسواق المدينة لشراء القليل من الغذاء الباقي بها!.. ثم هبت رياح الشتاء من الصحراء جافة قارسة كحد السيف، فأعان هذا كله عم (وانج لنج) على تضليل أهل القرية الذين اشتدت حاجتهم وأطفالهم الى الغذاء، وأخذوا يصدقون ما يقول وهو يسير مرتعداً في طرق القرية. «هناك شخص يخزن طعاماً ولا يزال أطفاله سماناً من الشبع». وما لبثوا قليلا حتى أخذوا هراواتهم ذات ليلة الى بيت (وانج لنج) وأخذوا يقرعون الباب بعنف، وما ان فتح لهم الباب حت هجموا عليه وأزاحوه عن الباب ثم أخرجوا أطفاله المذعورين من الدار، واقتحموا الغرف وفتشوا كل ركن فيها، باحثين عن طعام مخبوء، حتى اذا لم يجدوا سوى قليل من الفول اليابس والحنطة المجففة تملكهم اليأس، وأخذوا يحطمون المائدة والدكك والسرير الذي كان الشيخ راقداً فوقه مرتعداً باكياً من الخوف!

وعندئذ برزت لهم (أولان) وارتفع صوتها الواضح الرصين على أصواتهم قائلة لهم: «هذه حماقة منكم!.. لقد أخذتم كل القليل الذي نملكه من الزاد. ولكنكم لم تبيعوا بعد ما في بيوتكم من موائد ودكك. فدعوا متاعنا لتكون مثلكم ونتساوى معكم في كل شيء. اننا الآن لا نملك فولة واحدة أكثر منكم، بل الواقع أنكم الآن في حال خير من

حالنا لأن معكم كل ما كان عندنا من طعام. فاذا أخذتم أكثر من ذلك عاقبكم الله بذنبكم. والآن هيا بنا نذهب جميعاً لنبحث عن حشائش وقشر شجر لنا ولأطفالنا، ولهذا الجنين الذي أحمله وسيولد في هذا الوقت الرهيب!».

وكانت تضع يدها على بطنها وهي تتكلم، فخجل الرجال من أنفسهم وخرجوا من الدار واحداً في أثر آخر، لأنهم لم يكونوا أشراراً ولكن الجوع جعلهم كذلك!

على أن «تشنج» الفلاح ذا الوجه الاصفر المجعد الذي يشبه وجه القرد، تلكأ قليلا كأنه يريد أن يقول شيئاً يعتذر به لأنه رجل شريف وما دفعه الى هذا الشر إلا بكاء طفله من الجوع. ولكن كان في عبه قبضة من الفول سلبها حين اقتحم الهاجمون المخزن وخاف أن يضطر الى إعادتها اذا هو نطق معتذراً، ولذا قنع بالنظر الى وانج لنج هنيهة ثم خرج لا يلوي على شيء!

ووقف (وانج لنج) بباب بيته حيث كان يقوم بدراس محاصيله الوفيرة عاماً بعد عام. وتولاه فزع شديد إذ لم يبق بالبيت أي شيء لاطعام أبيه وأطفاله، ولا لاطعام زوجته التي كان عليها أن تغذي نفسها والجنين الذي في بطنها لا أن يأكل من لحم أمنه ودمها!. ثم قال يعزي نفسه أخيراً:

ـ انهم لا يستطيعون أن يسلبوني أرضي!. لقد أودعت كدي وثمار حقولي في شيء لا يمكن أن يسلب أو ينهب. ولو أني أدخرت الفضة لأخذوها، ولو اشتريت بها غذاء لنهبوه!

رأى (وانج لنج) بعد أن اشتد الجوع به وأفراد أسرته أن ليس من الحكمة أن يمكثوا هكذا في الدار حتى يدركهم الموت!.. وكان قد شد حزامه على بطنه ولم يرد أن يفقده حياته في الوقت الذي اكتملت فيه رجولته ولكنه لم يدر أين يذهبون؟!

وأخذ ينظر الى السماء و يهز قبضته في حنق وغيظ. ثم تحامل على نفسه وتوجه الى معبد الحقل وهو يجر قدماً بعد أخرى، وهناك وقف يحدق في وجه الصنم الصغير الجالس بجانب قرينته.. ولم تكن هناك عيدان بخور أمام الصنمين إذ لم يقدم لهما شيء منذ أشهر، وكانت ثيابهما المصنوعة من الورق قد تمزقت وكشفت عن أجزاء من جسديهما المصنوعين من الطين. ولكنهما مع ذلك قبعا في مكانهما لا يحركهما شيء، فنظر هو الآخر في انتظار ما تجيء به الأقدار!

وكانوا قد جففوا قوالح الذرة وأكلوها، وقشروا الاشجار وتغذوا بقشورها!. وكان الناس في نواحي الريف كله يأكلون الحشائش حيثما وجدوها بسفوح التلال. ولم يكن ثمة حيوان يرى في أي مكان!. وكانت بطون الاطفال منتفخة بالهواء، ولم يكن يرى طفل يلعب في طرق القرية، ولم يكن ولدا (وانج لنج) يتخطيان عتبة الباب حيث يجلسان في الشمس القاسية وقد نحف جسداهما بعد امتلاء و برزت عظامهما الصغيرة. أما الطفلة فلم تكن تستطيع أن تجلس وحدها مع أن أوان ذلك قد فات بالنسبة لسنها، وانما كانت ترقد ساعة بعد أخرى ملتفة في لحاف وهي تبكي وتصيح. وكان صياحها في البداية يملأ البيت ولكنها تولاها التعب أخيراً فهدأت وصارت تمص اصبعها دون أن ترفع صوتها. وكانت تنظر اليهم جميعاً بعينين زائغتين وقد تدلت شفتاها الزرقاوان كأنهما شفتا امرأة عجوز خلا فوها من الأسنان!

وقد أثر منظرها هذا في قلب أبيها فأحبها وصار دائم الاهتمام بأمرها مع أنه حين كانت صحيحة الجسم مرحة كالأطفال الآخرين ما كان يوليها أي اهتمام!

وكان ينظر اليها أحياناً و يقول: «يا لها من بلهاء مسكينة!».

ومرة حاولت أن تبتسم فكشفت عن فمها الخالي من الاسنان، فغلبه البكاء وأمسك بيدها الصغيرة في يده، وأحياناً كان يحملها وهي

عارية الجسد و يضعها على صدره تحت جلبابه، و يجلس بها هكذا على عتبة الباب وهو يتأمل الحقول اليابسة الجرداء!

أما أبوه الشيخ فكانت حاله خيراً منهم لأنه اذا كان هناك شيء يؤكل كان من نصيبه حتى ولو لم يأكل الاطفال. وكان (وانج لنج) يقول لنفسه في كبرياء: «ان أحداً لم يقدر أن يتهمني بأني نسيت أبي حتى في ساعة الموت!. بل اذا وجب أن يأكل من لحمي أنا فاني لن أضن به عليه!».

وكان الشيخ ينام ليل نهار و يأكل ما يعطى اياه وقد بقيت به قوة يزحف بها الى الباب وقت الظهيرة حين تكون أشعة الشمس دافئة، وقد كان أكثر مرحاً منهم جميعاً، وقال لهم يوماً بصوت مرتعش كأنه صوت ريح ضعيفة وسط (بوص) مشدوخ. «لقد كانت هناك أوقات شراً من هذه الاوقات!. وقد رأيت في حياتي رجالا ونساء يأكلون الأطفال!».

فقال (!وانج لنج) وقد تولاه فزع شديد: «لن تكون في بيتي أبداً شيء من ذلك!».

وفي أحد الايام جاء جاره (تشنج) اليه في بيته وقد أصبح هيكلا عظمياً وهمس قائلا: «في المدينة يأكلون الكلاب، وفي كل مكان يأكلون الخيل والقاذورات من كل نوع. ونحن هنا قد أكلنا الدواب التي كانت تحرث لنا الارض وقشور الاشجار. فماذا بقي الآن لنتبلغ به؟».

فهز (وانج لنج) رأسه يائساً. وكان يحمل على صدره طفلته الصغيرة ناتئة العظام فنظر اليها نظرة حزينة وهي ترقبه ولا تحيد عنه ببصرها، وكما التقى نظرها بنظره ابتسمت له ابتسامة تكاد تقطع نياط قلبه!

ثم اقترب منه (تشنج) وقال له همساً: «انهم في القرية يأكلون لحم البشر. وقد سمعت هذا عن عمك وزوجته، ولا بد أنه صحيح وإلا فمن أين لهما هذه القوة التي يعيشان بها و يتسكعان، وهما اللذان لم يملكا شيئاً قط؟!».

فتراجع (وانج لنج) ذعراً وقد تملكه بغتة خوف لا يدري كنهه، ثم قام فجأة كمن يدفع خطراً داهماً وقال بصوت مرتفع: «سنغادر هذا المكان!. سنرحل الى الجنوب. ان الناس يموتون جوعاً. ولكن مهما يكن القدر قاسياً فانه لن يمحو الناس جميعاً!».

فنظر اليه جاره وقال له بحزن: «أنت شاب و يمكنك أن تهاجر. أما أنا وزوجتي كبيرا السن وليس لنا سوى ابنة واحدة فمن اليسير علينا أن نموت جوعاً!».

فقال له وانج لنج: «أنت أسعد حالا مني، فان لدي أبي الشيخ وهؤلاء الاطفال الثلاثة المحتاجين للطعام، وسيولد لي طفل آخر. فيجب أن نهاجر حتى لا ننسى طبيعتنا البشرية و يأكل بعضنا بعضاً كالكلاب الضالة!».

وبدا له بغتة أن ما قاله عين الصواب، وصاح بأولان، وكانت ترقد في فراشها صامتة، بعد أن لم يبق شيء لطهوه على الفرن ولا وقود لاشعاله به، وقال لها: «تعالي يا أولان اننا سنهاجر الى الجنوب!».

وكان لصوته رنة فرح لم تعهد فيه منذ أشهر، نظر اليه الاطفال، ودب الشيخ خارجاً من غرفته، وقامت (أولان) في اعياء من سريرها وجاءت الى غرفتهم واستندت الى الباب وقالت: «انه لشيء حسن أن نرحل فاننا يمكننا على الأقل أن نموت في أثناء السير!».

وكان الطفل الذي في بطنها يتدلى منه كالثمرة البارزة، ثم قالت: «فلننتظر حتى الغد لكي أضع حملي!.. انني أعرف عوارض الوضع من حركة الجنين!».

فقال لها وانج لنج: «لا بأس. فلننتظر الى غد!».

ثم أبصر وجه زوجته فتملكته الشفقة عليها وقال لها: «كيف تستطيعين المشي، أنت أيتها المخلوقة البائسة؟».

ثم التفت الى (تشنج) جاره الذي كان لا يزال واقفاً متكئاً على الباب وقال له:

اذا كان لا يزال لديك أي طعام فاني أرجو أن تعطيني قبضة منه لأنقذ حياة أم أطفالي، وعندئذ أنسى أنك كنت مع من اقتحموا بيتي كاللصوص!

فنظر اليه (تشنج) في خجل وقال بانكسار: «اني منذ تلك الساعة لم أفكر فيك إلا غلبني الندم!.. لقد كان ذلك الكلب عمك، هو الذي حرضني زاعماً أن لديك حاصلات مخبوءة. واني أقسم لك أمام هذه السماء القاسية أني لا أملك الآن سوى قبضة من الفول الاحمر مخبأة تحت حجر عتبتي، وقد وضعتها مع زوجتي هناك احتياطاً لساعتنا الاخيرة، أنا وزوجتي وطفلتنا، حتى نموت وفي بطوننا شيء من الطعام. ولكني سأعطيك جانباً منها، وغداً يمكنك أن تهاجر الى الجنوب اذا استطعت. أما أنا فسأبقى في بيتي. اني أكبر منك سناً وليس لي ولد ولا أبالي أأعيش أم أموت!».

وذهب (تشنج) ثم عاد بعد قليل ومعه مقدار قبضة من الفول الاحمر ملفوفة في منديل وعليها طبقة من الطين. وانتعش الاطفال عند رؤية الطعام، ولمعت عينا الشيخ، ولكن (وانج لنج) دفعهم عنه لأول مرة في حياته، وأخذ الطعام الى زوجته في سريرها فجرشت قليلا منه، فولة بعد أخرى، وما كان لتؤثر نفسها به، لولا أن ساعة الوضع قد دنت وقد أيقنت أنها اذا لم تتبلغ بشيء فهي لا محالة ميتة وسط ما تعانيه من آلام الوضع!

كان (وانج لنج) قد أخفى حبات من الفول في راحته، فوضعها في فمه وأخذ يمضغها، وبعدئذ وضعها في فم ابنته، ولما رأى شفتيها تتحركان شعر كأنه شبع!

وفي تلك الليلة مكث في الغرفة الوسطى، وكان الولدان مع جدهما في غرفته، وفي الغرفة الثالثة كانت (أولان) تضع حملها وحدها!

وجلس (وانج لنج) هناك كما جلس أثناء ولادة طفله الأول وأخذ ينصت!.. ولم ترد (أولان) أن يكون بجانبها في تلك الساعة، بل أرادت أن تضع وحدها جالسة القرفصاء فوق وعاء كبير قديم كانت تحتفظ به لهذا الغرض، ثم تزحف في الغرفة تزيح آثار بقع الدم كما تفعل الحيوانات عند الولادة!

وأصغى (وانج لنج) مترقباً صيحة الوليد الرفيعة التي يعرفها جيداً، وكان قد تولاه اليأس فهو لا يبالي أيكون الوليد ذكراً أم أنثى، وانما كان يذكر أن ثمة طفلا جديداً يحتاج الى طعام! وغمغم قائلا: «ان من رحمة الله أن يولد ميتاً!». وعندئذ سمع صيحة تخترق السكون فأتم جملته قائلا: «ولكن لا توجد رحمة في هذه الأيام!».

ولم يسمع (وانج لنج) صيحة ثانية إذ عاد السكون يشمل الدار، وكان البيت يبدو هكذا منذ أيام عديدة، ولكن (وانج لنج) لم يحتمل ذلك السكون، فقد تملكه الخوف، وما لبث قليلا حتى نهض وتوجه الى باب الغرفة التي بها (أولان) وصاح بها من الثقب: «هل أنت بخير؟». ولم يسمع أي جواب، فارتعد جسمه خوفاً من أن تكون قد ماتت، غير أنه سمع صوتها وهي تتحرك في الغرفة، أخيراً سمعها تقول بصوت واهن: «تعال!» فدخل على الفور حيث وجدها راقدة على سريرها ولا يكاد جسدها النحيل يرفع الغطاء الى أعلى، وكانت وحدها فسألها: «أين الطفل؟».

فأشارت بيدها الى جثة الطفل على الارض ولم تنبس بكلمة، بينما صاح هو قائلا: «ميت؟!». فهمست قائلة: «أجل!».

وانحنى (وانج لنج) على الجثة يفحصها، وكانت كومة من عظم وجلد، وهي طفلة أنثى، وكاد يقول لزوجته: «لقد سمعت صيحتها فلا بد أنها ولدت حية». ولكنه نظر الى وجه (أولان) وكانت مغمضة العينين ولونها كلون الرماد وجلدها لاصق بالعظام، فكان وجهها وحده ينم عن كل ما قاسته فلم يجد ما يقوله!.. انه مهما يكن الأمر لم يكن

يجر سوى جسده وحده في هذه الشهور الأخيرة. فما أشد ما عانته هذه المرأة من جوع وفي بطنها جنين تقضم فيه ليعيش!

وحمل الطفلة المائتة الى الغرفة الاخرى وبحث حتى وجد قطعة حصير ممزق فلف فيها جثتها، وكان رأسها المدور يميل يميناً وشمالا فرأى على جانبيه بقعتين داكنتين، ولكنه أتم ما كان بصدده، ثم أخذ الحصيرة بما فيها وذهب بعيداً عن البيت الى أقصى ما تقوى عليه قدماه، ثم وضع جثة الطفلة في جوف قبر مهجور، على سفح التل القائم في أقصى حقله الغربي. ولم يكد يضع الجثة على الارض حتى جاء كلب ذؤبي يحوم وراءه، وبلغ الجوع منه أنه لما رماه بحجر صغير وأصابه، لم يتزحزح إلا قليلا عن مكانه. ثم شعر (وانج لنج) بركبتيه تخذلانه فغطى وجهه بيديه وذهب عائداً الى البيت وهو يغمغم قائلا: «الأفضل أن يكون الأمر هكذا!». وتملكه اليأس والقنوط!

وفي صباح الغد، خيل اليه أن من الحلم والخيال أن يفكر في مغادرة هذا البيت مع هؤلاء الاطفال القليلي الحيلة، ومع هذه المرأة الضعيفة، وهذا الرجل الشيخ. فكيف يقدرون أن يجروا أجسامهم مسافة مائة ميل حتى لو كان الخير والرخاء بعد ذلك؟.. ومن يدري أيجد في الجنوب طعاماً أم لا يجد؟. ولعلهم يستنفذون البقية الباقية من قواهم ليجدوا أناساً آخرين لا يقلون عنهم جوعاً، وهم غرباء عنهم مع ذلك، أليس الأفضل أن يبقوا حيث هم ليموتوا في فراشهم؟

وجلس على عتبة داره مستغرقاً في الفكر، ناظراً الى غير هدف نحو حقوله اليابسة الجرداء التي اقتلع منها كل نبات يصلح للأكل أو للوقود!

ولم تكن عنده نقود، ولكن ما فائدة النقود ما دام ليس هناك ما يشتري بها من الطعام؟!

ومضى في تفكيره المضطرب، فتذكر ما سمعه من أن بالمدينة أناساً أغنياء يخزنون الطعام لأنفسهم وليبيعوه لمن هم أغنى منهم، ولكن

ذلك نفسه لم يعد يكدره، فانه شعر بأنه لا يستطيع السير الى المدينة حتى اذا كان الطعام هناك يقدم بلا مقابل. انه في الواقع لم يكن يشعر بالجوع فقد ولى الشعور الأول بالجوع الذي كان ينهش في معدته، وصار يقدر أن يأخذ قبضة من الطين من بقعة معينة في حقل من حقوله و يعطيها الى الاطفال دون أن يرغب فيها لنفسه. وكانوا قد ظلوا منذ أيام يأكلون هذا الطين ممزوجاً بالماء، فكان يسد جوعهم برهة و يشغل بطونهم الخاو ية. وقد أصر على أن لا يلمس الفول الذي بيد (أولان) تتناول منه حبة بين فترة وأخرى.

ولما جلس على عتبة الدار، وقد ودع كل أمل وارتاح الى فكرة الرقاد على سريره حتى يموت، أبصر أناساً يمشون في الحقول قاصدين له. ومكث جالساً في مكانه وهم يقتر بون، ثم رأى بينهم عمه وقد جاء معه ثلاثة رجال لا يعرفهم.

ثم قال له عمه بلهجة ودية وصوت مرتفع: «اني لم أرك منذ أيام عديدة». ولما اقترب منه قال له: «لقد طابت عيشتك! وأخي الأكبر: أليس على ما يرام؟».

فنظر (وانج لنج) الى عمه، لقد أصبح حقاً نحيل الجسم ولكن لا يبدو عليه أنه يقاسي الجوع كما ينبغي لمثله. وشعر بالبقية الباقية من قوته تستحيل غضباً وحنقاً على هذا الرجل الذي هو عمه. فقال له بلا موار بة: «لقد أحسنت الغذاء! ما أطيب ما أكلت!».

ولم يبال الغرباء الذين معه، ولا واجب الأدب والمجاملة نحوه، وانما رأى هذا الرجل الذي لا يزال اللحم على عظامه. فنظر الى السماء ورفع يديه وقال: «لو أنك رأيت بيتي؟!. ان العصفور نفسه لا يجد ما يلتقطه فيه. أما زوجتي فهل تذكر كيف كانت بادنة الجسم؟. انها الآن مثل ثوب معلق على وتد، ولا يبدو منها سوى عظام ناتئة من الجلد. أما أطفالنا فلم يبق منهم سوى أر بعة. والثلاثة الصغار قد ذهبوا: ذهبوا! أما أنا فهأنت ذا تراني!».

وقال له (وانج لنج): «انك يبدو عليك الشبع!».

فقال عمه بغتة: «اني لم أفكر إلا فيك وفي أبيك الذي هو أخي. والآن جئت أبرهن لك على ذلك. فقد استعرت من هؤلاء الصحاب الطيبين من المدينة قليلا من الطعام، واعداً اياهم بأني، بالقوة التي أستمدها منه، سأساعدهم في شراء بعض الاراضي بالقرية. وكان أول ما فكرت فيه أرضك الجيدة، أنت ابن أخي. وقد جاءوا ليشتروا أرضك و يعطوك في مقابلها المال والطعام والحياة!».

وإذ قال ذلك تراجع الى الوراء مشبكاً ذراعيه معاً، ملوحاً بكميه القذرين!. فلم يتحرك (وانج لنج) من مكانه ولم يقف ولم يهتم بالرجال الذي جاءوا مع عمه. وانما رفع رأسه ليلقي نظرة عليهم فرآهم من المدينة حقاً. وكانوا يرتدون ثياباً طو يلة من الحرير المتسخ، ولكن أيديهم ناعمة وأظافرهم طو يلة وقد بدا عليهم الشبع من الدم الذي يجري سريعاً في عروقهم. وأحس فجأة بغضاً شديداً نحوهم فقد رآهم أناساً أكلوا وشر بوا ثم جاءوا اليه في الوقت الذي يموت فيه هو وأطفاله من الجوع ليغتصبوا أرضه مستغلين كر به!. فنظر اليهم عابساً وقال لهم: «لن أبيع الارض!».

وفي هذه اللحظة زحف أصغر ولديه يحبو بدل أن يمشي، فأشار اليه عم (وانج لنج) وقال له: «هل هذا ابنك! هل هذا هو الطفل السمين الذي أعطيته عملة نحاسية في الصيف الماضي؟!».

ونظروا جميعاً الى الطفل!. وعندئذ بكى (وانج لنج) ثم التفت الى القوم في ذلة وانكسار وقال لهم: «ما هو الثمن الذي تدفعونه؟».

انه هو وزوجته في امكانهما أن يحفرا لنفسيهما قبرين و يرقدا فيهما حتى يوافيهما الموت. ولكن ماذا يصنع أبوه الشيخ وهؤلاء الاطفال الضعاف؟!

وهنا تكلم رجل من القوم ليس له غير عين واحدة فقال: «ان حالتكم يرثى لها حقاً. ولهذا سندفع لك ثمناً لا تنال مثله في هذه الايام، من أجل هذا الطفل الذي يموت جوعاً. سنعطيك....».

وكف عن الكلام فجأة، ثم قال بعد هنيهة: «سنعطيك خيطاً به مائة درهم ثمناً للفدان الواحد!».

وضحك وانج لنج بمرارة وقال: «ان معنى هذا أنكم تأخذون أرضي بلا مقابل!.. أنني حين أشتري الارض أدفع عشرين مثلا لما تعرضونه الآن!».

فقال له رجل آخر مهم، وكان ضئيل الجسم ذا أنف رفيع ولكن له صوتاً خشناً غليظاً:

ـ ولكنك لا تدفع ذلك الثمن حين تشتري الارض من أناس يموتون جوعاً!

وعندئذ نظر (وانج لنج) شزراً الى الرجال الثلاثة، لقد كانوا واثقين من اضطراره الى قبول ذلك الثمن الزهيد، وما الذي لا ينزل عنه الانسان من أجل أطفاله وأبيه اذا كانوا يموتون جوعاً؟.. غير أن ضعف الاستسلام في نفسه انقلب غضباً شديداً لم يشعر بمثله من قبل. فقفز نحوهم كما يقفز الكلب على عدو، وصرخ فيهم قائلا: «انني لن أبيع الارض أبداً، بل سأحفر الحقول قطعة قطعة وأطعم أطفالي طيناً. واذا ماتوا فسأدفنهم في بطن الارض، وأنا وزوجتي، وأبي الشيخ نفسه، سنموت على الارض التي كانت مصدر حياتنا!».

وظل واقفاً يبكي و يرتعد، في حين وقف عمه والرجال الثلاثة يبتسمون ابتسامة خفيفة ولا يبدين حراكاً!

و بغتة ظهرت (أولان) بالباب، ثم قالت لهم في صوت هادىء وكأن ما هي بسبيله شيء يحدث مثله كل يوم: «لن نبيع الارض بأي حال. والا فاننا حين نعود من الجنوب لا نجد ما نقتات منه. ولكنا سنبيع

المائدة والسريرين والفراش والمقاعد الأربع وحتى القدر التي بالفرن. ولكنا لن نبيع المحراث ولا الفأس ولا المناجل!».

وكان في صوتها من الهدوء ما هو أقوى أثراً في النفس من غضب (وانج لنج). فقال لها عمه: «هل ستهاجرون الى الجنوب؟».

ثم تهامس الرجال الثلاثة قليلا، والتفت الرجل الاعور الى (أولان) وقال لها:

ـ انه أثاث قديم لا يصلح إلا للوقود. وعلى هذا ندفع قطعتين فضيتين ثمناً له كله!

فقالت له (أولان) في هدوء: «أنه أقل من ثمن سرير واحد. ولكن اذا كانت الفضة معك فادفع الثمن سريعاً وخذ الأثاث!».

فتحسس الأعور حزامه ووضع قطعتي الفضة في يدها ودخل الرجال الثلاثة الى البيت وحملوا فيما بينهم المائدة والمقاعد والسرير الذي في غرفة (وانج لنج) مع فراشه ونزعوا القدر من الفرن. ولكنهم لما دخلوا غرفة الشيخ وقف عم (وانج لنج) في خارجها فانه لم يحب أن يراه أخوه الشيخ، ولا أن يشهد وضعه على الارض وأخذ السرير منه. ولما تم ذلك وصار البيت خالياً إلا من المنجلين والفأسين والمحراث في ركن بالغرفة الوسطى، قالت (أولان) لزوجها: «هيا بنا نهاجر في حين نملك قطعتين من الفضة وإلا اضطررنا الى أن نبيع عروش السقف ثم لا نجد جحراً نأوي اليه حين نعود!».

فقال (وانج لنج) بمرارة: «هيا بنا نذهب!». ثم ألقى نظرة على حقوله الجرداء وأردف قائلا:

ـ حسنا!.. اننا على الأقل ما زلنا نملك الارض!

هجرة الى الجنوب

تعاون وانج لنج وزوجته على ربط باب الدار بعد اغلاقه ربطاً وثيقاً بما كان لديهم من حبال، ثم غادروا القرية في سكون وهم يرتدون كل ما عندهم من ثياب، وأخذت أولان سلطانية الأرز وعيداناً لتناول الطعام بها، ثم واصلوا المشي عبر الحقول حتى جاوزوا سور المدينة، وكان وانج لنج يحمل طفله على صدره، لكنه رأى أباه الشيخ يوشك أن يسقط فأعطى أولان الطفلة وحمل أباه على ظهره، ومشى يتعثر تحت عبء هيكله العظمي و يتصبب منه العرق لفرط الضعف والاعياء!

وكانت الريح عاصفة، وانتفض الطفلان من شدة البرد، ولكن (وانج لنج) أخذ يشجعهما قائلا: «أنتما رجلان كبيران مسافران الى الجنوب حيث الدفء والطعام، وحيث نجد الأرز الابيض كل يوم فنأكل ونشبع!».

ولكن الوحل كان كثيفاً تحت أقدامهم يتخلله الجليد، فكان عسيراً على الطفلين أن يواصلا السير، وكانت أولان تئن تحت ثقلها وثقل الطفلة التي تحملها، بينما وانج لنج يحمل أباه ثم طفليه بالتناوب واحداً بعد آخر، وقد اضطر الى أن يقف غير مرة ليسترد أنفاسه اللاهثة، في حين تجلس الأسرة كلها على الارض في انتظاره وهي ترتعش من البرد!

ولما وصلو الى البيت الكبير ــ بيت آل (هوانج) ــ كانت بوابته الكبيرة موصدة، وأمامها رجال ونساء جلسوا القرفصاء على الدرج، وسمع وانج لنج أحد هؤلاء يقول لآخر منهم:

ـ ان قلوب هؤلاء الاغنياء قد تحجرت، فانهم لا يزال لديهم أرز يأكلونه و يصنعون الخمر من فائضه في حين يتركونا نموت جوعاً!

كما سمع ذلك الآخر يرد قائلا: «آه لو كانت في يدي بقية من قوة، أذن لأشعلت النار في هذا الباب وفي الغرف التي وراءه حتى ولو احترقت بها. ألف لعنة على الآباء الذين خلفوا آل هوانج».

ولكن وانج لنج لم يعبأ بشيء من ذلك، ومضى مع أسرته يواصلون مشيهم صوب الجنوب!

وحينما حل المساء وأوشك الظلام أن يحجب معالم الطريق، وجدوا جموعاً كثيرة من الناس قاصدين الجنوب كذلك. وفيما كان وانج لنج يبحث عن موضع ينام فيه مع أسرته متلاصقين من البرد، اذا بتلك الجمع تجرفهم معها فسأل واحداً منهم: «الى أين تذهب هذه الجموع؟».

فأجاب الرجل: «اننا قوم نوشك أن نموت من الجوع ونحن ذاهبون الى حيث نركب العربة النارية (يريد القطار) لتذهب بنا الى الجنوب. وهي تسير من ذلك البيت (يريد المحطة) وتوجد عربات لأمثالنا أجرة الركوب فيها أقل من قطعة فضية!».

وقال وانج لنج لنفسه: «عربات نارية؟!.. لقد سمعت بها من قبل!.. نعم لقد سمعت في الايام الخالية أناساً في مقهى الشاي يتحدثون عن تلك العربات، و يقولون أن بعضها يربط ببعض بسلسلة من الحديد، وأنها لا يجرها انسان ولا دابة. بل تسيرها آلة يخرج منها نار وماء ودخان وكأنها غول!».

وتذكر أنه اعتزم يوما أن يذهب لمشاهدة تلك العربات النارية لكن شواغله في الحقول حالت دون ذلك ولم يجد قط فراغاً من وقته لا سيما أنه كان في شمال المدينة بعيداً من البيت الذي تخرج منه تلك العربات.

ثم التفت الى زوجته وقال لها متردداً: «ألا نسافر بتلك العربة النارية التي يقولون عنها؟». وكانت أولان تجاهد معه لتسحب الاطفال والشيخ من طريق الجموع، فلم تستطع الاجابة واكتفت بنظرة شاع فيها القلق والخوف!..

وفي تلك اللحظة سقط الشيخ على الارض، بينما رقد الغلامان الصغيران بجانبه على التراب غير عابئين بأقدام الناس حولهما. ولحظ وانج لنج أن رأس الطفلة يتأرجح على كتف أمها في حين عينيها مغمضتان، فأشفق أن تكون ميته، ونسي كل ما هم فيه وصاح بزوجته قائلا: «هل ماتت الجارية الصغيرة؟».

فهزت أولان رأسها وقالت: «لم تمت بعد.. لا يزال فيها نفس يتردد. ولكنها ستموت هذه الليلة وسنموت نحن كلنا إلا اذا...».

وهنا أمسكت عن الكلام كأنها لا تقدر عليه ونظرت الى زوجها نظرة اعياء، فلم يقل لها شيئاً بل قال لنفسه: «انهم اذا مشوا يوماً آخر على هذه الحال فان مآلهم الموت في ليلتهم هذه».

ثم قال لولديه بصوت فيه رنة العزاء والتشجيع: «قوما أيها الغلامان وساعدا جدكما على النهوض!. سنسافر بالعربة النارية ونجلس وهي تسير بنا الى الجنوب!».

وفي تلك اللحظة سمع وسط الظلام صوت كصوت الغول وبدت عينان كبيرتان تخرج منهما النار، فانطلقت صيحات الدهشة والفزع هنا وهناك. وتدافعت الجموع في اضطراب شديد، قاصدة الى باب صغير مفتوح وراء غرفة كالصندوق. ثم ركبوا ذلك الشيء فسار بهم يزأر زئيراً متواصلا وسط الظلام وهم جالسون في بطنه!

دفع وانج لنج أجر السفر مائة ميل من قطعتي النقود الفضية اللتين معه، وقد أعطاه الموظف الذي أخذهما ما زاد على الأجر المطلوب وهو قبضة من النقود النحاسية، فاشترى منها (وانج لنج) أربعة

أرغفة صغيرة من الخبز الجاف وسلطانية عصيدة الأرز للطفلة، ومع أنهم كانوا في شدة الجوع لم يستطيعوا أن يزدردوا ذلك الطعام بسهولة، فيما عدا الشيخ الكبير فانه أخذ يمضغ الخبز الجاف في عناء بين لثتيه الخاليتين من الاسنان، ثم يقول لمن حوله: «لا بد للانسان أن يأكل!.. ان معدتي الحمقاء أصابها الكسل في هذه الايام التي لم تجد فيها ما تعمله، ولكن لا بد من اجبارها على العمل، فليس من الحكمة أن يموت المرء لا لشيء سوى أن معدته لا تريد أن تعمل!». وقد أثار هذا ضحكات كل من سمعوه!

وكان بالعربة النارية (القطار) رجال ونساء سافروا الى الجنوب من قبل، أما فراراً من المجاعات الماضية، وأما لتعودهم السفر كل عام الى المدن الغنية بالجنوب للعمل أو الاستجداء!.. فلما أصغى وانج لنج لما يقولونه، مباهين بمعلوماتهم، سمع أحدهم يقول لآخر:

ـ ينبغي لك أولا أن تشتري ست حصر لتقيم بها سقيفة تأوي اليها واذا كنت أريباً لا فلاحاً ساذجاً، فلن تدفع أكثر من درهمين ثمناً للحصيرة الواحدة!.. انني لا يمكن أن يخدعني أهل مدن الجنوب حتى لو كانوا من كبار الاغنياء!

وأعجب وانج لنج بهذا الحديث وهو جالس بين أفراد أسرته على أرض العربة الخشبية التي تسير بهم، إذ لم يكن بها مقاعد للجلوس عليها وكانت الريح والتراب يطيران في جوها بعد أن ينفذا من ثغرات بالارض، فأخذ يرهف أذنيه حتى لا يفوته شيء من تلك المعلومات، وكان من حسن حظه أن رفع الرجل صوته فصار واضحاً برغم قعقعة العجلات، ومضى يقول لزميله: «بعد ذلك تربط الحصر بعضها ببعض وتصنع منها عشة، ثم تخرج للاستجداء بعد أن تلطخ نفسك بالوحل والقذارة لتستدر رحمة الجنوبيين الأغنياء!».

ولم يكن وانج لنج قد استجدى في حياته أحداً من الناس، ومن أجل ذلك سأل ذلك الرجل: «هل من الضروري أن يستجدي في الجنوب ليعيش؟!».

فضحك الرجل وقال: «ان أولئك القوم في الجنوب قد توافر لديهم الأرز حتى انك تستطيع كل يوم أن تذهب الى مطعم عام وتشتري بدرهم واحد من عصيدة الأرز الأبيض ما يملأ بطنك. وبعد ذلك يمكنك أن تستجدي وأنت هادىء النفس ثم تشتري فولا وكرنباً وثوماً كما تشاء!».

وهنا انتحى قليلا عن الآخرين، ثم جعل وجهه الى جدار العربة وعد بيده خفية ما بقي في حزامه من نقود، فوجد أن معه ما يكفي لشراء ست حصر وسلطانية من عصيدة الأرز لكل فرد من أفراد أسرته، بل يبقى معه ثلاثة دراهم بعد ذلك، وشعر عند ذلك بالاطمئنان إذ أن معه ما يكفي ليبدأ به الحياة الجديدة المنتظرة في الجنوب، غير أنه بقي غير مستريح الى فكرة استجداء الناس، وقال لنفسه: «قد يكون ذلك مناسباً لوالدي الشيخ وللطفلة، وقد تصلح له أولان أيضاً بوصفها امرأة ضعيفة.. أما أنا فلا ينبغي لي إلا أن أكد وأكدح لأكسب عيشي بعرق جبيني!».

ثم سأل الرجل مرة أخرى: «ألا يوجد هناك عمل لمن يرغب فيه؟».

فبصق الرجل على أرض العربة وقال بازدراء: «عمل؟.. نعم يمكنك أن تعمل في جر عربة أو نقالة يسمونها هناك (ريشكا) و يستعملونها في تنقلاتهم، لكنك بهذا تنهك قواك بالجري والجر، ثم يتجمد عرقك من البرد حين تقف بانتظار عميل آخر يركب عربتك. ولذا أوثر الاستجداء على مثل هذا العمل البغيض الثقيل!».

ولم يجرؤ على أن يوجه الى الرجل سؤالا آخر، ورأى أنه قد سمع ما فيه الكفاية، فالتزم الصمت من جديد، وبقي كذلك حتى وقفت بهم العربة النارية عند أول مدن الجنوب، فغادروها مع بقية الركاب. ثم أجلس أباه الشيخ والطفلين بجانب جدار بيت في أول المدينة، وكلف زوجته أن تراقبهم، بينما ذهب هو ليشتري حصراً يقيم بها البيت الجديد الذي سيسكنون فيه!

وأخذ يسأل المارة عن الطريق الى السوق، لكن لهجته كانت مغايرة للهجتهم الى حد كبير، فلم يستطع التفاهم معهم، ولا سيما أنهم جميعاً كانوا قليلي الصبر سرعان ما يغضبون!

لكنه وجد دكان الحصر أخيراً في طرف المدينة فانتقى ست حصر وناول البائع اثني عشر درهماً كشأن من يعرف سلفاً ثمن السلعة التي يشتريها، ثم حمل الحصر وعاد الى حيث ترك أسرته، فلما رآه ولداه سارعا الى استقباله وقد عاودهما الاطمئنان بعد أن امتلآ رعباً في ذلك المكان الغريب عليهما. أما أبوه الشيخ فكان يرقب كل شيء بسرور ودهشة وغمغم قائلا لوانج لنج: «أرأيت ما عليه أهل الجنوب هؤلاء من بدانة وما في وجوههم من صُفرة ودسم؟!. انهم لا شك يأكلون لحم خنزير كل يوم!».

وكان الناس يمرون بالأسرة وهي قابعة في موضعها ذاك فلا يكادون يعبأون بها، بل يواصلون سيرهم مشغولين بأنفسهم، ومن حين لآخر كانت تمر قافلة من الحمير محملة بالطوب لبناء المنازل أو بأكياس كبيرة من الحبوب. وخلف كل قافلة منها سائق راكب على الحمار الأخير وبيده سوط طويل يفرقعه بشدة وهو يزجر الحمير مستحثاً. ولحظ وانج لنج أن كل سائق من هؤلاء كان يحدج الأسرة بنظرة متعالية، وكأنه أمير ينظر الى بعض عبيده، ولم يكن يحلو للسائق أن يفرقع بسوطه بشدة إلا حين يقترب من (وانج لنج) وأسرته، فكان الصوت الحاد الذي يحدثه السوط يفزعهم كل الفزع، وحينئذ يقهقه السائق مسروراً، ولما رأى (وانج لنج) أن هذا تكرر مرات متتالية لم يجد بداً من ترك هذه البقعة والبحث عن بقعة أخرى ينصب فيها عشة الأسرة.

وهناك الى جانب السور العالي الممتد الى مسافة بعيدة، كانت مئات من العشش الصغيرة لاصقة به وكأنها براغيث على ظهر كلب!. ونظر

وانج لنج ملياً الى تلك العشش ثم بدأ يقيم عشته على شاكلتها، ولما لم يتقن عمله قالت له زوجته:

ــ دع ذلك لي.. اني أعرفه منذ كنت طفلة!

ثم وضعت طفلتها على الارض وأخذت تشد الحصر بعضها الى بعض، ثم أقامت منها أربعة جدران، وجعلت لها سقفاً على ارتفاع يكفي لأن يجلس الرجل تحته دون أن يصطدم بقمته، كما ثبتت الاطراف السفلى للحصر بالأرض مستعينة على ذلك ببعض الحجارة وقطع الأغصان الجافة. فلما انتهت من اقامة العشة فرشت الارض في داخلها بحصيرة كانت قد أبقتها لهذا الغرض. وهكذا صار للأسرة بيت مسقوف مفروش، فدخلوه وجلسوا فيه آمنين!

ومضى وقت غير قصير وأفراد الأسرة صامتون ينظر بعضهم الى بعض في ذهول، وكأنهم لا يصدقون انهم صاروا على بعد مائة ميل من بيتهم الأول وأرضهم، وأنهم قطعوا في ليلة واحدة هذه المسافة الطويلة التي لو قطعوها على الأقدام لاستغرقت رحلتهم أسبوعاً على الأقل، ولمات بعضهم أو ماتوا جميعاً قبل أن يقطعوها!

وكان يبدو أن نفوسهم قد امتلأت اطمئنانا الى الرخاء في هذه المنطقة التي لا يبدو فيها أحد جائعاً، ولما قال لهم وانج لنج: «هيا بنا نذهب الى المطاعم الشعبية» قاموا جميعاً وقد استخفهم الفرح. وتقدمهم (وانج لنج) ليرشدهم الى الطريق، ومن خلفه طفلاه ينقران على سلاطين الأرز الفارغة بالأعواد الخاصة بتناوله وكأنما وثقا من وضع الطعام في تلك السلاطين عما قليل.

وعرفوا أخيراً لماذا أقيمت العشش على طول ذلك السور. فهناك على مسافة قصيرة من طرفه الشمالي كان الشارع المؤدي الى تلك المطاعم الشعبية. وكان سكان العشش الكثيرون يسيرون فيه حاملين آنية شتى ليضعوا فيها الطعام. فاختلط (وانج لنج) وأسرته بهؤلاء، ووصلوا

معهم أخيراً الى كشتين كبيرتين كان الناس يتدافعون اليهما، وفي مؤخرة كل منهما فرن كبير لم يرى (وانج لنج) مثله ضخامة، وعلى كل فرن وعاء كبير كأنه لاتساعه بركة صغيرة، وفيه أرز أبيض يغلي في الماء و ينبعث منه بخار كثيف له في أنوف الجموع الحاشدة ما ليس لأزكى الروائح العطرية، وما كادوا يشمونـه حتى تدافعوا بالمناكب، وتعالت صرخات الأمهات مشفقات أن يطأ الناس أقدام أطفالهن الباكين في انتظار الطعام.

وكان الرجال الواقفون وراء القدور يصرخون قائلين: «عندنا ما يكفي الجميع فكل بدوره». ولكن جموع الجياع من الرجال والنساء والاطفال استمروا يتشاجرون كالوحوش في سبيل السبق الى الطعام. بينما وانج لنج حائر وسطهم وقد أعياه دفع الناس عن أبيه وولديه، ثم جرفه الزحام أخيراً الى حيث القدر الكبرى، فرفع يده بسلطانيته وفيها درهم، وما لبث قليلا حتى عاد بها ملأى بالأرز الساخن، ومن خلفه أبوه وولداه وزوجته. وما كادوا يصلون الى الطريق ثانية حتى وقفوا يأكلون فرحين كأنهم ظفروا بكنز عظيم!

وبقيت في السلطانية حبات من الأرز فقال لولده الأكبر: «أبقها معك لتأكلها في المساء». ولكن سرعان ما تدخل في الأمر شخص من الحراس المنتشرين هناك، وكان يرتدي ثياباً خاصة زرقاء حمراء، فأمسك السلطانية في يد الغلام وقال في حدة: «ليس لأحد أن يأخذ معه شيئاً من الطعام، بل يجب أن يأكل هنا كل ما يشتريه!».

فقال له وانج لنج: «ما دمت قد دفعت الدرهم فماشأنك أنت اذا كنت أحمل بقية الطعام في يدي أو في بطني؟».

فرد الحارس قائلا: «هذه قاعدة مرعية هنا، لأن من الناس من قست قلوبهم حتى أنهم يأتون إلى هنا فيشترون الأرز المعد للفقراء بالثمن الزهيد الذي يباع لهم به ثم يحملونه الى بيوتهم ليطعموا به الخنازير!. وهذا الأرز قد جعل للبشر لا للخنازير!».

فبدت الدهشة في وجه وانج لنج ثم قال: «أيوجد بين الناس من بلغت بهم القسوة هذا الحد؟!».

ثم سأل الحارس: «من الذي يعطي هذا الأرز للفقراء بهذا الثمن الزهيد؟».

فأجاب الرجل: «انهم أغنياء المدينة وسراتها، و بعضهم يفعلون ذلك رغبة في ثواب الدار الآخرة، و بعضهم يفعلونه ابتغاء المدح والثناء!».

فقال وانج لنج: «مهما يكن الأمر فهو عمل طيب!».

وكان الحارس قد مل الكلام معه فأدار له ظهره. وعندئذ تعلق الغلامان بأبيهما فعاد بهما و بأبيه الى العشة حيث ناموا جميعاً حتى صباح اليوم التالي!

لقد كانت هذه أول مرة شعروا فيها بالشبع منذ فصل الصيف، ولهذا راحوا جميعاً في نوم عميق!

وكان الأسرة في حاجة الى كسب نقود بأي سبيل بعد أن أنفقوا آخر درهم عندهم في شراء أرز الصباح. ونظر وانج لنج الى أولان متسائلا عما يجب عمله، ولكن نظرته اليها لم تكن نظرة يأس كتلك التي لاحت في عينيه حينما كان في القرية. فهنا في الجنوب يغدو الناس و يروحون في الطرق وعليهم دلائل الشبع، واللحم والسمك والخضر والأرز والقمح متوافرة في الاسواق، فلا خوف من أن يموت رجل وأطفاله من الجوع. أما هناك فالحقول جرداء، والطرق والاسواق مقفرة حتى ان الفضة نفسها لا تجدي شيئاً في سبيل الحصول على الطعام!

وقالت أولان له في ثبات وكأنها ألفت هذه الحياة: «انني أنا والغلامان يمكننا أن نستجدي الناس، وكذلك أبوك فان شعره الابيض يستدر عطف من لا يعطف علي!».

ثم نادت الغلامين، وكانا قد نسيا كل شيء أنهما وجدا طعاماً وصارا في مكان غريب عليهما، فأخذا يجريان في الشارع ويتفرجان على

كل شيء يمر أمامهما، فلما حضرا قالت لهما: «ليأخذ كل منكما سلطانية و يمسكها بيده ثم يصيح كلما مر أحد به قائلا: (الرحمة يا سيدي. الرحمة يا سيدتي. ان الدرهم الذي تجود به سينقذ طفلا مسكيناً من الموت جوعاً!).

كانت تقول ذلك بلهجة تستدر العطف حقاً وهي تمد يدها بالسلطانية، فحدق فيها الغلامان متعجبين، ولم يكن وانج لنج أقل عجباً منهما وأخذ يسائل نفسه: «ترى أين تعلمت الاستجداء هكذا؟!. ألا ما أكثر ما لا أعرفه عن هذه المرأة!».

وكأنما أدركت هي ما يجول بذهنه فقالت له:

ـ هكذا كنت أفعل وأنا طفلة لكي أكسب طعامي!. ولقد باعني أهلي في سنة كهذه السنة!

وعندئذ استيقظ الشيخ وكان نائماً فأعطوه سلطانية ليستجدي فيها هو الآخر، ثم خرجوا جميعاً الى الطريق حيث أخذت أولان تصيح مستجدية وهي تهز آنيتها أمام كل عابر أو عابرة، بينما الطفلة نائمة على صدرها ورأسها يتأرجح كلما تحركت يد أمها ممدودة بالسلطانية، فتبدو كأنها ميته أو توشك أن تموت جوعاً!. مما حدا ببعض المارة الى التصدق على أمها بقطعة أو أكثر من العملة الصغيرة!

أما الغلامان فما لبثا قليلا حتى وجدا في الاستجداء نوعاً من اللعب واللهو، وكان أكبرهما في خجل من نفسه يضحك حياء وهو يستجدي فلحظت أمهما ذلك، ونادتهما ثم دخلت بهما الكوخ ولطمتهما على وجهيهما بشدة وصاحت بهما غاضبة: «تضحكان هكذا في حين تزعمان أنكما تموتان جوعاً؟. ان جزاءكما هو أن تموتا حقا من الجوع!».

واستمرت تلطمهما حتى كلت يداها وجرى الدمع مدراراً من أعين الغلامين وصار ينتحبان وعندئذ قالت لهما: «الآن تصلحان للاستجداء!. والو يل لكما اذا ضحكتما ثانية!».

ولم يستطع وانج لنج أن يستجدي الناس، فمضى في الشوارع يسأل هنا وهناك عن محل لتأجير النقالات (الريشكا) فلما إهتدى اليه استأجر نقالة ليوم واحد على أن يدفع الأجرة آخر النهار، ثم انطلق بها الى الشارع وهو يجرها خلفه على عجلتيها، وقد خيل اليه أن كل انسان ينظر اليه و يسخر من ارتباكه وهو يجرها كأنه ثور يربط الى محراث لأول مرة!. لكنه ما لبث قليلا حتى تشجع وزايله خجله إذ رأى أمثاله كثيرين في الشارع يجرون عربات كعربته لينقلوا عليها من شاء الى حيث يشاء، كما أنه في حاجة الى كسب عيشه بعمل غير الاستجداء!

وذهب الى شارع فرعي ليس به حوانيت ولكن له أبواب دور خاصة مغلقة، وأخذ يروح فيه و يجيء بعربته فارغة ليعود نفسه هذا العمل الجديد، وكاد يتملكه اليأس و يؤثر الاستجداء، واذا بباب ينفتح عن شيخ مهيب يضع على عينيه منظاراً، وتدل هيئته على أنه مدرس، ثم ناداه هذا الشيخ وأشار اليه آمراً أن يخفض العريشين حتى يركب العربة، فصدع وانج لنج بالأمر، ثم قال له الشيخ بعد أن جلس في العربة في وقار: «خذني الى معبد كونفوشيوس!». فمضى وانج لنج بالعربة وهو لا يدري أين يقع ذلك المعبد ولم يجرؤ أن يسأل الشيخ عنه ومر في طريقه بشوارع مزدحمة يروح فيها الباعة و يغدون بسلالهم، وتمضي فيها النساء الى السوق، وتسير فيها عربات تجرها الخيل، وعربات أخرى كعربته يجرها ناس مثله، وكل يدفع الآخر فلا تبقى ثمة فرصة للاسراع، فسار بما يستطيع من سرعة وهو شاعر بارتباك من الحمل الذي وراءه!.. لقد كان معتاداً حمل الأثقال على ظهره ولكنه لم يألف جرها!

وقبل أن تبدو أمامه جدران المعبد كانت ذراعاه تؤلمانه و يداه قد أصابهما تسلخ، ثم نزل الشيخ من العربة (الريشكا) في حين وقف وانج لنج أمام باب المعبد صامتاً حتى أخرج الشيخ من صدره قطعة فضية صغيرة ومد يده بها قائلا: «لن أدفع أكثر من هذه، ولا داعي للشكوى!». ثم أدار له ظهره ودخل المعبد لا يلوي على شيء.

ولم يكن قد رأى هذه العملة من قبل، فلم يدر كم تساوي من الدراهم، ومن أجل ذلك عرج في طريق عودته على دكان أرز ليصرف تلك القطعة، وكان سروره شديداً حين أعطاه الصراف في مقابلها ستة وعشرين درهماً، وقال يحدث نفسه: «ما أسهل كسب النقود هنا في بلاد الجنوب!». ولكن سائق (ريشكا) آخر كان يقف الى جواره وهو يعد النقود فقال له: «ستة وعشرون درهماً فقط؟. ما هي المسافة التي ركبها ذلك الشيخ؟».

ولما أخبره وانج لنج صاح به قائلا: «حقاً انه لرجل قاسي القلب!. لقد أعطاك نصف الأجر الذي تستحقه! لماذا لم تساومه كثيراً قبل أن تحمله على عربتك؟!».

وكان بعض المارة قد وقفوا يستمعون الى هذا الكلام ضاحكين، فخجل وانج لنج ولكنه لم يقل شيئاً، وشعر بمهانته وجهله وسط هذا الجمع من أبناء المدينة، فسحب عربته ومضى في سبيله وهو يقول لنفسه: «على أي حال، هذه الدراهم ستكفي لاطعام أطفالي غداً». ثم تذكر أن عليه أن يدفع أجر العربة ليلا، وهو ضعف ما معه وأكثر، فتنهد أسفاً ومضى بالعربة هنا وهناك بحثاً عن ركاب!.

وقبل الظهر نقل راكباً آخر، وقد ساوم هذا الراكب سلفاً حتى اتفق معه على الأجر. وبعد الظهر ركب عربته اثنان آخران. غير أنه بعد هذا كله لم يبق معه سوى درهم واحد بعد دفع أجر العربة، فعاد الى كوخه وهو في حنق شديد، وقال لنفسه: «أفي مقابل كدح يوم كامل، أشد من يوم حصاد بالحقل، لا يكسب المرء هنا سوى درهم واحد؟!». وعادت الى ذهنه ذكرى أرضه، ولم يكن قد ذكرها قط طول يومه، وامتلأت نفسه طمأنينة إذ تذكر أنها لا تزال هناك في القرية تنتظره حتى يعود!

ولما وصل الى الكوخ وجد أولان قد كسبت في يومها أربعين قطعة عملة صغيرة، أي ما يقرب خمسة شلنات. أما الغلامان فان أكبرهما

كسب ثماني قطع، والصغير ثلاث عشرة قطعة، فكانت جملة هذه المبالغ تكفي لشراء أرز الصباح. غير أنهم لما وضعوا ما كسبه الصغير مع غيره بكى وأصر على أن يبقي لنفسه ما كسبه من نقود، ونام ليلته وهي في يده ثم لم يقدروا أن يأخذوها منه إلا حين لم يجد بدأ من ذلك اذا شاء أن يسد جوعه بتناول الطعام!

أما الشيخ، فلم يكسب شيئاً مطلقاً. وكان قد صدع بالأمر فجلس طول اليوم الى جانب الطريق غير أنه لم يمد يده بالسؤال، بل نام ملء جفنيه، ولما استيقظ أخذ يحملق في كل من يمر به صامتاً حتى تعب من ذلك فنام ثانية!. وإذ كان كبير السن فلم يستطع أحد أن يوجه اليه لوماً. ولما رأى يديه خاليتين لم يزد على أن قال: «لقد طالما حرثت الارض وبذرت البذور وحصدت المحاصيل وبذا استحققت عذائي من الأرز. وفضلا عن ذلك لي ولد وأحفاد!».

لحم محرم

هدأت سورة الجوع التي تملكت وانج لنج وأسرته، واطمأنوا الى أنهم سيجدون كل يوم ما يأكلونه من الأرز بعد أن يدفعوا ثمنه من أجر عمله في جر عربة (الريشكا) ومن تسول زوجته وولديه، وألف هو تلك الحياة الجديدة، فبدأ يتعرف أحوال المدينة التي أوى وأهله اليها، وساعده في ذلك جريه هنا وهناك كل يوم بعربته عابراً مختلف أحياء المدينة!

وقد عرف أن الرجال الذي يركبون عربته صباحاً يقصدون في الغالب الى المدارس أو المتاجر، أما النساء فلا يقصدن إلا الى السوق!

على أنه لم يدر عن تلك المدارس إلا القليل، فاحداها مثلا تسمى «المدرسة الكبرى للتعليم الغربي» أو «المدرسة الصينية الكبرى» ولكنه لم يذهب الى أبعد من بابها الخارجي فلا يدري ماذا هناك في داخلها. كذلك لم يكن يعنيه من المتاجر التي يجر ركابه اليها، إلا أن يدفع اليه هؤلاء أجره المناسب!

وقد تعود العمل ليلا أيضا فعرف أن الناس الذين ينقلهم بعربته حينذاك يذهبون الى مشارب الشاي والى أماكن اللهو التي تنبعث منها أصوات الموسيقى ولعب الميسر بقطع من العاج والبوص على منضدة من الخشب، كما سمع أنها تحوي عدا ذلك ضروباً من المسرات الخفية الصامتة، لكنه بقي لا يعرف شيئاً من هذه المسرات لأنه لم يدخل قط أحد تلك الأماكن!

كان يعيش في تلك المدينة الغريبة وكأنه فأرة في دار رجل غني،

تأكل من الفتات الذي يرمى هنا وهناك، ثم تعود لجحرها لتختفي فيه.

ان هذه المدينة (كيانجسو) لا تبعد أكثر من مائة ميل عن (انهواي) المدينة الأخرى التي تقع قريته في ضواحيها، وليس هناك فارق كبير بين المدينتين من حيث هيئة الأهلين أو لغتهم، إلا أن الأولين ينطقون في بطء و يخرجون الكلمات من حلوقهم، بينما أهل مدينة (كيانجسو) تنطلق الكلمات من شفاههم وأطراف ألسنتهم!.. ولكن الفارق الكبير حقا بين المنطقتين هو أن أرض الاولى لا تنتج اذا انتجت أكثر من مرتين في السنة، وانتاجها في كلتا المرتين قليل سواء أكان من القمح أم من الأرز أم الفول والثوم، أما الحقول التي حول (كيانجسو) فيدفعها زراعها دفعاً الى الانتاج السريع الوفير، وهم يستعينون على ذلك بأسمدة كريهة الرائحة من الفضلات البشرية فتنتج حقولهم الى جانب الفول مثلا كثيراً من الخضروات!

وفي موطن وانج لنج اذا أتيح للرجل رغيف به بعض الثوم فانه يعد ذلك وجبة طعام حسنة و يقنع بها. ولكن الناس هنا يأكلون عدا الحنطة والفول شرائح من لحم الخنزير وقسطلا (أبا فروة) وأرزاً محشواً بالدجاج وقوانص الأوز، وصنفاً أو أكثر من الخضراوات!.. فاذا حدث أن فاحت رائحة الثوم من فم أحدهم فانهم يرفعون أنوفهم اشمئزاز و يقولون ساخرين «ها هوذا رجل كريه الرائحة له ذيل خنزير من أهل الشمال!».

على أن منطقة الأكواخ القائمة بجانب السور لم تندمج قط في تلك المدينة ولا في المنطقة الممتدة وراءها. وذات يوم سمع وانج لنج شاباً يخطب جماعة بالقرب من معبد كونفوشيوس حيث يباح لأي انسان أن يقول ما يشاء اذا أوتي الجرأة على الخطابة، وكان ذلك الشاب يقول: «ان الصين يجب أن تثور على الأجانب»، فتألم وانج لنج من هذا الكلام إذ حسب نفسه وأمثاله هم الأجانب الذين يعنيهم الخطيب!

وسمع في يوم آخر شاباً يخطب في ركن شارع و يقول: «ان الصين يجب أن تتحد وأن الصينيين يجب أن يتعلموا».. فلم يتصور أنه هو وانداده ممن يشملهم هذا الكلام!

وأخيراً عرف ذات يوم أن هناك أجانب في هذه المدينة أكثر منه اختلافاً عن أهلها!. فقد كان يومئذ واقفاً بشارع سوق الحرير في انتظار من يركب عربته، وكان على مقربة منه دكان تخرج منه السيدات بعد أن يشترين حريراً منه وقد سبق أن ركبت معه بعضهن ودفعت له أجراً حسناً. فبينما هو يرقب باب الدكان اذا بسيدة تخرج من هناك لم ير مثلها قط من قبل، بل الواقع أنه لم يدر أول الأمر أهي امرأة أم رجل، فقد كانت طويلة القامة ترتدي معطفاً من قماش سميك وقد لفت حول عنقها جلد حيوان ميت!.. ثم نادته وركبت عربته بعد أن نطقت بكلمات غريبة لم يفهم منها غير أسم (شارع الكبارى). فمضى بها في العربة الى ذلك الشارع بأقصى سرعته، وهو يسائل نفسه: «هل الراكب معي انثى أم ذكر؟». الى أن صادف زميلا له في الطريق، فاستطلع رأيه في هذا الأمر الغريب، وهنا ضحك زميله وقال له:

ــ انها سيدة من أمريكا... وستدفع لك أجراً يغنيك!

ولما عاد تلك الليلة الى كوخه ومعه الفضة التي قبضها دون أن ينفقها بعد، أخبر أولان بما حدث فقالت له: «لقد رأيت هؤلاء الأجانب، وأنا دائماً أستجديهم فانهم وحدهم الذين يتصدقون بقطع نقد من الفضة لا من النحاس!».

غير أن وانج لنج وزوجته حسبا أن الأجانب يدفعون عملة فضية، لا بدافع حب الخير، ولكن من جراء جهلهم وعدم درايتهم أن العملة النحاسية هي التي تعطى للشحاذين لا القطع الفضية!

وعلى أي حال فقد علم من تلك التجربة ما لم يعلمه من الخطباء الشبان، وهو أنه واحد من عشيرته السود الشعر والعيون!

حسب وانج لنج أن لا خوف على أسرته من الجوع بعد أن استقرت في كوخها عند مدخل «كيانجسو» تلك المدينة العظيمة المنبسطة، التي ليست مثل القرية المهجورة لا يوجد بها طعام اذا أجدبت الارض حولها، بل الغذاء متوافر في كل مكان بها، وشوارع سوق السمك المرصوفه قد صفت على جوانبها سلال كبيرة مملوءة بالسمك الفضي الكبير الذي صيد ليلا من النهر، وبجانبها قصاع بها أسماك صغيرة لامعة صيدت بالشباك من البرك، والسوق بعد زاخرة بصنوف أخرى من السمك. وكذلك أسواق الخضر بها كل نوع مما يزرع بالارض، وتلال من الحبوب يمكن الانسان أن يغطس فيها من غير أن يدري به أحد، فهناك الأرز الأبيض والأسمر، وفول الصويا الأصفر، والفول الأحمر والأخضر، والقمح الأصفر الداكن والذهبي الشاحب، وهناك الذرة والسمسم وغيرهما. أما أسواق اللحوم ففيها خنازير كاملة معلقة من أعناقها وقد شقت أجسامها ليرى لحمها الأحمر ودهنها السميك وجلدها الناعم. وفيها دكاكين الطيور ترى بها صفوفاً من البط الأسمر المقدد، والبط المملح، وخيوطاً تنتظم ما لا يحصى من القلوب والقوانص والأكباد، ومثلها من الأوز والديوك البرية غيرها من صنوف الطيور والدواجن!

وعدا هذه الأسواق كان الباعة يروحون ويغدون حاملين الحلوى والفاكهة والبطاطا الحلوة في الزيت وشرائح مطهوة من لحم الخنزير وفطائر مصنوعة من الأرز والسكر، وكان الأطفال يلتفون حول أولئك الباعة وفي أيديهم دراهمهم، يشترون منهم ويأكلون حتى تلمع بشرتهم من وفرة السكر والزيت!

على أن وانج لنج وأفراد أسرته ــ برغم ذلك كله ــ كانوا يخرجون من كوخهم في فجر كل يوم وبأيديهم أوعيتهم وملاعقهم ويمشون في موكب طويل من الناس، خرجوا مثلهم من أكواخهم وهم يرتعدون تحت ثيابهم الخفيفة من برد الصباح الباكر، قاصدين الى المطاعم

الشعبية حيث يتاح لكل منهم أن يحصل على سلطانية من عصيدة الأرز في مقابل درهم واحد!

كان كدح وانج لنج بعربته طول اليوم، وممارسة أولان استجداء الناس هي وطفلاها.. كل هذا لا يتيح لهم أن يطهوا الأرز لأنفسهم في كوخهم. فاذا كسبوا درهماً يفيض عن ثمن الأرز في المطاعم الشعبية، طهوا به قليلا من الكرنب، بل أن الكرنب كان يكلفهم ما لا طاقة لهم به لأن طهيه يحتاج الى وقود، ولم يكن هناك سبيل الى الحصول على شيء من هذا إلا بأن يختطفه الغلامان من أحمال الحطب والأعشاب التي يحملها الزراع الى أسواق الوقود.

وقد برع الغلام الأصغر في هذا العمل، وفي السرقة عامة، أكثر من براعته في الاستجداء. ولم تكن أمه تكترث لذلك، بل كانت ترى أن يسرق الغلامان ان لم يستطيعا الاستجداء ليحصلا لنفسيهما على طعام يسد الجوع!. ولكن وانج لنج كان يشمئز من لجوء ولديه الى السرقة ولم يلم أكبرهما حين ألفاه قليل البراعة فيها، فان هذه العيشة التي يعيشونها في ظل السور الكبير ليست هي الحياة التي يحبها لأسرته، وهناك أرض تنتظر أوبته!

وفي احدى الليالي عاد الى كوخه متأخراً فوجد في حساء الكرنب قطعة كبيرة مستديرة من لحم الخنزير. وكانت هذه أول مرة توافر لهم فيها اللحم منذ ذبحوا ثورهم في القرية، فدهش وانج لنج وقال لأولان: «لا بد أنك استجديت أحد الأجانب اليوم!».

لكنها كعادتها لم تقل شيئاً قال الغلام الصغير مفاخراً ببراعته:

ـ لقد أخذتها!.. انها لي.. وقد غافلت القصاب واختطفتها بعد أن قطعها ووضعها على المنضدة أمامه ريثما يقطع غيرها لامرأة جاءت لتشتري منه لحماً، ثم بقيت أجري بها حتى بلغت عطفة اختفيت خلف باب دار صغير بها، ووضعت قطعة اللحم في اناء ماء حتى جاء أخي الأكبر!



وانج لنج يثور غاضبا على ابنه لانه سرق قطعة لحم من قصاب

وهنا غضب وانج لنج غضباً شديداً وقال: «لن آكل من هذا اللحم المحرم!.. اننا لا نأكل إلا اللحم الذي نستطيع أن نشتريه أو نستجديه، أما اللحم المسروق فلا نأكله أبداً!.. لقد كفى أن صرنا متسولين و يجب أن نموت جوعاً ولا نكون من اللصوص!

ثم تناول قطعة اللحم بأصابعه من القدر ورماها على الارض من غير أن يبالي ببكاء ولده الصغير!.. وعندئذ قامت أولان ببلادتها المعتادة وتناولت اللحم وغسلته بقليل من الماء ثم أعادته الى القدر على النار، وقالت بهدوء: «ان اللحم لحم!».

ولم يقل وانج لنج شيئاً ولكنه كان غاضباً!. كان يخشى أن ينشأ ولداه لصين في هذه المدينة، ولكنه لم يقل شيئاً حين قطعت أولان قطعة اللحم قطعاً كبيرة وأعطت منها للشيخ والد وانج لنج والغلامين وملأت بقطعة منها فم الطفلة وأكلت هي منها كذلك!

لم يقل وانج لنج شيئاً ولكنه لم يرض أن يذوق شيئاً من ذلك اللحم واكتفى بالكرنب الذي كان قد اشتراه. غير أنه بعد انتهائهم من تناول الطعام أخذ ابنه الصغير الى الخارج وراء بيت هناك ووضع رأسه تحت ذراعه، ثم أخذ يضربه على جنبيه ضرباً موجعاً غير مبال صراخه وقال له: «هذا لأنك لص!». ثم قال لنفسه بعد أن ترك الغلام يرجع باكياً الى الكوخ: «يجب أن نعود الى الأرض!».

وراء السور

عاش وانج لنج وأسرته في مدينة (كيانجسو) يشهدون بأعينهم ما تنعم به من رخاء وأمن واطمئنان، فالغذاء تفيض به الاسواق، والحرير على اختلاف أنواعه يباع في حوانيت تخفق عليه أعلام مصنوعة منه والعطور الزكية تنبعث من ثياب الاغنياء المتبطلين، والمقاهي والنوادي والطرقات حافلة دائماً بكل ما هو فخم وجميل. ولكن الجحر الذي تعيش فيه الأسرة في الاكواخ التي بجانب السور لا ينعم ساكنوه بطعام يكفي لسد الجوع ولا بثياب تكفي لتغطية الاجساد!

وكان بعض القوم يكدون طول النهار ليصنعوا خبزاً وكعكاً لولائم الاغنياء.. وكان أطفالهم يكدحون من الفجر حتى منتصف الليل، ثم ينامون بما عليهم من شحم وقذارة فوق فراش من قش على الارض، فاذا أصبح الصباح عادوا لعملهم في الافران من غير أن ينالوا من الأجر ما يكفي لشراء قطعة من الخبز الجيد الذي يخبزونه لغيرهم!

وكان بعضهم يعملون لاعداد فراء سميكة للشتاء وأخرى خفيفة للربيع كما كانوا يطرزون الحرير و يحيكونه لأولئك الذين يأكلون من وفرة الاسواق، في حين لا يجدون ما يستر أجسامهم غير قطع من الاقمشة القطنية الخشنة الزرقاء!

وفي خلال الأشهر التي عمل فيها وانج لنج بين أولئك الذين يكدون لرفاهية غيرهم، كان يرى و يسمع كثيراً من الغرائب لم يكن يأبه لها أول الأمر، ولكن لم يسعه فيما بعد أن يمضي في اهماله اياها!

كان المسكين يمضي في عمله يوماً بعد يوم، لا يشكو ولا يتبرم، بل يعزي نفسه بأن جر عربة (الريشكا) أسهل كثيراً من جر العربات المحملة بالفحم والخشب الى المخابز والقصور!. وكذلك لم يكن أحد من أولئك الزملاء الاشقياء يشكو ما يجدون من عناء في دفع تلك العربات الثقيلة أو سحبها، ولا من الحرمان الذي يتمثل في عجزهم عن الحصول على حاجتهم من الغذاء والكساء والغطاء حتى في أبرد ليالي الشتاء!

نعم، انهم جميعاً صامتون لا يتكلمون، وقد صارت وجوههم كوجه أولان صماء الملامح لا يتبين الناظر اليها أي شعور لاصحابها، ولا أي فكرة تدور في رؤوسهم!. وفي الاحيان القليلة التي كانوا يتكلمون فيها، كان كلامهم كله يدور حول الدراهم المعدودة التي يضحون قواهم في سبيل الوصول اليها لكي يحصلوا بها على عصيدة الأرز أو ما اليها مما لا يسمن ولا يغني من جوع!

وأثر فيهم هذا العناء المتواصل في حمل أثقال تفوق قوتهم، فجعلت شفاههم العليا ترتفع وتكشف عن أسنانهم فيما يشبه الزمجرة، وكثرت الغضون الغائرة حول أعينهم وأفواههم فصارت سحنهم مقلوبة مخيفة، بل صاروا هم أنفسهم على مر الايام لا يكادون يعرفون أنفسهم!. فقد حدث أن رأى أحدهم يوماً صورته في مرآة بعربة بضاعة مرت به فصاح قائلا:«ما أقبح هذا الوجه!». ولما ضحك سامعوه منه ابتسم وهو لا يدري لماذا ضحكوا، ونظر حواليه خشية أن يكون قد أساء الى أحد!

وهنا في الاكواخ القذرة التي يعيشون فيها، حول كوخ وانج لنج كانت النساء يحكن الاسمال والخرق ليجعلن منها ثياباً للاطفال، وكن يختطفن قطع الكرنب من حقول الزراع، ويسرقن قبضات من الأرز من أسواق الحبوب، ويلتقطن فضلات الحصاد على سفوح التلال!. كان الاطفال يولدون ويموتون ثم يولد غيرهم، وهكذا لا تدري الأم أو

الأب كم من أطفالهما ولدوا وكم ماتوا، ولا يكادان يعلمان كم منهم لا يزالون على قيد الحياة، وانما كنا يفكران فيهم على أنهم أفواه تتطلب الغذاء!

كان الرجال والنساء والاطفال من هؤلاء القوم يعيشون عيشة أدنى من عيشة السوائم.. يدخلون الاسواق وحوانيت الاقمشة و يتسكعون في طرقات المدينة، وقليل منهم من يعملون كما يعمل وانج لنج قانعاً بذلك الأجر الذي لا يزيد على بضعة دراهم، وأكثرهم يسرقون أو يخطفون أو يستجدون!

وكثر التذمر بين الشباب، ثم اشتد تذمرهم حين صارت لهم زوجات وأثقلت كواهلهم بأعباء أسرهم التي يزداد عدد أفرادها. ومن هنا استحال غضبهم يأساً قاتلا وثورة أشد من أن تعبر بها الالفاظ!

وفي ذات مساء، استمع وانج لنج الى حديث ثائر من هذا القبيل فعرف لأول مرة معنى اليأس، كما عرف ماذا على الجانب الآخر من السور العالي الذي قامت بجانبه تلك الاكواخ!

كان الوقت في أواخر الشتاء، وقد بدت تباشير الربيع، وغطيت الارض التي حول الاكواخ بمزيج من الوحل والجليد، ثم تسرب ذلك المزيج الى داخل الاكواخ . فصار أفراد كل أسرة يجرون هنا وهناك يبحثون عبثا عن حجر أو نحوه يمكن الجلوس عليه فوق ذلك الوحل ان لم يمكن النوم ساعة أو بعض ساعة للاستراحة من عناء النهار!

ولكن الجو كان برغم ذلك معتدلا فلم يسمع وانج لنج بعد أن تناولت الأسرة عشاءها إلا أن غادر الكوخ الى طرف الشارع حيث كان أبوه الشيخ قد اعتاد أن يجلس هناك مستنداً الى السور. وكان الشيخ جالساً في مكانه المختار ذاك وفي يده طرف حبل فتله من بعض الخرق القديمة، بينما أمسكت الطفلة طرف الحبل الآخر وراحت تمشي نحو جدها فتتعثر وتقع، وتبادل جدها ضحكاته؟. وكانت قد رضيت أخيرا بأن تكون في رعايته بعد أن حملت أمها مرة أخرى فلم تعد تقوى على

حملها فوق صدرها حين قيامها بالعمل في الكوخ أو عند خروجها الى الطريق للاستجداء!

ووقف وانج لنج يراقب طفلته وهي تقع ثم تنهض وأبوه يداعبها بجذب طرف الحبل!. وكأنما أثار اعتدال مزاجه مع اعتدال جو المساء شوقه القديم وحنينه الى الحقول، فقال لأبيه بصوت مرتفع: «في مثل هذا اليوم يجب أن تقلب الارض و يزرع القمح!».

فقال الشيخ في هدوء: «أجل. اني أعرف ما يجول بخاطرك. ولقد اضطررت مرتين ثم مرتين في حياتي الى أن أهاجر كما هاجرنا هذه السنة، وأن أترك الحقول بعد أن صارت كما تركناها ليس فيها بذور!».

فقال له وانج لنج بعد أن سكت قليلا: «لكنك كنت تعود دائماً.. أليس كذلك؟».

فقال الشيخ في بساطة: نعم يا ولدي، لقد كانت الارض هناك فلم يكن بد من الرجوع!».

فسكت وانج لنج ولكنه حدث نفسه قائلا: «حسناً!.. اننا اذن.. سنعود جميعاً، إن لم يكن هذا العام ففي العام المقبل، لأن الارض لا تزال هناك!».

واطمأنت نفسه الى هذا الأمل، واشتد به الحنين الى الارض التي ترتقب أوبته وقد زخرت بأمطار الربيع. ثم نهض عائداً للكوخ حيث قال لزوجته: «لو كنت أملك شيئاً يباع لبعته الآن كي نعود لأرضنا. ولعلنا لولا أبي الشيخ كنا نستطيع العودة ماشين!.. نعم ان أبي المسكين لا يستطيع أن يمشي مسافة مائة ميل!. وكذلك الطفلة، ثم أنت الآن حامل ولا طاقة لك بحملها أيضاً!».

وكانت أولان قد غسلت آنية الأرز بقليل من الماء وكدستها في ركن بالكوخ، فنظرت اليه وهي جالسة القرفصاء هناك وقالت له ببطئها المعهود: «ليس لدينا ما نبيعه سوى الطفلة!».

فارتاع وانج لنج وقال لها في حزم: «نبيع الطفلة؟!. هذ مستحيل!.. اني لن أبيع طفلة لي مهما تكن الظروف!».

فقالت له أولان بالبطء نفسه: «لقد باعني أهلي أنا أيضاً.. باعوني الى بيت كبير حتى يمكنهم أن يعودوا لأرضهم!».

فسألها مستنكراً: «ألهذا تريدين أن تبيعي طفلتك؟!».

فأجابت في هدوء: «لو كان الأمر بيدي لآثرت قتلها على أن أبيعها!. لقد كنت أنا حينذاك بحيث أجد من يشتريني، ولكن مثل هذه الطفلة لا تساوي شيئاً. وانما عرضت أن نبيعها من أجلك أنت لكي تستطيع أن تعود للأرض!».

فقال لها وانج لنج في حدة: «كلا!. لن أبيعها ولو اضطررت الى أن أعيش طول حياتي في هذه البرية!». ثم غادر الكوخ الى حيث كانت الطفلة تلعب مع أبيه، فأخذ ينظر اليها وهي تترنح ممسكة طرف الحبل الذي أمسك جدها بطرفه الآخر. ولاح له أنها نمت وكبرت على الطعام الذي يعطى لها كل يوم، واذا كانت لم تنطق بعد بأية كلمة فان جسمها ممتلىء كأي طفل في سنها. وصارت شفتاها حمراوين بسامتين، وما لمحته حتى بدت فرحة برؤيته وازدادت ابتسامتها عذوبة وجمالا، فقال يحدث نفسه: «كلا!.. أأبيعها وهي تبتسم لي هكذا؟!».

ثم عاد به الفكر الى أرضه فصاح قائلا: «ألا أراها ثانية؟.. اننا مع كل هذا الكدح وهذا التسول لا نكسب أكثر مما يكفي لطعامنا يوماً بيوم!».

وهنا سمع وسط الظلام صوت رجل يرد عليه قائلا: «انك لست وحدك في هذا، بل يوجد مئات ومئات في هذه المدينة!».

ثم اقترب منه الرجل صاحب الصوت فعرف وانج لنج أنه جاره الذي يقطن وأسرته في الكوخ الثاني بعد الكوخ المجاور لمسكنه هو وأسرته. وكان هذا من النادر أن يرى بالنهار لأنه يعمل طول الليل في

تجر عربات ثقيلة محملة بالبضاعة، وقد جرت العادة بألا تسير نهاراً حتى لا تصطدم بالعربات الأخرى في الطرق، ولكن وانج لنج كان يراه أحياناً عائداً لكوخه عند الفجر وهو يلهث من الاعياء وقد تدلى كتفاه العريضان بعظامهما الناتئة. كما كان الرجل اذا غادر كوخه عند الغروب ليبدأ عمله الليلي يقف قليلا للتحدث مع من يلقاهم من جيرانه!

وسأله وانج لنج في مرارة: «أترى الحالة تستمر هكذا الى الأبد؟».

فجذب الرجل ثلاثة أنفاس من غليونه ثم بصق على الأرض وقال: «كلا!. ليس الى الأبد.. حين يكون الاغنياء أغنى مما ينبغي هناك طرق كما أن هناك طرقاً أيضاً حين يكون الفقراء أفقر مما يجوز!.»

وسكت وانج لنج إذ لم يفهم شيئاً، بينما واصل جاره كلامه فقال: «في الشتاء الماضي بعنا طفلتين من أطفالنا فاستطعنا أن نعيش. وفي هذا العام اذا كان الجنين الذي ستضعه امرأتي انثى فسنبيع مرة أخرى!. انه لخير لنا أن نبيعهن من أن نقتلهن وإن كان هناك من يؤثرون أن يقتلوهن قبل أن تتردد أنفاسهن!. وعلى كل حال فهناك كما قلت لك طرق لا بد من سلوكها حين يكون الاغنياء أغنى مما ينبغي!.. واذا لم يخطىء حسباني فان هذه الطرق ستتبع عما قريب!».

ثم أومأ الرجل برأسه وأشار بغليونه الى السور العالي الذي وراءهما وقال: «ألم تنظر قط ما وراء هذا السور؟».

ولما هز وانج لنج رأسه نفياً، استطرد جاره فقال: «لقد أخذت احدى بناتي الى هناك يوماً لأبيعها، وبذلك رأيت كثيراً مما وراء السور!.. انك لا تصدقني اذا قلت لك كيف يجيىء المال و يروح في البيت الذي بعته طفلتي!.. ولكن يكفي أن أقول لك ان الخدم أنفسهم في ذلك البيت يأكلون الطعام بعيدان من العاج مطعمة بالفضة، وان الجوراي أنفسهن فيه يتحلين بأقراط من حجر اليشم (حجر كريم) واللؤلؤ. بل يعلقن لآلىء بأحذيتهن، وحينما تعلو الحذاء قطعة من طين أو حين

يصيبه شق مما لا يكترث له مثلك ومثلي، فان صاحبته ترميه جانباً بما فيه من لآلىء!».

وجذب الرجل أنفاساً طويلة أخرى من غليونه، في حين فغر وانج لنج فاه من الدهشة. وقال لنفسه: «اذن.. وراء هذا السور توجد أشياء من هذا القبيل؟!».

ثم عاد الرجل للكلام فقال: «نعم، ان هناك طرقاً لمعالجة الأمر اذا زاد غنى الناس على حده!».

وكف عن الكلام فجأة، لكنه قبل أن ينصرف الى المدينة لمزاولة عمله الليلي قال لوانج لنج بغير اكتراث وكأنه لم يقل شيئاً من قبل: «حسناً!.. الى العمل ثانية!».

ولم يذق وانج لنج للنوم طعماً طول ليلته هذه، فقد بقي حتى موعد خروجه الى العمل في الصباح وهو يفكر في الذهب والفضة واللآلىء التي هناك وراء السور، الذي يرقد في جانبه الآخر وليس على جسمه غير الرداء القديم الذي ليس عنده سواه، وهو بمثابة الفراش والغطاء!. ثم قال لنفسه: «ربما يكون من الخير أن تباع الطفلة الى بيت غني وراء هذا السور حتى تلبس ثياباً فاخرة وتتزين بحلى ثمينة اذا قدر لها أن تكبر وتصير حسناء تسر أحد السادة!».

ولكنه رد على نفسه قائلا: «لو أني بعتها لما كفاني ثمناً لها وزنها ذهباً و ياقوتاً!.. واذا كان ثمنها يكفي لاعادتنا الى الارض، فمن أين لنا ما نشتري به ثوراً ومائدة وسريراً ودككاً؟!. أأبيع طفلة لكن نموت في النهاية جوعاً في أرضنا بدل أن نموت جوعاً هنا؟!. اننا لا نملك حتى البذور لكي نزرع بها الارض!».

ولم يدر ما هي الطرق التي أشار اليها جاره في حديثه معه بالامس غير أنه قال لنفسه: «هناك طرق لا بد من سلوكها حين يكن الاغنياء أغنى مما ينبغي!».

باب الأمان

طاب الربيع في قرية الاكواخ، فاستغنى أهلها عن الاستجداء، وصار النساء والاطفال يذهبون الى التلال والحقول بحثاً عن الاعشاب الصغيرة الخضراء والهندباء البرية وما اليها مما تنبت الارض، ولم يعودوا بحاجة الى أن يختطفوا الخضراوات من هنا وهناك، فهم يخرجون من أكواخهم كل يوم وفي أيدهم سلال من (البوص) أو الجريد، ومناجل يتخذونها من الصفيح أو الاحجار المدببة، و يمضون ساعات في ملء سلالهم من ذلك الرزق الذي ساقه الله اليهم مع الربيع الناضر ذي الجو المنعش البديع!

وكانت أولان وطفلاها ممن يذهبون لهذه المهمة. أما وانج لنج فبقي يمارس عمله المختار كأكثر زملائه الرجال، غير عابىء بطول النهار ولا بالمطر المفاجىء الذي يملأ الطرقات بالاوحال!

لقد كانوا في الشتاء يكدون صامتين، صابرين على الثلج والجليد تحت أقدامهم الحافية إلا من نعال من القش، ثم يعودون الى أكواخهم بعد أن ينتشر الظلام ليأكلو في صمت ما يقدم لهم من طعام تافه هو كل ما نالوه بالكد والاستجداء في يومهم، ثم ينامون متلاصقين كل أسرة في كوخها الفقير الحقير لتكسب أجسامهم شيئاً من الدفء، وليعوض النوم من قواهم المحطمة ما عجز عن تعو يضه ذلك الغذاء التافة القليل!.

أما وقد حل الربيع فقد تبدل الحال غير الحال، و بدأ الكلام ينبعث من القلوب فتنطق به الأفواه. ولا سيما في المساء إذ يجلس الجميع خارج أكواخهم في ضوء الشفق و يمضون ساعات في السمر والحديث!

وفي هذه الأمسيات اللطيفة رأى وانج لنج رجالا من جيرانه لم يكن قد رآهم في الشتاء، بل لم يكن يعرف عنهم شيئاً لأن زوجته أولان كانت تؤثر الصمت فلم تحدثه ـ مثلا ـ عن ذلك الذي يضرب زوجته، أو عن ذلك الذي أكل البرص خديه، أو الذي هو زعيم عصابة من اللصوص. ومن هنا صار وانج لنج يقف متهيباً عند طرف حلقة السمر، مكتفياً بالاصغاء الى الاحاديث التي يتبادلها أولئك الرجال!

كان يشعر دائماً بأنه ليس واحداً من هؤلاء، لأن أكثرهم لا يملكون شيئاً بينما هو يملك أرضاً تنتظر عودته. واذا كان تفكيرهم كله منصرفاً الى قطعة سمك يحلمون بأكلها، أو الى دراهم معدودة يقامرون بها، أو الى ساعة يستريحون فيها من العمل المضني بالنهار، فان تفكيره هو لم يكن في غير أرضه تلك، وفي الوسائل التي يستطيع بها أن يرجع اليها، لأنه لن يشعر بالحياة الصحيحة إلا اذا شعر بالارض تحت قدميه، وسار وراء محراث في الربيع، وحمل في يده منجلا في موسم الحصاد!

وهكذا كان يصغي الى أحاديث جيرانه من بعيد حريصاً على ألا يختلط بهم، ثم سرعان ما ينصرف عن متابعة كلامهم بالتفكير في أرضه الجيدة التي تنتج القمح وكانت لآبائه من قبله وفي أرضه الجديدة الأخرى التي تنتج الأرز واشتراها هو نفسه من آل (هوانج).

ان هؤلاء الرجال لا يتحدثون إلا عن النقود، فهم يذكرون كم درهماً دفعوه ثمناً لقدم من القماش، أو لسمكة صغيرة لا يزيد طولها على أصبع رجل، كما يذكرون ماذا يكسبونه في اليوم أجراً على العمل، وكان حديثهم ينتهي دائماً بذكر ما يفعلونه لو أنهم يملكون مثل المال الذي يكتنزه ذلك الرجل الغني الذي وراء السور.

ولم يرض وانج لنج عن أمانيهم التافهة لو صار لهم مثل ذلك المال، فقد انحصرت هذه الأماني في أنهم سيأكلون كثيراً و ينامون طو يلا، وسيختارون أطايب الطعام التي لم يتذوقوها قط من قبل، كما يقامرون في مشرب شاي كبير، و يشترون الحسان لشهواتهم، و يكفون

عن كل عمل، مثل ذلك الرجل الغني الذي يسكن وراء السور ولا يعمل مطلقاً!. وعلى هذا صاح بهم فجأة: «لو صار لي ما ذكرتم من الذهب والفضة واللآلىء لاشتريت بها أرضاً ولأنتجت منها حاصلات!».

وكان طبيعياً ألا تعجبهم وجهة نظره هذه، لأنهم ليسوا مثله ولا أرض لهم تنتظر عودتهم، فالتفتوا اليه متعجبين، وأخذوا في تأنيبه والسخرية منه، ووصفه بأنه فلاح من الشمال له ذيل خنزير ولا يدري شيئاً من حياة المدن ولا ما ينبغي عمله بالمال، ومن أجل ذلك لا يريد إلا أن يظل يكدح كالعبد الرقيق وراء ثور أو حمار!

والواقع أن كل واحد منهم كان يرى نفسه أجدر بنيل المال والثروة من وانج لنج لأنهم يعرفون ما ليس يعرفه من وجوه الانفاق والاستمتاع بمباهج الحياة!

غير أن هذا كله لم يغير من رأي وانج لنج. وحينما أوى الى فراشه في تلك الليلة كان آخر ما حدث نفسه به قبل أن ينام: «مهما يكن الأمر فاني لو أتيح لي أن أملك كل ذهب الدنيا وفضتها، لاشتريت بهما أرضاً خصبة جيدة!».

وهكذا كان وانج لنج يزداد تفكيراً واشتياقاً الى أرضه كلما تقدم الربيع، واتسع مجال الراحة والترفيه لسكان قرية الاكواخ!. وصار يرى الاشياء التي تحدث حوله بالمدينة وكأنه يرى حلماً من الأحلام، فاذا رأى أي شيء غريب لم يسأل عنه وقبله على علاته!.. الى أن صادفه ذات يوم شيء أثار فضوله وعبثاً حاول صرف ذهنه عن التفكير فيه!.. كان أناس في المدينة يوزعون أوراقاً، وقد أعطوه ورقة منها هو الذي لا يدري أي معنى للحروف التي تكتب على الورق، ومن ثم لم يفهم شيئاً مما في هذه الورقة، وان رأى مئات منها ملصقة على أبواب المدينة وعلى الاسوار والجدران، ورأى مئات أخرى منها تباع أو تمنح بلا مقابل!

وكان مما أثار فضوله وعجبه أن الذي أعطاه هذه الورقة كان يشبه تلك السيدة الاجنبية التي ركبت عربته يوماً، غير أن هذا ليس امرأة،

فهو طويل القامة، نحيل كأنه شجرة جردتها الرياح من أوراقها، وله عينان زرقاوان، ووجه ملتح، و يد حمراء يعلوها شعر، وأنف كبير بارز بعيد من خديه، كمقدم السفينة الذي يسبق جانبيها، وقد خاف وانج لنج أن يأخذ الورقة من هذا الرجل، ولكن خوفه من رفضها كان أشد، منذ رأى عيني الرجل العجيبتين وأنفه المخيف. وهكذا أخذ الورقة منه، ولما جرؤ على النظر اليها بعد ذهاب ذلك الاجنبي، رأى عليها صورة رجل أبيض البشرة معلقاً على صليب من خشب ومضى هذا الرجل متعجباً، فرآه مجرداً من الثياب إلا ما يستر خصره، وكل الدلائل تدل على أنه فارق الحياة، لأن رأسه مدلى على كتفه، ولأن عينيه مغمضتان فوق شفتيه المحاطتين بلحيته وشاربه.. وكانت هناك حروف تحت صورة هذا الرجل، ولكن وانج لنج لم يفقه لها معنى!

وحمل تلك الصورة ليلا الى كوخه وأطلع عليها أباه الشيخ، وكان هذا أيضاً لا يعرف القراءة فأخذا يتباحثان معاً في معناها، ثم انضم اليهما الغلامان، وصاح أحدهما بالآخر قائلا في دهشة وفزع: «انظر كيف يسيل الدم على جانبه؟!».

فقال له أخوه: «حقاً!.. لا بد أنه رجل شرير حتى أنه علق هكذا!».

وبقي وانج لنج أياماً وهو خائف من الصورة، يسائل نفسه: «لماذا أعطاني الاجنبي اياها؟.. أكان له يا ترى أخ عومل هذه المعاملة فهو وأسرته يريدون الانتقام له!؟.».

ولم يجد بداً من تفادي المرور بذلك الشارع الذي صادفه ذلك الاجنبي فيه.. وبعد بضعة أيام كان الجميع قد نسوا أمر تلك الورقة، فأخذتها أولان وخاطتها مع غيرها من الورق الذي تستعمله في مكافحة الحفاء!

على أنه ما كادت أيام قليلة أخرى حتى فوجىء وانج لنج بواحد من أهل المدينة أنفسهم يعطيه ورقة مماثلة. وكان هذا شاباً حسن الهندام جعل يتكلم بصوت مرتفع وهو يوزع كثيراً مثلها على ما

اجتمعوا حوله كشأنهم حيال كل شيء جديد أو غريب في الطريق. ثم لاحظ وانج لنج أن الرجل الميت في الورقة الجديدة ليس أبيض البشرة ملتحياً، ولكنه مثله هو أصفر البشرة، أسود الشعر والعينين يرتدي ثياباً خلقة زرقاء، وقد جلس فوق جثته شخص سمين ضخم الجسم، في يده سكين يطعن بها الجثة!. فحملق وانج لنج طويلا محاولا عبثاً أن يفهم شيئاً مما تعنيه الحروف المكتوبه تحتها. ثم التفت الى رجل كان واقفاً الى جواره وسأله: «ألا تعرف حرفا أو حرفين حتى يمكنك أن تنبئني بمعنى هذا الشيء المخيف؟!».

فقال له الرجل: «اسكت واستمع الى هذا المعلم الشاب فانه سيشرح لنا كل شيء!».

وهكذا أصغى وانج لنج فسمع شيئاً لم يسمعه قط من قبل، فقد كان الشاب يقول: «ان الرجل الميت هو أنتم أنفسكم. والقاتل المجرم الذي يطعنكم وأنتم موتى لا تشعرون هم الاغنياء وأصحاب رؤوس الاموال الذين يطعنونكم حتى بعد أن تموتوا. انكم فقراء تدوسكم الاقدام، وذلك لأن الاغنياء يستحوذون على كل شيء!».

وكان وانج لنج يعرف من قبل أنه فقير، ولكنه كان يلقي تبعة فقره على السماء التي لم ترض أن تنزل في موسمه، أو التي لا تفتأ تمطر حتى تغرق الارض وتتلف البذور.. أما حين كان هناك تناسب بين المطر والشمس يسمح للبذور بأن تنبت وللسيقان بأن تحمل الحبوب، فلم يكن يعد نفسه فقيراً. ومن ثم تاق لأن يسمع أكثر مما سمع، ليعلم ما شأن الاغنياء بعدم نزول المطر في موسمه.. وقد تكلم الخطيب الشاب كثيراً، لكنه لم يذكر شيئاً عن هذا الأمر، ولهذا تجرأ وانج لنج وسأله: «ما هو السبيل الى أن يجعل هؤلاء الاغنياء الظالمون السماء تمطر فأتمكن من العمل في الارض؟».

فالتفت اليه الشاب بازدراء وأجابه قائلا: «ما أجهلك!. ولكنك معذور فأنت لا تزال تحمل شعرك على رأسك وكأنه ذيل حيوان!. ان

أي انسان لا يمكنه أن يجعل السماء تمطر حين لا تريد أن تمطر، ولكن ما شأننا نحن بذلك؟. لو أن الاغنياء اقتسموا معنا ما عندهم، لما بالينا أتمطر السماء أم لا تمطر، لأننا في هذه الحالة كنا نملك جميعاً المال والطعام!».

وعلى أثر ذلك ضج المستمعون استحساناً لكلام الخطيب الشاب، ولكن وانج لنج تركهم وهو غير مقتنع!.. وأخذ يقول لنفسه: «أجل!. هناك الارض ولا شيء غير الارض!.. ان المال والطعام سينفدان، واذا لم يتناسب المطر والجفاف، فان المجاعة تعود من جديد!».

ومع هذا أخذ وانج لنج جميع الاوراق التي أعطاه الشاب أياها، فهو يعرف أن أولان في حاجة الى ورق لنعل الاحذية!.. وقد ناولها تلك الاوراق حين عاد للكوخ وهو يقول: «هاك ورقاً لنعل الاحذية». ثم عاد منذ الصباح التالي لمواصلة عمله كما كان!

على أن كثيرين من ساكني قرية الاكواخ، لم ينسوا ما سمعوه من الخطيب الشاب، وقد زادهم هذا تفكيراً فيما وراء الاسوار حيث يعيش ذلك الغني الواسع الثراء.. وبدا لهم أن هذا الحاجز البسيط الذي يحول بينهم وبين ثروة الرجل ليس يحتاج هدمه الى أكثر من ضربات قلائل، بالقوائم الخشبية التي عندهم وبها يحملون الأثقال فوق أكتافهم!. وكان هذا الشعور يقوى و يشتد في نفوسهم نتيجة للدعايات الهدامة التي يقوم بها كثيرون من أمثال ذلك الشاب!

وهكذا صارت صدور أكثر ساكني الاكواخ تغلي بالحقد والبغضاء والتفكير في تحقيق تلك الرغبات الوحشية الجامحة، ولكن وانج لنج بقي يرى و يسمع كل ذلك، فيشعر بقلق شديد، غير أنه مع هذا لم تكن له من أمنية إلا أن يشعر بأرضه تحت قدميه ثانية!

ثم رأى وانج لنج شيئاً جديداً لم يفهمه في هذه المدينة التي لا تفتأ تباغته بغرائبها!. فقد كان يجر عربته يوماً وهي خالية في أحد

الشوارع منتظراً أن يناديه أحد الناس ليركب معه، وانه لكذلك اذا به يرى جماعة من الجنود يقبضون على رجل، فلما قاوم هذا هددوه بالخناجر فاستسلم لهم صاغراً، وفيما كان وانج لنج يتأمل ذلك المنظر متعجباً رأى الجنود يمسكون رجلا آخر فثالثاً فرابعاً، وكلهم أناس عاديون يعملون بأيديهم و يكسبون من عرق جبينهم!. ثم لم يمض قليل حتى قبضوا على شخص آخر هو أقرب جيران وانج لنج اليه من ساكني الاكواخ!

و بدا له فجأة أن جميع هؤلاء الذين يقبض عليهم هكذا لا يعرفون لماذا يأخذونهم هكذا طوعاً أو كرهاً، فسارع الى وضع عر بته في عطفة واندفع الى باب دكان للماء الساخن خشية أن يقبض عليه مثلهم، وهناك اختبأ وراء القدور الضخمة حتى مر الجنود. ثم سأل صاحب الدكان عن معنى ما رآه، وكان هذا رجلا كبير السن متجعد الوجه من البخار المتصاعد حوله باستمرار من القدور النحاسية، فأجاب في غير اكتراث: «لا بد أن حر باً أخرى قد نشبت في مكان ما!.. وليس يدري أحد علام يدور كل هذا القتال الذي لا تنطفىء جذوته؟ ولكن هكذا كانت الحال منذ كنت فتى صغيراً، وهكذا ستبقى بعد أن أموت!».

وقال وانج لنج: «حسناً!. ولكن لماذا يقبضون على جاري وهو رجل مثلي لم يسمع قط بهذه الحرب؟».

فقعقع الشيخ بأغطية القدور وقال: «ان الجنود ذاهبون الى الحرب في مكان ما، وهم يحتاجون الى أناس يحملون لهم فراشهم و بنادقهم وذخيرتهم ولذا يرغمون عمالا مثلك على أداء هذا العمل. ولكن من أي بلد أنت، لأن هذا الأمر معتاد في المدينة؟».

فقال وانج لنج في دهشة: «ثم ماذا بعد ذلك؟.. أي أجر يعطى لهم؟!».

وكان الرجل بالغ الكبر وقد كف عن الاهتمام بشيء وانقطع أمله في كل شيء ما عدا قدوره، فأجاب بدون اكتراث: «ليس هناك من أجر

سوى كسرتين من الخبز اليابس كل يوم، ورشفة ماء من بركة! و يمكنك الآن أن تعود الى بيتك اذا استطاعت قدماك أن تحملاك!».

فقال وانج لنج مذعوراً: «ولكن لكل منهم أسرة؟!».

فأجاب الرجل بازدراء: «ماذا يعنيهم ذلك؟!». ثم نظر الى أقرب قدر ليرى هل غلى الماء، وانبعث بخار غطى وجهه حتى صار لا يرى وهو ينظر الى داخل القدر!. ولكنه كان رقيق القلب فقد لمح الجنود قادمين في حين لم يرهم وانج لنج من مكانه فصاح به قائلا: «احن رأسك أكثر من قبل. لقد عاد الجنود!».

فجثم وانج لنج خلف القدور، ومضى الجنود نحو الجانب الغربي، ولما بعد صوت أقدامهم خرج وانج لنج من مخبئه وأمسك عربته وجرى بها خالية الى الكوخ!

وكانت أولان قد عادت تواً من الطريق لتطهو قليلا من الخضر جمعتها، فذكر لها وهو يلهث ما حدث وكيف نجا بصعوبة، وكان يتكلم وقد تملكه فزع شديد، فقد خاف أن يذهب به الى ميادين القتال فيموت أبوه وأسرته جوعاً، في الوقت الذي يموت هو فيه بالرصاص أو غيره خلال الحرب. وبذلك لا يرى أرضه مرة أخرى. ونظر الى أولان بعينين زائغتين وقال لها: «انني الآن ميال الى بيع الجارية الصغيرة لنعود الى أرضنا في الشمال!».

ففكرت أولان قليلا ثم قالت له: «انتظر بضعة أيام فقد سمعت كلاماً عجيباً!».

ومنذ ذلك الحين صار وانج لنج لا يخرج في ضوء النهار، وقد بعث بابنه الأكبر ليعيد العربة (الريشكا) الى المحل الذي استأجرها منه، ثم انتظر حتى أرخى الليل سدوله فذهب الى البيوت التجارية وصار طول الليل يجر عربات محملة بالصناديق، وكانت كل عربة منها يجرها اثنا عشر رجلا بجهد وعناء!. ومع هذا كان أجره لا يزيد على نصف ما كان

يكتسبه في عمله الاول، برغم أن تلك الصناديق كانت مملوءة بالحرير والقطن والطباق ذي الرائحة الزكية التي تفوح من خلال الخشب!.. وكانت هناك أيضاً براميل ضخمة مملوءة بالزيت والنبيذ! .

وبقي يواصل عمله الجديد، فيسهر فيه طول الليل وهو عاري الجسد يتصبب منه العرق، وقدماه الحافيتان تطآن الاحجار التي رصفت بها الشوارع التي بللتها رطوبة الليل، وكذلك كان كل زملائه الذين يعمل معهم، بل كذلك كان الغلام الذي يحمل مشعلا ليريهم الطريق فتلمع أجسادهم ووجوههم وأحجار الشوارع كلها في ضوء ذلك المشعل!

وكان يعود الى كوخه قبيل طلوع الفجر، وهو يلهث من التعب والجوع ثم يأوي الى فراشه و ينام. غير أنه كان طول النهار، وفي الوقت الذي يبحث فيه الجنود عن عمال في الطرق، ينام آمناً مطمئناً خلف كومة من القش جمعتها أولان وأعدتها لتكون وقاء له!

ولم يدر وانج لنج أي شيء عما هناك من معارك يجمع لها الجنود. ولكن قلقه كان يشتد يوماً بعد يوم، بينما العربات التي تجرها الخيل تحمل طول النهار أناساً أغنياء وأمتعتهم من الثياب الغالية وأغطية السرر الحريرية وتقل معهم نساءهم الحسان وجواهرهن وحليهن، قاصدين الى طرف النهر حيث تنقلهم السفن الى أماكن أخرى، وكان آخرون يقصدون الى حيث تأتي العربات النارية وتذهب!. ولم يكن وانج لنج يخرج الى الطرق نهاراً، ولكن ولديه كانا يعودان في المساء و يقولان في دهشة: «لقد رأينا رجلا وصفه كذا، وآخر شكله كذا... رأينا رجلا ضخم الجسم كأنه اله في معبد، يرتدي ثياباً من الحرير الاصفر وفي أصابعه خاتم كبير من الذهب يتوسطه حجر أخضر كأنه قطعة من الزجاج وكان بدنه يلمع من الزيت والطعام!».

أو يصيح الولد الأكبر قائلا: «كذلك رأينا صناديق هائلة، ولما سألنا ماذا بها علمنا أنها تحتوي على ذهب وفضة، وأن الاغنياء لا يمكنهم

أن يحملوا معهم كل ما يملكون ولذا ستصير لنا يوماً ما.. فما معنى هذا يا أبتاه؟!».

وهنا يقول وانج لنج: «من أين لي أن أعرف ما يعنيه شخص متبطل من أهالي المدينة؟».

وعاد الولد الأكبر فقال: «وددت لو ذهبنا الآن لنستحوذ على ذلك الاشياء ما دامت ستصبح لنا!.. انني لم أذق أي كعكة عليها سمسم!».

وكأنما أفاق الجد من ذهوله حين سمع ذلك فقال وكأنه يحدث نفسه:

«حين كنا نجني محصولا جيداً كنا نأكل مثل ذلك الكعك في عيد الخريف، وكنا عند دراس السمسم نحتفظ بجانب منه قبل بيعه لنصنع به مثل ذلك الكعك!».

وتذكر وانج لنج ذلك الكعك الذي صنعته أولان في عيد رأس السنة، من دقيق الأرز وشحم الخنزير والسكر، فسال لعابه واشتد اشتياقه الى أشياء الزمان الذي مضى. وغمغم قائلا: «لو أننا استطعنا العودة الى الارض!».

ثم بدا له فجأة أن يمكث يوماً آخر في ذلك الكوخ الكريه الذي لم يكن من السعة بحيث يمد قامته خلف كومة القش، وأنه لن يستطيع أن يكدح ليلة أخرى وجسده منحن بحبل يمزق لحمه، ليجر الاثقال فوق أحجار الشوارع المرصوفة. لقد صار يحسب كل حجر عدواً لدوداً يتربص به، وكان يعرف كل شق بينها ليتفادى الحجر. وفي الليالي المظلمة وبخاصة على تلك الاحجار التي تعترض طريقه، و يخيل اليه أنها تتعلق وتتشبث بعجلات العربة الفظيعة التي يجرها مع رفاقه!

وصاح فجأة قائلا: «آه أين أرضنا الجميلة؟». ثم خر على الارض باكياً فارتاع ولداه، ونظر اليه أبوه الشيخ واجماً، وقالت أولان بهدوئها

المعتاد: «لنصبر قليلا بعد أن صبرنا كثيراً.. ان شيئاً ما لا بد أن يحدث قريباً.. هكذا يقول الناس الآن في كل مكان!».

وكان وانج لنج حين يرقد مختبئاً في كوخه يسمع وقع أقدام الجنود وهم يسيرون قاصدين الى مناطق القتال. و ينظر أحياناً من ثقب بحصير الكوخ فيرى ألوفاً من الجنود يمشون صفوفاً. وكان وهو يجر العربات ليلا يلمح وجوههم على ضوء المشعل وسط الظلام وهم يمرون به. ولكنه لم يجرؤ على أن يسأل عن أي شيء يتعلق بهم، وانما ظل يجر أثقاله و يأكل أرزه على عجل، ثم ينام نهاره مختبئاً في الكوخ وراء كومة من القش!

وفي تلك الايام لم يكن أحد يتحدث مع أحد، بل كان الخوف يسود المدينة، وكل انسان يسرع في أداء ما ينبغي عمله ثم يأوي الى بيته يغلق بابه وراءه!

وقد انتهت الاحاديث التي كانت تجري بين الاكواخ في ضوء الشفق. وخلت دكاكين الطعام في الأسواق، وطوت حوانيت الاقمشة أعلامها اللامعة، وأغلقت واجهاتها حتى أن المار ظهراً بالمدينة كان يحسب أهلها نائمين!

وجرى الهمس هنا وهناك في أنحاء المدينة بأن العدو يقترب، ففزع كل من كان يملك شيئاً. ولكن وانج لنج لم يكن خائفاً، كذلك لم يخف أنداده من ساكني الاكواخ، فقد كانوا لا يعرفون من هو هذا العدو، ولم يكن لديهم ما يخشون ضياعه، حتى حياتهم نفسها لم يكونوا يخافون عليها!. واذن فليقترب ذلك العدو ما شاء فان حالهم لن تكون أسوأ مما هي عليه الآن!

وأخيراً، قال مديرو المحال التجارية للعمال الذين يجرون العربات بأنهم لم يعودوا في حاجة الى خدماتهم لأنه لم يعد في متاجرهم من يشتري أو يبيع، فصار وانج لنج يمكث في كوخه ليل نهار، وتعطل عن

العمل. وكان في البداية مسروراً بذلك لأن جسمه كان في حاجة شديدة الى الراحة، وصار ينام نوماً عميقاً، غير أنه سرعان ما أنفق كل درهم فائض لديه، وعاد يسأل في يأس عما يفعل. وكأنما لم تكف المصائب التي حلت به، فأغلقت المطاعم الشعبية أبوابها لأن الموسرين الذين كانوا يتبرعون للفقراء قد أووا الى بيوتهم وأوصدوا أبوابها عليهم، فلم يبق ثمة طعام للفقراء ولا عمل، ولم يكن يمر في الشوارع أحد يستجدونه صدقة!

وعندئذ حمل طفلته بين ذراعيه وجلس بها في الكوخ ونظر اليها وقال بحنان: «أيتها البلهاء الصغيرة: أتحبين أن تذهبي الى بيت كبير يتوافر فيه الطعام والشراب وتجدين فيه ثوباً كاملا يكسو بدنك!».

فابتسمت له الطفلة من غير أن تفقه شيئاً مما قاله لها، ورفعت يدها الصغيرة لتتحسس بها عينيه اللتين تنظران اليها، فلم يقدر أن يحتمل ذلك وصاح بزوجته قائلا:

ـ خبريني هل كانوا يضربونك في ذلك البيت الكبير؟!

فأجابته بجمود وكآبة: «لقد كانوا يضربونني كل يوم!».

ثم صاح بها ثانية: «أكانوا يضربونك بحزام من قماش أم بالبوص أم بحبل؟».

فأجابت باللهجة نفسها: «كانوا يضربونني بسوط من الجلد يعلقونه فوق حائط المطبخ!».

وكان يعرف أنها أدركت ما يدور بخاطره ولكنه أدلى بآخر أمل لديه وقال: «ان طفلتنا هذه جميلة حتى الآن في صغرها. خبريني: هل كانت الجواري الحسان يضربن أيضاً؟». فأجابت بغير اكتراث: «أجل.. وكان يضربونهن أو ينقلونهن الى فراش رجل منهم كما يحلو لهم، وكان الأسياد الشبان يتنازعون هذه الجارية أو تلك، و يقول أحدهم للآخر (خذها أنت الليلة وهي لي غداً). حتى اذا ضجروا من

احداهن تبادلها الخدم بعدهم، كل ذلك قبل أن تترك الجارية دور الطفولة ما دامت حسناء!».

فتأوه وانج لنج ألماً، وضم طفلته الى صدره وأخذ يقول لها مرة بعد أخرى: «آه أيتها البلهاء الصغيرة!». ولكنه في قرارة قلبه كان يبكي كما يبكي الرجل اذا كان وسط تيار جارف ولا يستطيع أن يقف ليفكر، وصار يقول لنفسه: «ليس هناك أية طريقة أخرى!».

وفجأة دوى خارج الكوخ صوت كصوت الرعد وخر كل من في الاكواخ على الارض مخفين وجوههم فقد بدا كأن ذلك الصوت سيسحق الجميع. وغطى وانج لنج وجه طفلته بيده، غير عالم بما قد يظهر وسط تلك الضجة بينما صاح الشيخ قائلا: «انني لم أسمع مثل هذا الصوت طول حياتي قط!».

ولكن أولان رفعت رأسها وقالت: «ان ما سمعت به قد بدأ يحدث!.. ان العدو قد اقتحم أبواب المدينة!».

وقبل أن يعلق أحد على قولها سمع صياح في الطريق كان في البداية ضعيفاً كصوت ريح عاصفة من بعيد ثم اقترب وازداد ارتفاعاً حتى امتلأت به الشوارع! وعندئذ جلس وانج لنج معتدلا على أرض الكوخ، وتولاه فزع شديد قب له شعر رأسه، وجلس كل واحد معتدلا في مكانه، وصار ينظر الى غيره، وكانوا جميعاً ينتظرون شيئاً لا يعرفون كنهه. ولكن لم يكن هناك سوى صوت أناس يجتمعون وكل واحد منهم يصيح!

ثم سمعوا من وراء السور، صوت باب كبير قريب يفتح عنوة، فجأة ظهر بفتحة الكوخ وجه رجل تبين فيه وانج لنج جاره الذي حدثه يوماً عند الغروب وهو يدخن غليونه، وصاح قائلا: «كيف تمكثون هنا؟. لقد دقت الساعة وانفتحت لنا أبواب بيت الرجل الغني!».

وكأنما حرك أولان سحر ساحر فقفزت الى فتحة الكوخ وانطلقت في

أثر ذلك الجار ثم نهض وانج لنج في بطء وذهول وغادر الكوخ بعد أن أجلس الطفلة على الارض، وهناك عند الابواب الحديدية التي لبيت الرجل الغني كانت تتدفق جموع من الفقراء متدافعين صائحين معاً تلك الصيحات التي كانت قد طرقت أذني وانج لنج في كوخه، وأدرك أن هذه الجموع من الرجال والنساء الجائعين المقيدين قد أصبحوا الآن أحراراً يفعلون ما يشاؤون.

وسرعان ما فتحت تلك الابواب العظيمة واندفعت الجموع الى داخل البيت، قدماً فوق قدم، وجسماً لاصقاً بجسم حتى كأنهم كتلة واحدة.

واندفع وسط الزحام من غرفة الى أخرى حتى وصل الى الغرف الداخلية من غير أن يبصر أحداً من أهل الدار، وخيل اليه أنه في قصر مات كل أهليه ولكن الطعام كان لا يزال على المائدة في بعض الغرف، وكانت النار لا تزال مشتعلة في المطابخ. ثم اندفعت الجموع الثائرة مخترقة الغرف الأمامية التي يسكنها الخدم والعبيد وتقع بينها المطابخ، الى الغرف الداخلية حيث السرر الفاخرة التي للسادة والسيدات، وحيث صناديقهم الملونة التي تحوي ثيابهم الحريرية الغالية، وحيث الموائد والكراسي المحفورة والصور التي زينت بها الجدران. وعلى هذه الكنوز انقضت الجموع هاجمين على كل صندوق وخاطفين كل شيء من بعضهم البعض، ومن ثم كانت الثياب والفرش والستائر تنتقل من يد الى يد، وكل منهم ينتزع من غيره ما معه، من غير أن ينظر أحد ما في يده نفسه!

غير أن وانج لنج وسط ذلك الاضطراب لم يأخذ شيئاً، وكان طول حياته الماضية لم يستحل لنفسه ما يملكه غيره، فلم يكن من السهل عليه أن يفعل ذلك أول الأمر، وترك نفسه لتيار الزحام يدفعه هنا وهناك، حتى اذا أفاق من ذهوله أخذ يشق طريقه في اصرار حتى بلغ أقصى الغرف الداخلية حيث تسكن السيدات، وكان الباب الخلفي

مفتوحاً على مصراعيه، ذلك الباب الذي يعده الاغنياء منذ قرون لكي يهربوا منه في مثل هذه الظروف، ولذا يسمى «باب الأمان». ولا ريب أن أهل هذه الدار قد فروا جميعاً هذا اليوم وأنهم مختبئون هنا وهناك في الطرق حيث يستمعون الى ذلك الصياح في دارهم. غير أن رجلا واحداً منهم لم يستطع الفرار أما لبدانته أو لأنه كان مستغرقاً في نوم عميق، وقد باغت وانج لنج هذا الرجل في غرفة داخلية خالية كانت الجماهير قد دخلتها وخرجت منها ثانية، وكان الرجل مختبئاً في مكان خفي بها ثم زحف خارجاً من مخبئه وهو يحسب أن أحداً لم يعد بالغرفة سواه وفي امكانه أن يهرب!

كان الرجل سميناً ضخم الجسم، لا بالكبير السن ولا بالصغير، ولا بد أنه كان قد نام عاري الجسم في سريره ـ مع امرأة حسناء بلا ريب ـ لأن جسمه العاري كان ملتحفاً بثوب من الحرير القرمزي. وكانت طيات كبيرة من لحمه تنثني تحت ثدييه وفوق بطنه، وكانت عيناه وسط خديه المكتنزين باللحم، تبدوان صغيرتين غائرتين كعيني خنزير. ولما أبصر وانج لنج أمامه سرت في جسمه رعدة وصاح كأنه طعن بسكين، فتعجب وانج لنج وهو الأعزل من كل سلاح وكان يضحك من منظره، ولكن ذلك الرجل السمين خر راكعاً بين يديه وصار يضرب رأسه بالارض ويصيح قائلا: «أبق على حياتي.. أبق على حياتي.. لا تقتلني.. عندي مال لك مال كثير!».

وكانت كلمة «مال» هذه هي التي أوضحت الموقف لوانج لنج. وانه لفي حاجة شديدة الى المال، فالمال يعني انقاذ ابنته وعودتهم الى الأرض! وعندئذ صاح بالرجل بصوت أجش لم يألفه هو نفسه: «أعطني المال اذن!».

فنهض الرجل وهو لا يزال ينتحب وتحسس جيباً في الثوب الذي التحف به، وأخرج يديه الصفراوين مملوءتين بالذهب، فبسط وانج

لنج طرف يديه وتلقاه منه. ثم عاد يصيح بذلك الصوت الذي استغربه هو نفسه كأنه صوت شخص آخر سواه: «أعطني مزيداً منه!».

ودس الرجل يديه مرة أخرى في جيوبه وأخرجها مملوءتين بالذهب وهو يقول: «الآن لم يبق عندي شيء سوى حياتي التاعسة!». وأخذ يبكي فتنحدر الدموع كالزيت على خديه المكتنزين.

فنظر اليه وانج لنج، وشعر فجأة ببغض له كما لم يبغض أحداً في حياته وصاح به قائلا: «اغرب عن وجهي وإلا قتلتك كما تقتل الدودة السمينة!».

فجرى الرجل كما يجري الكلب المذعور وخرج لا يلوي على شيء!

وعندئذ صار وانج لنج وحده مع الذهب!. ولم يقف ليعده بل دسه في صدره وخرج من باب الأمان، وسار في الشوارع الخلفية حتى وصل الى كوخه، واحتضن الذهب الذي كان لا يزال دافئاً من أثر جسم الرجل الآخر، ثم قال لنفسه: «الآن يمكننا العودة الى الأرض. غداً نعود الى الأرض!».

أرض الجواهر

لم تمض أيام على حصول وانج لنج على تلك الحفنة من الذهب حتى كان قد عاد وأسرته الى بيته وأرضه في الشمال، وكان قد اشترى بثلاث قطع ذهبية بذوراً جيدة من الجنوب، وحبو باً من القمح والأرز، وكانت كلها بذوراً لم يسبق له أن زرع مثلها، كما اشترى بخمس قطع ذهبية أخرى ثوراً رآه يحرث أرضاً لصاحبه في القرية المجاورة لقريته، فوقف ومعه أبوه الشيخ وأطفاله وامرأته يساومون الرجل في شرائه!

وقد استرعت التفات وانج لنج ضخامة عنق الثور والقوة التي يجر بها المحراث، لكنه قال لصاحبه: «هذا ثور لا قيمة له!.. لكني لا أملك ماشية وأنا في حاجة شديدة الى أي ثور، فماذا تريد ثمناً له؟».

فأجاب الرجل: «اني أوثر أن أبيع زوجتي على أن أبيع هذا الثور الذي لا تزيد سنه على ثلاث سنوات، فهو في عنفوان قوته!». ثم واصل الحرث ولم يرد أن يقف ليتحدث مع وانج لنج. ولكن هذا رأى ألا بد له من أن يحصل على هذا الثور بالذات، وقال لأولان ولأبيه: «ما رأيكما في هذا الثور؟».

فنظر الشيخ اليه وقال: «يبدو أنه ثور مخصي جيداً!».

وقالت أولان: «انه أكبر بسنة مما زعمه الرجل!».

ولم يقل وانج لنج أي شيء، لأنه كان قد اعتزم شراء هذا الثور لقوته في جر المحراث ولجلده الناعم ولعينيه الداكنتين. انه بهذا الثور يستطيع أن يحرث حقوله وأن يزرعها، وبهذا الثور مربوطاً الى

الطاحونة يمكنه أن يطحن الحبوب. وعلى هذا صاح بالرجل قائلا له: «سأعطيك ثمناً لهذا الثور يكفي لشراء أكثر من ثور آخر!».

وأخيراً بعد طول مساومة وشجار وتظاهر بالعدول عن البيع والشراء، رضي الرجل أن يبيع ثوره بما يوازي قيمة ثورين، فنقده وانج لنج الثمن على الفور، ثم فك رباط الثور وقاده مربوطاً بحبل من أنفه، ومضى هو وأسرته في طريقهم الى بيتهم المهجور والدنيا لا تسعهم من السرور!

ولما وصلوا الى البيت وجدوا الباب قد نزع وأعلى السقف قد زال وذهب كذلك ما تركوه من فؤوس ومناجل وما اليها، ولم يبق سوى عروق السقف والجدران، ولكن وانج لنج لم يعبأ بذلك كثيراً بعد المفاجأة الاولى، وذهب الى البلدة فاشترى محراثاً جيداً من الخشب المتين وفأسين ومنجلين وحصراً يغطي بها السقف ريثما يأتي بغاب جديد فيتخذ منه سقفاً للبيت.

وفي المساء وقف بباب بيته ونظر الى الارض، أرضه التي له، وهي مفككة ناضرة بعد زمهرير الشتاء، تنتظر أن تزرع. وكان ذلك في ابان الربيع، وقد أخذت الضفادع تنق في البركة القريبة الغور. وكان (البوص) عند ركن البيت يتمايل تحت نسيم الليل، وعلى ضوء الشفق تلوح مجموعات الأشجار عند طرف الحقل القريب. فشعر بأنه لم يعد ينقصه أي شيء ورغب عن رؤية أي مخلوق في القرية ما دام قد رأى أرضه، فهي وحدها كل ما كان يريد أن يراه!

ولم يذهب الى أي بيت بالقرية، ولما زاره أولئك الذين نجوا بحياتهم من المجاعة، قابلهم مقابلة جافة، وصاح بهم قائلا: «أيكم نزع باب بيتي؟. وأيكم سرق فأسي ومنجلي،وأيكم حرق السقف في هذا الفرن؟».

وهزوا جميعاً رؤوسهم نفياً واستنكاراً وقال أحدهم منهم: «عمك هو الذي فعل ذلك!».

وقال ثان: «من أين لنا أن نعرف وعصابات اللصوص ترتاد هذه الناحية والمجاعة والحرب تسودان البلاد؟. ومن الذي يستطيع أن يقول أن هذا الشخص أو ذاك قد سرق؟ ان الجوع يحيل الانسان لصاً!».

ثم جاء تشنج جاره الأدنى، يدب من بيته ليراه وقال له: «في خلال الشتاء كانت عصابات من اللصوص تسكن بيتك، وتنقض منه على القرية والمدينة، كلما استطاعت، و يقال أن عمك يعرف عنها أكثر مما ينبغي لرجل شريف أن يعرف... ولكن من الذي يعرف مدى الصدق في ذلك؟ اني لا أجرؤ على أن أتهم أي انسان!».

وكان هذا الرجل قد صار أشبه بالظل إذ التصق جلده بعظامه ونحل بدنه وشاب شعره مع أنه لم يبلغ الخامسة والأربعين بعد من عمره. ونظر اليه وانج لنج هنيهة ثم قال له: «لقد أصابك أشد مما أصابنا. وماذا كنت تأكل في وقت المجاعة؟».

فتأوه الشيخ وقال: «فضلات الشوارع كما تأكل الكلاب، إذ كنا نستجدي الناس في المدينة، بل أكلنا كذلك الكلاب الميته. ومرة قبل أن تموت زوجتي طهت حساء بلحم لم أجرؤ أن أسألها عن كنهه، ولكنني كنت موقناً انها لا تقدر أن تقتل، فاذا أكلنا فانما كان من لحم وجدته. ثم ماتت إذ كانت قوة احتمالها أقل من قوتي، وبعد موتها أعطيت ابنتنا الى جندي لأني لم استطع أن أراها تموت جوعاً!».

وسكت تشنج قليلا ثم قال: «لو كانت عندي بذور لأمكنني أن أعود الى الزرع. ولكن ليس عندي شيء!».

فصاح به وانج لنج بخشونة: «تعال هنا!». ثم سحبه من يده الى داخل البيت وطلب منه [illegible] يبسط طرف ثوبه الخلق وصب فيه مقداراً من البذور التي [illegible] الحبوب. وكانت حبوب قمح وأرز، وبذور كرنب، ثم قال له:

ـ غدا اني [illegible] بذوري القوي!

فغلب تشنج البكاء، وسارع اليه وانج لنج فمسح دموعه وصاح به متظاهراً بالغضب: «أتحسب أني نسيت أنك أعطيتني تلك القبضة من الفول؟».

ولكن تشنج لم يستطع الاجابة وانصرف بما في حجره من البذور هو ما زال يبكي تأثراً بكرم جاره القديم!

وفرح وانج لنج إذ علم أن عمه قد غادر القرية: ولا يدري أحد أذهب الى المدينة أم هاجر الى جهات نائية مع زوجته وولده، إذ كان قد باع كل بناته!

وهكذا عاد وانج لنج الى انهماكه في خدمة الارض، وصار يستكثر الساعات التي يضطر الى قضائها بالبيت لتناول الطعام والنوم، بل كان يؤثر أن يأخذ رغيفه مع قطعة ثوم الى الحقل و يأكل وهو واقف يخطط الارض و يفكر. واذا غلبه التعب تمدد في أخدود هناك ونام!

وكذلك عادت أولان سيرتها الاولى في خدمة البيت، فربطت بيديها الحصر الى عروق السقف، وأخذت طيناً من الحقول ومزجته بالماء وأصلحت به جدران المنزل، وأعادت بناء الفرن، وملأت الثقوب التي أحدثها المطر في الارض، ثم ذهبت الى المدينة يوماً مع وانج لنج واشتريا سرراً ومنضدة وستة كراس وقدراً كبيرة من الحديد، واشتريا كذلك وعاء شاي من الخزف الاحمر رسمت عليه بالحبر الأسود صورة زهرة، واشتريا معه ست سلطانيات. أخيراً ذهبا الى دكان بخور واشتريا صورة ذهبية لاله الثروة ليعلقاها فوق المائدة في الغرفة الوسطى، وابتاعا أيضاً وعاء من الزنك للبخور وشمعتين حمراوين ليوقداهما أمام الاله وشموعاً حمراء كثيفة من دهن البقر. وذهبا بهذه الاشياء الى الالهين الصغيرين بالمعبد، في عودتهما الى البيت ونظرا اليهما وكان منظرهما يدعو الى الشفقة فقد كانا عاريي الجسدين إلا من بعض ورق ممزق لاصق بهما، وكان المطر قد أزال ملامح وجهيهما، ولم يعن بهما أحد في تلك السنة الرهيبة. ونظر اليهما وانج لنج عابساً شامتاً وقال

لهما بصوت مرتفع وكأنه يخاطب طفلا يعاقبه: «هذا جراء الآلهة التي تعمل شراً للبشر!».

على أنه حين عاد البيت كما كان، وصارت الشموع تضيء بلونها الأحمر، وصف أبريق الشاي وآنيته على المائدة، ووضعت السرر في أماكنها، وصار للبيت باب جديد، شعر فجأة بالخوف من هذه السعادة. ثم حملت أولان من جديد، وعاد الاطفال يلعبون على عتبة الباب، وعاد الشيخ يجلس الى الجار الجنوبي وينعس ويبتسم في نعاسه. وفي الحقول بدأ الأرز المزروع ينبت، وبدأ الفول يرفع رأسه، وكان لا تزال هناك بقية من الذهب تكفي لاطعامهم حتى يحين موعد الحصاد اذا اقتصدوا في الأكل. ونظر وانج لنج الى السماء الزرقاء فوقه والى السحب البيضاء التي تمر تحتها، وتبين التناسب بين الجفاف والمطر فوق حقوله كما لو كان فوق لحمه، ثم غمغم قائلا: «يجب أن أضع بعض البخور أمام الالهين في المعبد الصغير. انهما على أي حال لهما سلطان على الارض!».

لحظ وانج لنج أن أولان زوجته تخفي كتلة يابسة بحجم اليد في صدرها، فسألها: «ما هذا الذي في صدرك؟». ثم تحسس تلك الكتلة بيده فأدرك أنها كيس من الاكياس التي تحفظ بها النقود، وفزعت هي أول الأمر وارتدت الى الوراء في عنف، غير أنها عادت فاستسلمت أمام الأمر الواقع ثم أخرجت الكيس وقالت له:

ـ تستطيع أن تفتحه اذا كان لا بد لك من معرفة ما فيه!

وما فتح ذلك الكيس وأفرغ ما فيه حتى روعه ما رأى، فقد تساقطت منه حلي وجواهر لم ير مثلها قط في حياته، ولم يدر لأحجارها الكريمة أسماء، غير أنه لما وضعها في كفه ورأى بريقها الخاطف للأبصار، أدرك أنها كنز لا يقدر له ثمن. وسألها ذاهلا: «من أين حصلت على هذه الجواهر؟».

فأجابت همساً: «كانت في بيت الرجل الغني في الجنوب!.. لا بد أنها كانت جواهر محظية من محظياته... وقد اهتديت الى مخبئها في حائط هناك، فوقفت بجانبه حتى انصرفت عنه الجموع، ثم أخرجت الجواهر وأخفيتها في صدري وغادرت البيت قبل أن يراني أحد!».

فسألها متعجباً: «لكن كيف فطنت الى المخبأ الذي كانت فيه؟».

فقالت: «لقد عشت قبل ذلك في البيت الكبير كما تعلم، وجميع الأغنياء في خوف دائم على جواهرهم، وقد رأيت لصوصاً دهموا البيت الكبير يوماً في سنة جدباء، فكان الجواري والخليلات ومعهن السيدة الكبيرة نفسها يجرين هنا وهناك ومع كل منهن كنزها من الجواهر والمال لتخفيه في المخبأ الذي أعدته لمثل ذلك الظرف، ومن هنا عرفت موضع هذا الكنز!».

وبقيا بعض الوقت ينظران الى الجواهر المنثورة أمامهما صامتين، ثم قال وانج لنج هامساً:

ان كنزاً مثل هذا لا يمكن الاحتفاظ به، بل يجب أن يباع و يشترى بثمنه أرض زراعية لأنها الشيء الوحيد الذي لا يضيع!. ولو أن أحداً علم بأننا نملك هذا الكنز لمتنا غداً ولسرق أحد اللصوص هذه الجواهر. ولهذا يجب أن نشتري بها الارض في هذا اليوم نفسه ولو لم يوافني النوم!».

ثم أعاد الجواهر الى الكيس الذي كانت فيه وربطه بخيط ربطاً محكماً، ووضعه في جيبه الداخلي فوق صدره. وحانت منه نظرة الى وجه امرأته وهي جالسة القرفصاء بجانب السرير، فرأى وجهها الجامد الذي لا يعبر عن شيء قد امتد الى الأمام وبان الاشتياق على شفتيها، فسألها متعجباً من أمرها: «ماذا هنالك؟».

فقالت: «أتنوي أن تبيعها كلها؟».

فقال: «ولم لا؟.. لماذا نحتفظ بجواهر كهذه في بيت من طين؟».

فقالت باهتمام: «وددت لو أبقيت على قطعتين منها لنفسي!».

فتعجب من ذلك وسألها: «ولم ذلك؟». فأجابت: «بودي لو احتفظت بقطعتين صغيرتين وهما اللؤلؤتان البيضاوان الصغيرتان!.. ولست أريد الاحتفاظ بهما، أعني أنني لن أستعملهما ولن يراهما أحد!».

وأرخت عينيها وأخذت تلوي بيدها قطعة من غطاء السرير، وتنتظر صابرة ما يقول زوجها. فأخذ وانج لنج يستشف مكنون صدر هذه المخلوقة الغبية المخلصة التي ظلت طول حياتها تكد وتكدح لغيرها ومكثت سنين ترى النساء في البيت الكبير يقتنين جواهر لا يتاح لها حتى أن تلمسها!. ثم قالت وكأنها تحدث نفسها: «بودي لو استطعت وضع اللؤلؤتين في كفي أحياناً!».

وازاء ذلك شعر وانج لنج بالرثاء لزوجته، فسحب الجواهر من صدره وفك كيسها الصغير وناولها اياها صامتاً، تبحث بينها حتى وجدت اللؤلؤتين الصغيرتين فأخذتهما وأعادت له الكيس وبه الجواهر الأخرى. ثم مزقت قطعة من طرف ثوبها ولفت اللؤلؤتين وخبأتهما بين ثدييها وتنهدت بعد ذلك دلالة على الارتياح والاطمئنان!

ولم يرها وانج لنج بعد ذلك تخرجهما من مخبئهما في صدرها، ولم يعودوا الى الكلام عنهما قط!. أما الجواهر الأخرى فأخذ يفكر في طريقة التصرف فيها، وأخيراً قرر أن يذهب الى البيت الكبير ليرى هل هناك أرض أخرى للبيع!. وأدهشه أن وجد الباب الخارجي للبيت مغلقاً، ولا أثر لذلك البواب ذي الشعرات الثلاث في خده الذي كان يزدري كل من لا يتاح لهم مثله دخول بيت آل هوانج!.. كما وجد الأبواب الكبيرة الأخرى للبيت كلها مغلقة، فأخذ يقرعها بقبضة يده ولكن أحداً لم يجبه، فكاد يرجع يائساً لولا أن رآه بعض المارة فقالوا له: «يجب أن تقرع الباب طويلا، واذا كان السيد الشيخ مستيقظاً فانه

يأتي اليك، أما جاريته الباقية فهي لا تكلف نفسها عناء فتح الباب إلا إذا كانت لها مصلحة خاصة!».

وفيما هو يفكر متعجباً في هذا الأمر، سمع وقع قدمين تهبطان الدرج في بطء، ثم سمع صوت المزلاجين الموضوعين وراء الباب، وصوتاً مرتعشاً يقول: «من هناك؟».

فرفع صوته قائلا: «أنا وانج لنج!».

وعاد الصوت المرتعش يقول: «ومن يكون هذا الوانج لنج؟!». فأدرك هذا أن الذي وراء الباب هو السيد الشيخ نفسه لأنه كان يشتم و يسب بصورة تدل على أنه اعتاد ذلك مع الخدم والحشم فأجاب وانج لنج بلهجة أكثر أدباً من قبل!

ـ سيدي.. لقد جئت من أجل عمل بسيط ولم أرد أن أزعج فخامتك ولكن أردت أن أقابل وكيلك!

فأجاب السيد الشيخ من غير أن يوسع الفتحة التي بالباب:

ولم يدر وانج لنج ما يفعل بعد ذلك، فقد كان محالا أن يكلم ذلك السيد في شراء أرض يملكها من غير وسيط بينهما، ولكن الجواهر كانت معلقة في صدره تكاد تحرقه، وقد رام أن يخلص منها بأقرب وقت مستطاع، والأهم من ذلك: اشتياقه الى حيازة أرض جديدة، فقد كانت لديه تلك البذور التي اشتراها من الجنوب وهي تكفي لزرع مساحة من الارض تبلغ ضعف مساحة أرضه، ثم أنه كان تواقاً الى شراء أرض آل هوانج بالذات.

ثم قال بتردد: «لقد جئت بشأن قليل من النقود!».

وما أن سمع السيد الشيخ ذلك حتى فتح الباب وقال بصوت مرتفع: «لم يعد في هذا البيت نقود فان وكيلي لعن الله أمه وأم أمه، قد أخذ كل ما كان عندي، ولا يمكن سداد ديون الآن!».

فقال وانج لنج: «انني لم أجىء من أجل ذلك يا سيدي.. لقد جئت لأدفع أنا مالا!».

وعندئذ سمع وانج لنج صيحة أخرى، ثم ظهر وجه امرأة فجأة وقالت: «هذا شيء لم أسمع به منذ عهد بعيد!».

ونظر وانج لنج الى هذه المرأة، فوجدها حسناء بادية الدهاء، ثم دعته الى الدخول، وأغلقت الباب وراءه، فوقف ينظر الى السيد الكبير في شيء من الرهبة، وإن كان هذا يبدو في حال يرثى لها يغاير ما سمع عنه كل المغايرة، فهو يرتدي ثوباً قذراً بالياً من الحرير، وقد انحل جسمه وتدلى جلده تحت طيات لحمه، وبدا أنه لم يغتسل ولم يحلق لحيته، كما كانت يداه الصفراوان ترتعشان وهو يمر بهما على ذقنه. ولا شك أنه بحالته الراهنة هذه أقل وجاهة ووقاراً من أبيه الشيخ المسكين!

أما المرأة فكانت نظيفة الى حد كبير. وكانت واضحة الملامح، لها وجه جميل يتوسطه أنف صغير وتعلوه عينان سوداوان تلمعان، وكأن خداها وشفتاها في حمرة الورد، وشعرها الأسود يلمع كالمرآة، ولكن لهجة كلامها تدل على أنها ليست من سيدات الأسرة بل هي جارية من جواريها!

ولم يكن في البيت كله أحد عدا السيد الكبير وهذه الجارية الحسناء، ثم قالت هذه بصوت حاد: «ماذا عن النقود؟».

وتردد وانج لنج في الاجابة، كأنه يخشى أن يتكلم بحرية أمام السيد الكبير، ولحظت المرأة ذلك وهي التي لا يفوتها شيء، فقالت للسيد بحدة: «اغرب عنا!». وسرعان ما ابتعد الشيخ صامتاً وهو يسعل!

على أن وانج لنج حين وجد نفسه مع هذه المرأة لم يدر ماذا يقول أو يفعل، فقد أذهله تصرفها مع السيد على هذا النحو، ونظر الى الغرفة

المجاورة فلم ير بها أحداً كذلك، وانما رأى بها أكداساً من الفضلات والقذارة، مما يدل على أن أرضها لم تكنس منذ وقت بعيد!

ثم أفاق من ذهوله على صوتها وهي تقول له: «والآن أيها الغبي ما الذي جاء بك؟.. اذا كانت لديك نقود فأرنيها؟!».

فقال وانج لنج في حذر: «لم أقل أني جئت بنقود، ولكني جئت لعقد صفقة!».

فقالت له الجارية: «ان الصفقة معناها نقود تقبض أو تصرف، وليس في هذا البيت نقود حتى تصرف!».

فقال: «أجل ولكني لا أقدر أن أفاوض امرأة!».

فغضبت الجارية وقالت: «ولم لا؟.. ألم تعلم أنه لا أحد هنا سواي وسوى السيد الشيخ؟. ان السيدة العجوز قد ماتت. وعصابات اللصوص أخذت معها كل الجواري والأمتعة!».

ثم سكتت المرأة قليلا وعادت تقول: «وكل ذلك لم يكن أمراً مفاجئاً. فقد أهمل السيد الكبير والسيدة الكبيرة وأولادهما كل عناية بالارض وصاروا يقنعون بقبض المال من الوكيل ثم ينفقونه بغير حساب، ومن حسن الحظ أن الابنتين تزوجتا قبل أن يحدث ذلك كله، وقد أرسل الابن الأكبر رسولا ليأخذ أباه اليه حيث يقيم واخوته.، ولكني رفضت ذلك لأني لا أستطيع أن أبقى بالدار وحدي وأنا امرأة وليس لي بيت آخر أذهب اليه بعد أن قضيت سنين جارية مخلصة في هذا البيت!».

فحدجها وانج لنج بنظرة دلت على أنه بدأ يدرك حقيقتها، وانها انما تتشبث بالسيد العجوز المحطم لكي تنال منه أقصى ما تستطيعه. ثم قال لها في ازدراء: «ما دمت جارية كيف أعقد صفقة معك؟».

وعندئذ صاحت قائلة: «انه يفعل كل ما أقوله له!».

ففكر وانج لنج هنيهة ثم قال لنفسه: «ان الارض هناك، فاذا لم أشترها بواسطة هذه المرأة فان غيري يشتريها!».

ثم سألها: «ماذا بقي من الارض؟!».

فأدركت مقصده وقالت له: «اذا كنت قد أتيت لشراء أرض فعندنا أرض للبيع. والسيد يملك مائة فدان الى الغرب ومائتين الى الجنوب وهي كلها للبيع الى آخر فدان فيها!».

وأدرك وانج لنج مما قالته الجارية أنها تعرف كل ما يملكه السيد الشيخ وتتصرف فيه كما تشاء، ولكنه ظل مع ذلك غير راغب في عقد الصفقة معها وقال لها: «ليس من المحتمل أن يبيع السيد أرض من غير موافقة ابنائه!».

فقالت المرأة بغير ابطاء: «ان أولئك الأبناء قد أوصوا أباهم بأن يبيع الارض في أقرب وقت ممكن، وليس منهم من يريد أن يعيش في هذه المنطقة التي ترتادها عصابات اللصوص في أيام المجاعة، بل كلهم يريدون بيع الارض كلها واقتسام ثمنها!».

فسألها وانج لنج وهو لا يكاد يصدق ما سمعه: «ولكن لمن أدفع الثمن؟». فقالت: «الى السيد الشيخ!».

ولم يرد وانج لنج أن يواصل الحديث معها وخرج وهو يقول: «سآتي يوماً آخر!».

فتبعته الجارية حتى الباب وهي تصيح وراءه: «عد غداً في مثل هذا الوقت. أو بعد ظهر اليوم. ان كل الاوقات ملائمة!».

ولم يجب بكلمة واحدة، بل انصرف صامتاً حائراً، وتوجه من فوره الى مشرب الشاي الصغير الذي جلس فيه مرة من قبل، ثم طلب كوب شاي. ولما وضعه الغلام على المائدة في قحة وأخذ الدرهم ثمنه، جلس هو يحتسيه على مهل و يفكر في الأمر، وقد هاله أن تلك الأسرة الغنية

الكبيرة التي كان هو وأبوه وأهل المنطقة كلهم يرهبون جانبها قد انهارت هكذا وتشتتت، ثم قال لنفسه: «لقد كان سبب انهيارهم أنهم أهملوا الارض!» ثم فكر في ولديه اللذين يكبران بسرعة، وقرر فيما بينه وبين نفسه أن يجعلهما يكفان عن اللعب وأن يكلفهما أعاملا يقومان بها في الحقل حتى يتعودا الشعور بالارض تحت أقدامهما!

وكان يتحسس الجواهر المخبأة في صدره من حين لآخر، و يخيل اليه أنها تسطع من خلال ثيابه الخلقة فيراها الناس و يتهامسون قائلين: «هذا فلاح فقير يحمل كنز ملك!».

وما كان ليهدأ باله حتى يحيلها أرضاً. وعلى هذا انتظر حتى وجد فرصة للكلام مع صاحب مشرب الشاي وقال له: «تعال واشرب معي كوب شاي على حسابي وانبئني بأخبار البلدة فقد كنت غائباً طول الشتاء!».

وكان صاحب مشرب الشاي مستعداً دائماً لاجابة مثل هذا الطلب، فجلس الى مائدة وانج لنج وبدأ الحديث قائلا:

ـ فيما عدا جوع الأهالي ليس من نبأ هام سوى السرقة التي وقعت بدار آل هوانج!

وكانت هذه الدار كل ما يرد وانج لنج أن يعرف أخباره، فأخذ يستحث الرجل ليروي له كل ما يعلمه عنها، فأخذ هذا يروي كيف اقتحم اللصوص تلك الدار ونهبوا كل ما كان فيها من أثاث وغيره، وكيف اختطفوا الجواري والخليلات بعد أن اغتصبوهن، ولم يتركوا في الدار إلا السيد العجوز وجثة السيدة العجوز، وجارية تدعى (كوكو) كانت خليلة للسيد الشيخ من قبل ذلك بسنوات، استطاعت النجاة لبراعتها ودهائها. ثم ختم صاحب المشرب كلامه قائلا:

ـ وقد صارت هذه الجارية في الوقت الحاضر تفعل بالسيد الشيخ ما تشاء. فقد وضعت يدها على كل شيء يمكن أن تناله. ولا ريب أن

السادة الشبان حين يرتبون شؤونهم في الجهات الأخرى التي يقيمون بها، يعودون الى البلدة لا بد أن يطردوها غير مصدقين ما تدعيه من الاخلاص. ولكنها قد اقتنت الآن ما يكفيها ولو عاشت مائة سنة!».

وهنا سأله وانج لنج: «ألم يبق للأسرة أرض تعرضها للبيع كما يقال؟».

فقال الرجل: «لقد سمعت أن الارض الباقية للأسرة كلها معروضة للبيع ما عدا القطعة التي يدفن فيها أفراد الأسرة منذ ستة أجيال!».

ثم قام الرجل على أثر ذلك لمقابلة عميل جديد، فقام وانج لنج أيضاً مكتفياً بما سمع منه وعاد الى البيت الكبير حيث طرق الباب ففتحت له الجارية (كوكو) ودعته الى الدخول فقال لها قبل أن يدخل: «خبريني أولا.. هل يضع السيد الشيخ خاتمه على عقود البيع؟».

فأجابت قائلة: «أجل!. هذا شيء لا بد منه، ولكن الثمن يدفع لي أنا!».

ثم سألها بعد الانتهاء من المساومة: «هل تحبين أن تقبضي ثمن الارض فضة أم ذهباً أم جواهر؟».

فلمعت عيناها وقالت: «أوثر الجواهر!». ولمعت عيناه هو الآخر فقد كان هذا أقصى ما يتمناه، لكي يضرب بحجر واحد عصفورين، فيحصل على الارض، وفي الوقت نفسه يتخلص من ذلك الحمل الثقيل الذي يتمثل فيما يحمله من الجواهر التي جاءت به (أولان)..!.

صورة امرأة!

صار وانج لنج يملك من الارض أكثر مما يستطيع ثور واحد أن يحرثه، وأكثر مما يقدر رجل واحد أن يحصد حاصلاته، ولذا بنى غرفاً صغيرة ألحقها ببيته واشترى حماراً، وقال لجاره تشنج:

ـ بعني قطعة الارض التي لك ودع بيتك الموحش وتعال عش معنا وساعدني في خدمة أرضي!

وقبل تشنج ذلك سعيداً به. ثم أمطرت السماء في الموسم التالي فنما الأرز، ولم يستطع حصده هو وتشنج وحدهما، فاستأجر وانج لنج عاملين كانا يعيشان بالقرية ليعاوناهما على ذلك.

وفيما هو يعمل بالارض التي اشتراها أخيراً من بيت (هوانج) تذكر شباب تلك الأسرة المتبطلين، ولذا صار صباح كل يوم يأخذ ولديه معه الى الحقول و يكلفهما من العمل ما تستطيع أيديهما الصغيرة أداءه، كأن يقودا الثور والحمار، و يؤديا غير ذلك من المهام الصغيرة، وغرضه تعو يدهما حرارة الشمس والمشي في أخاديد الارض.

غير أنه لم يسمح لأولان بأن تعمل في الحقول كذي قبل، لأنه لم يعد رجلا فقيراً، بل صار يستطيع استئجار عمال، وقد بنى غرفة أخرى بالمنزل لتخزين الحاصلات الوفيرة، ولولا ذلك لما بقي في البيت متسع للمشي فيه. واشترى ثلاثة خنازير وعدداً من الطيور والدواجن لتتغذى بفضلات الحبوب. و بذلك صار عمل (أولان) مقصوراً على تدبير المنزل واعداد الثياب والأحذية الجديدة لكل فرد من أفراد الأسرة، وقد صنعت ألحفة جديدة من قماش عليه رسوم أزهار ومحشو بالقطن

الدافئ الجديد. ولما تم ذلك كان لهم من الثياب والفراش ما لم ينعموا بمثله قط من قبل. ثم رقدت على سريرها وولدت مرة أخرى، وقد أبت كعادتها أن يساعدها أحد، مع أنها كانت تستطيع أن تستأجر أية قابلة تريد. وقد طال الوضع هذه المرة حتى اذا عاد وانج لنج الى البيت مساء وجد أباه واقفاً بالباب وقال له ضاحكاً: «هذه المرة للبيضة محان (صفاران)..!».

ولما دخل وانج لنج الغرفة وجد الى جوار زوجته طفلين توأمين ولداً وبنتاً، متشابهين كحبتي أرز فضحك مسروراً وقال: «ألهذا كنت تحملين لؤلؤتين على صدرك؟». فابتسمت (أولان) ابتسامتها البطيئة الكئيبة ولم تزد على ذلك!

وكان وانج لنج في هذا الوقت لا يعاني أي هم، اللهم إلا كون طفلته الكبرى لا تستطيع النطق بعد ولا أن تعمل ما يعمل الاطفال في سنها، وانما كانت تبتسم ابتسامة الطفولة كلما نظر اليها أبوها. وسواء أكان السبب هو سنة المجاعة أم غيرها فانه كان ينتظر شهراً بعد شهر أن تنطق ابنته بكلمة واحدة ولكنها ظلت لا تنطق مطلقاً، فكان يحزن لذلك و يقول لها: «يا لك من بلهاء مسكينة!».

وكان يقول لنفسه: «لو أني بعتها ووجدوها بكماء لقتلوها لا محالة!». وكأنما أراد أن يعوضها من تلك العاهة فزاد حناناً عليها واهتماماً بها، وصار يأخذها معه أحياناً الى الحقل فكانت تتبعه صامتة وتبتسم له كلما كلمها أو نظر اليها!

في تلك المناطق التي عاش فيها وانج لنج وعاش أبوه وجده من قبل، كانت المجاعات تحدث مرة كل حوالي خمس سنوات، واذا كانت الآلهة رحيمة فمرة كل حوالي ثمان سنوات أو عشر! وكان هذا لأن السماء قد تمطر أكثر مما يجب، أو لا تمطر أصلا، أو لأن النهر الذي في الشمال امتلأ بأمطار أو جليد هبطت في جبال بعيدة، فجاء متدفقاً تفيض مياهه على الجسور التي بناها الناس منذ قرون!

وكان الناس يفرون من الارض مرة بعد أخرى ثم يعودون اليها، ولكن وانج لنج آلى على نفسه أن يوطد مركزه المالي بحيث لا يحتاج الى الهجرة من أرضه مرة أخرى في السنوات العجاف، بل يعيش على ثمار السنوات السمان. وقد جد واجتهد سبع سنوات جنى خلالها حاصلات جيدة وفيرة. وصار يستأجر عدداً أكبر من العمال لفلاحة أرضه وجني حاصلاته، حتى صار له ستة عمال فبنى بيتاً خلف بيته القديم، سقفه من القرميد، وجدرانه مطلية بالجير، ثم انتقل هو وأسرته الى هذا البيت الجديد، وجعل العمال وعلى رأسهم تشنج، يسكنون البيت القديم!

ولما تبين خلال هذه السنوات اخلاص (تشنج) ونزاهته، جعله وكيله على الرجال وعلى الارض، ورتب له راتباً حسناً، هو قطعتان فضيتان في الشهر فضلا عن طعامه. وكان وانج لنج لا يفتأ يحثه على الأكل، لكنه بقي جلداً على عظم، وان استمر يعمل بنفسه في نشاط وسرور منذ فجر يومه الى ما بعد الغروب، و يشرف على العمال الآخرين فيعمل كل منهم ضعف ما كان يعمل قبل ذلك!

وهكذا آخت بين الجارين تلك القبضة من الفول التي انتقلت من يد أحدهما الى يد الآخر في وقت المجاعة، إلا أن وانج لنج وان كان أصغر سناً صار في مقام الأخ الأكبر، لأن تشنج لم ينس أنه أجير عنده!

وفي نهاية السنة الخامسة كان وانج لنج قد صار لا يعمل بنفسه في الحقول إلا قليلا، وصار لاتساع املاكه ينفق وقته في الاعمال المالية وبيع حاصلاته وتوجيه عماله. وكان يضايقه عدم درايته بالقراءة والكتابة، يتولاه الخجل حين يكون في سوق الحبوب ولا يستطيع قراءة عقد أو التوقيع عليه!

وفي أحد الايام سمع الكتبة في متجر حبوب أثناء استراحتهم وقت الظهيرة يسخرون من اعترافه بجهله وسؤاله عن معنى الحروف، فذهب الى بيته غاضباً وهو يقول لنفسه: «حقاً أن من العار ألا أعرف القراءة والكتابة. وسأعفي ابني الأكبر من العمل في الحقل وأدخله

مدرسة في المدينة ليتعلم، حتى اذا ذهبت الى أسواق الحبوب أمكنه أن يقرأ و يكتب لي، فلا يعود أحد يسخر مني!».

وفي اليوم التالي نفسه نادى ابنه الأكبر وكان قد صار فتى طو يل القامة في الثانية عشرة من عمره يشبه أمه بوجهه العريض البارز العظام و ببديه الكبيرتين ثم قال له: «لا تذهب الى الحقول منذ اليوم، لأني أريد في الأسرة واحداً متعلماً يقرأ العقود و يكتب اسمي عليها».

فاحمر وجه الغلام ولمعت عيناه سروراً وقال: «هذا ما كنت أتمناه طول السنتين الأخيرتين ولكني لم أجرؤ على أن أطلبه اليك».

ولما سمع الابن الأصغر بذلك جاء الى أبيه يبكي و يشكو، وهو أمر من شيمته لأنه كان كثير الكلام والضجة منذ استطاع النطق، ثم قال لأ بيه: «لن أعمل في الحقول فليس من العدل أن يجلس أخي على كرسي و يصبح متعلماً في حين أبقى أنا أعمل كالكلب مع أني ابنك مثله!».

ولم يسع وانج لنج إلا أن يلبي طلب ابنه الأصغر فأسكته قائلا: «حسناً!.. اذهبا اذن سو يأ الى المدرسة. واذا شاء الله أن يأخذ أحدكما بقي الآخر ليؤدي المهمة المطلو بة!».

ثم بعث زوجته الى المدينة لتشتري ثوباً طو يلا لكل ولد منهما، وذهب هو نفسه فاشترى لهما ورقاً وفرشاتين ومحبرتين، مع أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك. ولجهله صار يوافق على كل ما يقوله البائع... وأخيراً كان كل شيء معد لارسال الغلامين الى مدرسة بالقرب من باب المدينة، كان يديرها رجل شيخ رسب في شبابه في امتحانات الحكومة، وليست هذه المدرسة إلا الغرفة الوسطى ببيته، حيث أعد مقاعد للتلاميذ الذين يعلمهم في مقابل مبلغ زهيد يدفعه كل منهم عند كل عيد، واذا رابه من أحدهم كسل أو لم يحفظ درسه عن ظهر قلب،

ضربه بمروحة كبيرة مطوية، وكانت الدراسة تمتد عادة من الصباح الى وقت الغروب. على أن التلاميذ كانوا يجدون وقتاً للراحة في أيام الحر والربيع لأن الاستاذ وقتئذ ينام بعد تناول الغداء، و يسمع لنومه غطيط وهو في الغرفة الصغيرة المظلمة، وحينئذ يأخذ التلاميذ في اللعب، فيرسمون الصور والاشكال، و يسخرون من أستاذهم النائم. فاذا فتح عينيه فجأة وفطن الى عبثهم سارع الى تأديبهم بمروحته، وكان جيرانه حين يسمعون طقطقة المروحة على رؤوس التلاميذ يقول بعضهم لبعض: «حقاً انه معلم قدير». ولهذا السبب آثر وانج لنج مدرسته على غيرها من المدارس ليدخل فيها ولديه!

وفي اليوم الاول الذي أخذهما فيه اليها، مشى أمامهما، لأنه لا يليق بالأب والابن أن يسيرا جنباً الى جنب، وكان يحمل منديلا أزرق مليء بالبيض الطازج، ولما وصل الى المدرسة أعطى هذا البيض الى المدرس الشيخ، وقد أثر في وانج لنج منظره إذ كان يضع على عينيه منظاراً كبيراً له اطار من النحاس الأصفر. وكان يلبس رداء طويلا أسود، و يمسك بيديه مروحة كبيرة حتى في فصل الشتاء، فانحنى له وانج لنج وقال له: «سيدي.. اليك ولدي العديمي القيمة. واذا أردت ادخال شيء في رأسيهما السميكين اللذين قدا من نحاس، فانما يكون ذلك بضربهما حتى يتعلما!».

ووقف الولدان يطيلان النظر الى التلاميذ الآخرين فوق التخت، والتلاميذ ينظرون اليهما. ولما عاد الى بيته وحده بعد أن تركهما بالمدرسة، كان يتملكه الفخر، وخيل اليه أن أحداً من التلاميذ لا يشبه ولديه طولا وقوة بدن ووسامة وجه... ولما صادف جاراً له قادماً من القرية وهما يمران بباب المدينة، رد على سؤال له بقوله: «انني عائد من المدينة بعد أن أدخلت ولدي المدرسة!».

ولما بدت على الرجل الدهشة قال متظاهراً بقلة الاكتراث: «اني الآن لا أحتاج اليهما في الحقول فيمكنهما اذن أن يتعلما!».

ولكنه قال في نفسه: «لن أدهش اذا صار ولدي الأكبر حاكماً على اقليم!».



وافت السنة السابعة وقد فاض النهر العظيم في الشمال من جراء وفرة الأمطار والثلوج، فحطم الماء الجسور وتدفق على المنطقة كلها. ولكن ذلك لم يزعج وانج لنج وان يكن خمسا أراضيه قد غمرتها المياه وأصبحت بحيرة يبلغ عمقها مثل قامة الانسان، فكان الناس يغدون و يروحون في زوارق أو على ألواح من الخشب!

لكن وانج لنج مع كل ذلك لم يكن خائفاً، فان أسواق الحبوب كانت مدينة له بمبالغ من المال، ومخازنه مملوءة بالحاصلات التي حصدت في السنتين الماضيتين، و بيتاه كان مرتفعين فلا يرقى اليهما الماء!

ولما كانت الحقول في تلك الحال لا يمكن زرعها، فقد صار وانج لنج لا يعرف كيف يقضي وقته وهو الذي لا يطيق البقاء متعطلا، وصار يأكل من أطايب الطعام حتى يشبع و يأخذ أكثر من قسطه من النوم، ولكنه لم يكن يجد ما يعمله فجعله ذلك ملولا ضيق الصدر، ثم كان هناك عماله الذين يستأجرهم لمدة سنة كاملة، وقد صاروا الآن يأكلون من طعامه وهم يكادون لا يعملون شيئاً منتظرين أن تنحسر المياه عن الارض، وقد كلفهم ان يصلحوا البيت و يطعموا الماشية و يشتروا بطاً يربونه على ماء الفيضان وأن يصنعوا من الكتان حبالا، تلك الاشياء التي كان يقوم بها وحده حين كان يفلح أراضيه من غير معين!

وكان البيت يشمله السكون، فقد أصبح أبوه الشيخ أصم تماماً، وضعف بصره حتى لا يكاد يرى، وساء وانج لنج أن أباه لا يقدر أن يعرف مبلغ الثروة التي وافت ولده حتى أنه ظل يحتج على وضع الشاي في الماء المغلي و يقول كما كان يقول في أيام الفقر: «يكفي الماء

وحده فان الشاي كالفضة!». ولم تكن ثمة فائدة من شرح الحالة له لأنه كان ينسى كل شيء وشيكاً و يعيش في عالم خاص به!

ان ذلك الشيخ وتلك الطفلة البكماء التي تجلس الى جانبه وهي تلوي قطعة قماش وتبتسم، هذين الاثنين ليس لديهما ما يقولانه لونج لنج فكان يكتفي بأن يصب لهما الشاي، ويربت بيده خد الطفلة البلهاء، و ينظر الى الطفل والطفلة التوأمين اللذين ولدتهما (أولان) وهما يجريان و يمرحان عند عتبة الباب!

وكان لهذا يتملكه الضجر. ثم ينظر الى زوجته (أولان) كما ينظر الرجل الى امرأة يعرف جسدها حق المعرفة وقد عاش معها هذه السنين عن كثب فليس من جديد ينتظره منها!

غير أنه نظر اليها مرة فخيل اليه أنه يراها لأول مرة في حياته!.. فقد وجدها امرأة لا يمكن أن يحسبها أي رجل غيره إلا امرأة غبية عادية، تكدح في صمت، ولم تفكر في مظهرها قط.

وقد رأى لأول مرة أن شعرها اشعث غير مطلي بالزيت، وان وجهها مسطح ضخم خشن الملمس، وان ليس فيها شيء من الجمال أو الخفة. وكان شعر حاجبيها مبعثراً متباعداً وشفتاها واسعتين، و يداها وقدماها كبيرة مفرطحة!

ثم صاح بها قائلا: «ان أي انسان يراك يحسبك زوجة فلاح بسيط ولا يتصور أنك قرينة رجل يملك أرضاً و يستأجر عمالا!».

وهكذا لأول مرة صارحها برأيه في مظهرها، فردت عليه بنظرة ألم بطيئة، وكانت جالسة على مقعد تحيك نعل حذاء بابرة طويلة فوقفت عن العمل فجأة وفغرت فاها فبدت نواجذها المسودة. وكأنما أدركت أخيراً أنه نظر اليها نظرة رجل الى امرأة فاحمر وجهها الناتىء العظام وغمغمت قائلة: «منذ ولدت الطفلين الأخيرين وصحتي ليست على ما يرام. اني أحس ألماً كالنار في جسمي!».

وأدرك أنها حسبت في سذاجتها أنه يلومها لأنها لم تحمل طوال السنوات السبع الأخيرة، فرد عليها بشدة أكثر مما أراد: «انني أعني أنك لا تريدين أن تشتري قليلا من الزيت لشعرك، أو ثوباً جديداً من الحرير الأسود لك، كغيرك من النساء. ثم أن الأحذية التي ترتدينها لا تليق بامرأة مثلك زوجة رجل من ذوي الاملاك!».

ولكنها لم تجب، وانما نظرت اليه بانكسار ثم أخفت قدميها وراء الاخرى تحت المقعد الذي تجلس عليه في حركة غير اختيارية!. وكأنما أنبه ضميره إذ أساء الى هذه المرأة التي تبعته طول السنين كالكلب الأمين، وتذكر أنها في أيام الفقر كانت تترك فراشها عقب الوضع وتأتي اليه في الحقل لتعاونه على الحصاد، ولكنه لم يستطع أن يكظم الغيظ الذي في صدره فاستطرد بالرغم منه قائلا: «لقد اجتهدت وكدحت حتى صرت غنياً، ولست أحب أن تبدو زوجتي كخادمة مزرعة. ثم ان قدميك...».

وهنا وقف عن الكلام فقد بدا له أن قدميها أقبح ما فيها بحجمهما الكبير في حذائهما القطني، ونظر اليهما غاضباً حتى اضطرت الى اخفائهما تحت مقعدها أكثر من قبل. وأخيراً قالت بصوت كالهمس: «ان أمي لم تربط قدمي لأن أهلي باعوني وأنا طفلة صغيرة. ولكن سأربط قدمي طفلتنا أعني الطفلة الصغيرة!».

غير أنه خرج دون أن يجيب فقد خجل لأنه أبدى لها الغضب، وزاد سخطه عليها لأنها لم تغضب من ذلك وانما خافت. وارتدى ثوبه الأسود الجديد ثم قال متبرماً: «سأذهب الى مشرب الشاي لعلي أسمع به شيئاً جديداً، فليس في بيتي سوى حمقى ورجل مخرف وطفلين!».

وازداد كدره وهو ماض الى المدينة، لأنه تذكر بغتة أنه ما كان ليشتري كل هذه الارض لولا أن (أولان) أعطته تلك الجواهر التي استولت عليها من بيت الرجل الغني، غير أنه زاد بذلك غضباً وقال لنفسه: «حسناً!. ولكنها لم تكن تدري ماذا فعلت. وانما استولت على

تلك الجواهر، كما يستحوذ الطفل على قبضة من الحلوى، وكانت ستخبئها في صدرها الى الأبد لولا أن اكتشفت وجودها!».

وساءل نفسه: «أتراها لا تزال تخبىء اللؤلؤتين بين ثدييها؟». ثم تذكر أن ثدييها ترهلا بعد الاطفال الذين وضعتهم وأرضعتهم، فكان وضع لؤلؤتين بينهما حمقاً واسرافاً!. ولكن ذلك كله كان لا يعد شيئاً مذكوراً لو أن وانج لنج بقي فقيراً، أو لو أن ماء الفيضان لم يغمر حقوله ليعطله عن العمل. غير أنه كان غنياً. وقد خبأ فضة كثيرة في جدران بيته الجديد، وكانت هنا فضة غيرها ملفوفة في قطعة قماش بالصندوق الذي في الغرفة التي ينام فيها وزوجته، وفضة أخرى حيكت بالحصيرة التي تحت سريرهما. وكان حزامه تملؤه الفضة كذلك. واذن.. لم يعد انفاق الفضة كقطع جزء من لحمه، بل هو يتوق الى انفاقها في هذا الوجه أو ذاك، لأنه لا يكترث للانفاق بل يفكر في الاستمتاع بالحياة قبل أن يبلغ الكبر!

لقد بدأ يعيب كل شيء يراه، منذ أخذ ينظر اليه بغير العين التي كان ينظر اليه بها من قبل. ومشرب الشاي الذي كان يدخله متهيباً في الايام الخالية لشعوره بأنه فلاح بسيط، أصبح الآن في نظره وضيعاً. وفي الايام الخالية لم يكن أحد هناك يعرفه، وكان الصبيان الذين يقدمون الشاي وقحين سيئي الأدب نحوه، أما الآن فانه حين يدخل يلكز الناس بعضهم بعضاً بالكوع و يتهامسون قائلين: «ها هو ذا وانج لنج الذي اشترى أراضي آل هوانج في الشتاء الذي مات فيه السيد الشيخ وقت المجاعة. انه مزارع وافر الثراء!».

وكان وانج لنج يسمع ذلك ثم يجلس بغير اكتراث، ولكن قلبه كان يمتلىء فخراً مما سمع. غير أنه في هذا اليوم الذي أنب فيه زوجته لم يسره ذلك الاحترام الذي قوبل به بل جلس عابساً وشرب الشاي وهو يحسب أن لا شيء في الحياة يبعث على السرور كما كان يظن. ثم خطر له فجأة ان يسائل نفسه: «لماذا أشرب الشاي في هذا المشرب الوضيع الذي

يكسب صاحبه في اليوم أقل من أجر عامل عندي؟!.. نعم، اني أملك مالا ولي ولدان متعلمان!».

وقام مسرعاً ووضع النقود على المائدة قبل أن يتاح لأحد أن يكلمه. وأخذ يجوب خلال المدينة لغير قصد معين، ومر بكشك قصاص فجلس على دكة مزدحمة وأخذ يستمع الى الرجل وهو يقص قصة الأزمان القديمة في الممالك الثلاث حين كان المتقاتلون شجعاناً ذوي مكر ودهاء. ولكنه ظل غير مرتاح البال وقد ضايقه صوت اللوح النحاسي الذي يقرعه الرجل، وما لبث قليلا حتى نهض وانصرف لا يلوي على شيء!

وكان في المدينة مشرب شاي كبير فتحه حديثاً رجل من الجنوب يحذق هذا النوع من الاعمال، وكان وانج لنج قد مر بذلك المكان من قبل فارتاع ولكنه دخل الآن مدفوعاً بقلق الفراغ ورغبة الفرار من تأنيب ضميره على مسلكه ولج باب ذلك المشرب الى قاعة فسيحة يسطع فيها الضوء وقد صفت فيها مناضد كثيرة، ودخل بجرأة رافع الرأس لكنه في قرارة نفسه كان متهيباً، وتذكر أنه منذ سنوات قليلة كان فقيراً لم يملك قط أكثر من قطعة فضية أو قطعتين ثم صار يجر عربة يركبها أحد السادة في مدينة بالجنوب!

ومكث ساكتاً في ذلك المشرب الكبير، فشرب الشاي أول الأمر في هدوء، ثم أخذ ينظر حوله مستغرباً قاعة المشرب العظيمة التي طلي سقفها بماء الذهب ورسمت على جدرانها صور نساء حسان فمضى يختلس النظر الى هذه الصور وقد خيل اليه انهن نساء أحلام لأنه لا يوجد على وجه الارض نساء مثلهن!

وخرج مسرعاً على أثر ذلك!.. غير أنه صار يذهب الى مشرب الشاي هذا يوماً بعد يوم، في حين كان ماء الفيضان لا يزال يغمر أراضيه، وكان يجلس وحده و يطلب الشاي يحتسيه وهو يمعن النظر الى صور النساء الحسان، وكان كل يوم يطيل المكوث أكثر من قبل، ما دام ليس

وراءه شيء يعمله في الحقول ولا في البيت. ولعله كان يظل على هذه الحال أياماً لا تنتهي، لأنه برغم كثرة الفضة التي يكتنزها كان لا يزال يبدو فلاحاً بسيطاً، ولم يكن هناك غيره في مشرب الشاي أحد يرتدي ثياباً من القطن، فكلهم هناك يرتدون ثياباً من حرير، وكان وحده في المدينة كلها ما يزال محافظاً على ضفيرة من الشعر تتدلى على ظهره!

وفي مساء أحد الأيام وهو جالس يحتسي الشاي و يحملق في الصور من مائدة في مؤخرة القاعة، رأى أحداً يهبط سلماً ضيقاً عند الحائط الخلفي، يؤدي الى الطابق الأعلى!

وكان مشرب الشاي هذا هو البناء الوحيد في المدينة الذي له طابق أعلى ـ ما عدا المعبد الغربي المكون من خمس طبقات في خارج الباب الغربي للمدينة. ولكن ذلك المعبد كان ضيقاً، و يزداد ضيقاً عند قمته، في حين ان الطابق الثاني لمشرب الشاي كان مربعاً كالطابق الأسفل. وفي الليل كان غناء النساء وصوت الضحك ينبعثان من ذلك الطابق الأعلى، ممزوجين بأنغام العود يوقع عليه فتيات وبخاصة بعد نصف الليل، وان يكن وانج لنج لا يسمع من مكانه سوى ضجة الرجال وهم يشربون الشاي وصوت طقطقة النرد، يعلوان على كل صوت آخر!

وهكذا لم يسمع وقع قدمي امرأته خلفه، وقد ارتاع حين لمست كتفه بغتة، إذ كان لا يتوقع أن يعرفه أحد في هذا المكان. ولما نظر اليها رأى أمامه (كوكو) بوجهها الحلو النحيل، وهي المرأة التي وضع في يدها الجواهر يوم اشترى الارض من (هوانج) فأمسكت بيد السيد الشيخ المرتعشة لتساعده على ختم عقد البيع!.. وقالت (كوكو) وهي تضحك: «وانج لنج المزارع؟!.. من كان يتوقع أن يراك هنا؟!».

ورأى أن عليه أن يثبت لها أنه أكثر من رجل ريفي بسيط، فرد ضاحكاً بصوت مرتفع: «أليست نقودي كنقود أي شخص آخر؟ والنقود لا تعوزني في هذه الايام، فقد كان حظي حسناً!».

فقالت بصوت رقيق كأنه زيت يصب من آنية: «ومن الذي لم يسمع بذلك؟ وهل تنفق النقود الفائضة عن حاجة الانسان إلا في مكان كهذا ينعم الأغنياء فيه بالمتعة والسرور؟.. لا توجد خمر مثل خمرنا!.. هل ذقتها يا وانج لنج؟».

فشعر بالخجل وقال: «اني حتى الآن لم أشرب هنا إلا الشاي!».

فضحكت وقالت: «شاي؟! ان عندنا أنواعاً متعددة من الأنبذة والخمور، فكيف تشرب شاياً؟».

ثم قالت بصوت ناعم مغر: «أحسبك لم تنظر الى شيء آخر؟.. لم تنظر الى الأيدي الجميلة ولا الى الخدود الزكية الرائحة؟».

فاحمر وجهه وشعر كأن كل انسان ينظر اليه و يسخر منه. ولكنه لما نظر حوله لم يجد احداً ملتفتاً اليه فقال باضطراب: «كلا!.. اني كنت أشرب الشاي فقط!».

فضحكت المرأة من جديد وأشارت الى صور الحسان والأشرطة الحريرية المكتوبة وقالت له: «انظر الى هذه الصور واختر الصورة التي تحب أن ترى صاحبتها، وضع الفضة في يدي وأنا أحضرها لك!».

فقال وانج لنج مستغرباً: «هؤلاء؟!.. لقد حسبت أنها صور نساء في الأحلام، أو صور آلهات في جبل (كو ين لو ين) كاللاتي يتحدث عنهن القصاص!».

فردت كوكو ساخرة: «أجل انهن نساء أحلام غير أنهن لا يلبثن حتى يتجسدن بقليل من الفضة!».

ثم ذهبت في طريقها وهي تغمز للخدم وتشير من بعيد الى وانج لنج وتقول: «هناك فلاح ساذج!».

وكان وانج لنج يحملق في الصور بشعور جديد. ان في غرف الطابق الأعلى توجد نساء حسان! والرجال يصعدون اليهن ــ رجال آخرون

غيره ولكنهم رجال! فلو أنه لم يكن كما هو، رجلا جاداً وله زوجة وأولاد، فأية صورة كان يختارها؟. وجعل ينظر ملياً الى كل صورة وكأنها امرأة متجسدة أمامه. وقد كانت الصور قبل ذلك جميلة كلها في عينيه أما الآن فانه أخذ يقارن بينها ليرى أي النساء أجمل من غيرها، وقد أختار من العشرين صورة أو أكثر ثلاثا كن أجملهن جميعاً، ثم عاد فاختار واحدة من بين هؤلاء الثلاث رآها أكثرهن جمالا، إذ كانت صغيرة القد رفيعة الجسم لها وجه صغير كوجه هرة واحدى يديها مطبقة على عود زهرة لوتس، وكانت يداً رقيقة كسلك نبات السرخس!

وأمعن فيها النظر فأحس حرارة تسري في جسمه وكأن خمراً صبت في عروقه حتى قال بصوت مرتفع: «انها كالزهرة التي فوق شجرة سفرجل!». ولما سمع صوت نفسه انزعج وخجل ووضع النقود على المنضدة وخرج في ظل الليل عائداً الى بيته!

وكان القمر يبعث بشعاعه فوق الحقول والماء، وكان الدم يجري في عروق وانج لنج حاراً سريعاً!

ولو أن الماء انحسر عن حقوله واحتاجت الارض الى جهده من جديد، فأكبر الظن أنه ما كان يذهب الى مشرب الشاي الكبير مرة أخرى. ولو أن طفلا من أطفاله مرض، ولو أن أباه الشيخ وافاه أجله فجأة، لشغله ذلك ونسي صورة الوجه الجميل وجسم المرأة الذي يشبه القصبة في نحوله. ولكن الماء ظل يغمر الحقول، والشيخ مكث ينعس كعادته، والولدان صارا يذهبان الى المدرسة فجر كل يوم ولا يعودان إلا مساء فكان وانج لنج قلقاً ضجراً، وصار يتفادى نظرات (أولان) وهي تنظر اليه بمسكنه وهو لا يستقر على الكرسي حتى يقوم قبل أن يشرب الشاي الذي صبته له، أو يدخن الغليون الذي يكون قد أشعله!

وفي نهاية يوم طال عليه أكثر من غيره كان واقفاً في ضوء الشفق على عتبة داره، ثم دخل بغتة وارتدى ثوباً جديداً من قماش أسود يلمع كالحرير، وكانت (أولان) قد حاكته ليرتديه في أيام الأعياد، ثم

مضى فوق الدروب وحدود المياه حتى وصل ليلا الى باب المدينة فولجه وسار في الشوارع حتى وصل الى مشرب الشاي الجديد!

وتردد وانج لنج قليلا عند باب المشرب، وكان في قرارة قلبه خائفاً خجولا، وان يكن دمه يجري ساخناً في عروقه حتى لتكاد تتفجر به، وانه لكذلك اذا بالمرأة (كوكو) قد جاءت مهرولة إذ كانت مهمتها أن تستقدم العملاء الى تلك الدار، ولما رأت أنه هو، هزت كتفيها وقالت: «انه ليس إلا مزارعاً!».

فساءه ذلك منها، وبعث في نفسه جرأة لم تكن له، وقال بحدة: «أليس لي الحق في دخول هذا البيت كأي شخص آخر وأن أفعل كما يفعل غيري؟!».

فضحكت وقالت: «اذا كان معك مثل الفضة التي معهم فانك تستطيع أن تفعل كما يفعلون!».

فأراد أن يثبت لها أنه سيد، وأنه وافر الغنى، فدس يده في حزامه وأخرجها مملوءة.

فنظرت الى الفضة وقالت مسرعة: «تعال واخبرني أي واحدة منهن تريد؟!».

وأخيراً قرعت (كوكو) أحد الأبواب بشدة ودخلت، وكانت هناك فتاة نحيلة تجلس على سرير مغطى بلحاف أحمر عليه رسوم أزهار!.. وكانت هي (لوتس) التي أعجبته صورتها.

ونظر اليها كما كان ينظر الى الصورة، ورأى وجهها وعينيها وشفتيها كما كانت مرسومة، وخيل اليه أنها ليست امرأة من لحم ودم ولكن صورة امرأة!

ثم رفعت احدى يديها الصغيرتين ووضعتها على كتفه [illegible] بها ببطء على ذراعه، فأحس ناراً تحترق تحت كمه، ثم مسحت بيدها على معصمه حتى وضعتها في راحة يده، فبدأ يرتعش ولا يدري كيف يمسك

بها. وعندئذ ضحكت ضحكة كأنها دقة ناقوس فضي فوق معبد قد هزته الريح، وقالت له بصوت رقيق: «آه ما أجهلك أنت أيها الانسان الكبير! هل ستجلس هنا طول الليلة لتتفرس في هكذا؟!».

وعندئذ أمسك بيدها بين راحتيه في حذر وكأنه يمسك بورقة شجر جافة يخشى أن تتكسر، وقال لها بتوسل وهو لا يدري ماذا يقول: «لا أعرف شيئاً، علميني!».

وقد علمته!

وصار يذهب كل يوم الى مشرب الشاي، وصار ينتظر مساء حتى تستقبله و يذهب اليها كل ليلة. غير أنه لم يستطع قط أن يستحوذ عليها تماماً، وهذا الذي جعله دائم الحمى والظمأ، أن أولان حين جاءت الى بيته كانت كالصحة لجسده، وكان يتوق اليها كالحيوان يطلب رفيقته فكان يأخذها و يشبع نفسه منها و يقنع، ثم ينساها و يؤدي عمله راضياً، ولكن حبه لهذه الفتاة كان خالياً من ذلك الرضا من الصحة كذلك!

وصارت الفتاة (لوتس) تصنع به ما تشاء. فلما ضحكت من الضفيرة المتدلية على قفاه ـ وإن يكن قد مضى وقتاً طويلا في عقصها وتمشيطها ـ ذهب الى حلاق وأمره بقصها مع أنه قبل ذلك عجز الساخرون منه عن أن يغروه بذلك. ولما رأته (أولان) من غير تلك الضفيرة صاحت به مرتاعة وقالت: «لقد قطعت حياتك!».

فصاح بها قائلا: «أتريدين أن أبقى الى الأبد كأحمق عتيق؟!.. ان جميع شباب المدينة يقصون شعرهم كله!».

كان في قرارة نفسه خائفاً مما فعله!.. ولكن لو أن الفتاة (لوتس) أمرته ان يقطع حياته نفسها لفعل، لأنها كان لها كل مقومات الجمال التي يتمناها في امرأة!

وكان من قبل لا يغتسل إلا قليلا، حاسباً أن العرق الذي يتصبب من جسمه عند التعب يغنيه عن كثرة الاغتسال!.. أما الآن فصار يعني بجبسده وكأنه جسد شخص آخر، وصار يغتسل كل يوم حتى قالت له زوجته يوماً: «ستموت من كثرة الاغتسال!».

وصار يشتري صابوناً معطراً بروائح عطرية لاغتساله، وامتنع عن أكل الثوم بتاتاً برغم حبه له، واشترى لنفسه كذلك أقمشة حريرية غالية الثمن ولم يرض أن تحيكها له (أولان) بل ذهب بها الى حائك في المدينة.. فحاكها له على الطراز الذي يؤثره أبناؤها. ولبس في أصبعه خاتماً فضياً مطلياً بالذهب، وصار يدهن شعره بزيت وارد من الخارج ذي رائحة زكية!

ونظرت أولان اليه مندهشة ولم تدر معنى لهذا التغير الذي طرأ عليه وقالت له:

ان مظهرك يجعلني أحسبك واحداً من السادة الذين كانوا بالبيت الكبير!

فضحك وانج لنج إذ سمع ذلك وقال: «وهل حكم علي أن أبدو كعبد من عبيد الارض مع اننا وافرو الثروة؟».

ولكنه سر كثيراً من تلك المقارنة وعاملها في ذلك اليوم بلطف لم تعهده منه منذ أيام عديدة.

وكانت النقود، تلك الفضية العزيزة تتساقط من يده كالمطر. وكان عليه الى جانب أجر الفتاة على الساعات التي يقضيها معها أن يلبي طلباتها!. فقد كانت تتأوه وتنتحب فاذا سألها ما بها أفصحت عن رغبتها في حيازة قطعة حلي ذات حجر كريم. فاذا جاءها بها في غداته عادت تطلب مزيداً من الذهب، وهكذا لا ينقطع لها طلب! وفي مقابل ذلك صارت تناديه بأسماء محببة لم يسمعها قط من قبل، وتعلمه أن يناديها بكلمات غرامية.



وانج لنج وقد أخذ من زوجته اللؤلؤتين ، ليهديهما الى خليلته

وهكذا صارت الفضة تخرج من مخابئها في الحائط أو في الكيس، ولم تعد أولان تسأل عن ذلك كما كانت تفعل في الايام الخالية كلما طلب الفضة لشراء أرض، بل لاذت بالصمت وقنعت أن ترقبه بكثير من الحزن والكمد، إذ أيقنت أنه يعيش حياة أخرى بعيداً عنها وعن الارض، ولكنها لم تكن تدري على وجه التحقيق ما هنالك. غير أنها كانت قد امتلأت رعباً منه منذ ذلك اليوم الذي رآها فيه عاطلة الجمال ورأى شعرها خشناً وقدميها كبيرتين، وصارت تخشى أن تسأله عن شيء إذ أصبح سريع الغضب يثور لأوهى الأسباب!

وفي أحد الايام جاء اليها واقترب منها وهي تغسل الثياب عند البركة، ووقف برهة صامتاً ثم قال لها بجفاء يغطي به خجله: «أين اللؤلؤتان؟».

فأجابت بخوف: «اللؤلؤتان؟. انهما معي!».

فغمغم وهو ينظر الى يديها المبتلتين من غير أن ينظر اليها: لا فائدة من أن تحتفظي بهما لغير غرض!».

فقالت ببطء: «لقد كنت أعتزم أن أجعل منهما قرطين يوماً من الايام، وعندئذ كانتا تصلحان لابنتنا حين تتزوج!».

وسكت لحظة ثم صاح: «اعطيني اللؤلؤتين فاني في حاجة اليهما!».

فوضعت يدها المجعدة المبتلة في صدرها وأخرجت منه لفة صغيرة ناولته اياها وأخذت ترقبه وهو يحل رباطها. ولما رأى وميضها في شعاع الشمس ضحك ضحكة قصيرة. أما أولان فعادت تضرب الثياب بعصا من الخشب وقد بسطتها على حجر، غير انها صارت تضربها ضرباً متواصلا شديداً!

حلم يذوب!

عاد عم وانج لنج فجأة الى القرية، ولم يوضح أين كان وماذا فعل، وانما وقف فجأة بالباب وكأنه سقط من السماء!

وكانت ثيابه الخلقة غير مشدودة بالأزرار، وحزامه مفككاً، ووجهه كما كان لولا أنه بانت به تجاعيد و يبس من فعل الريح والشمس.. وكشر لهم عن أسنانه وهم جالسون الى المائدة يتناولون طعام الفطور، ففغر وانج لنج فاه من الدهشة لأنه كان قد نسي عمه فكان الآن كالميت يعود بغتة. وحملق أبوه الشيخ ولم يعرف القادم لولا أن هذا صاح به قائلا: «أخي الأكبر وابنه وأحفاده وزوجة ابن أخي؟ ما أبدع ذلك!».

وعندئذ وقف وانج لنج متكدراً في نفسه ولكن مرحباً بعمه في الظاهر وقال له: «هل تناولت طعام الفطور؟».

فأجاب الرجل ببساطة: «كلا ولكني سآكل معكم!».

وجلس معهم وسحب آنية وعودين، وأخذ يأكل بنهم من الأرز والسمك المملح والفول المجفف التي كانت على المائدة، ولم يتكلم إلا بعد أن أفرغ ثلاث أوان من عصيدة الأرز، وبعد أن أكل هنيئاً قال: «الآن أريد أن أنام لأني لم أنم طول الليالي الثلاث الأخيرة!».

فذهل وانج لنج ولم يدر ما يقوله، ولكنه لم يجد بداً من أن يقود عمه الى سرير والده، فرفع عمه الألحفة وأخذ يفحص قماشها الجديد وقطنها الجيد ثم نظر الى السرير الخشبي والى المنضدة والكرسي اللذين كان وانج لنج وقد اشتراها لغرفة أبيه وقال: «لقد سمعت أنك أصبحت

غنياً، ولكني لم أكن أعرف أنك غني الى هذا الحد!».. ثم ارتمى على السرير وسحب اللحاف الى كتفيه وكأن البيت بيته وكل ما فيه ملكه!

وعاد وانج لنج الى الغرفة الوسطى وهو في كدر شديد، فقد أيقن الآن أن عمه لن يجلو عن البيت بعد أن عرف أن ابن أخيه عنده طعام له. وفكر وانج لنج في ذلك وفي زوجة عمه بكثير من القلق، لأنه أدرك أن القوم سينزلون بيته ولن يحول أحد بينهم وبين الاقامة فيه!

وقد وقع ما خشيه فان عمه مكث نائماً في السرير الى ما بعد الظهر ثم تثاءب ثلاث مرات بصوت مرتفع وخرج من الغرفة وهو يلف الثياب حول جسمه ثم قال لوانج لنج: «الآن سأحضر زوجتي وولدي. ونحن ثلاثة لن يعوزنا في هذا البيت الكبير ما نأكله وما نلبسه من ثياب بسيطة!».

ولم يجب وانج لنج إلا بنظرة عابسة، لأن من العار على رجل موسر أن يطرد عمه وابن عمه من بيته، ولو أنه فعل ذلك لازدراه أهل القرية الذين يحترمونه الآن لغناه. ولذا لم يجرؤ على أن يقول شيئاً وانما أمر العمال بأن ينقلوا جميعاً الى الدار القديمة حتى يخلي الغرف التي بجانب الباب، وقد احتل عمه وزوجته وابنه هذه الغرف في مساء اليوم نفسه. وزاد من كدر وانج لنج أنه مضطر الى اخفاء ما بنفسه والتظاهر بالترحيب والابتسام، مع أنه كاد ينفجر من الغيظ حين رأى وجه زوجة عمه المكتظة باللحم، وود لو يلطم وجه ابن عمه الذي تنطق ملامحه بالقحة والاستهتار. ومكث ثلاثة أيام لا يستطيع الذهاب الى المدينة لما يغمره من كدر!

ولما ألف الجميع ما حدث، وقالت له أولان: «دع عنك الكدر فلا بد من احتمال الأمر»، ورأى وانج لنج أن عمه وزوجته وابنهما سيلتزمون جانب المجاملة من أجل طعامهم ومثواهم، عندئذ اتجهت أفكاره الى الفتاة لوتس واشتد شوقه اليها وقال لنفسه: «اذا كان بيت الانسان

مملوءاً بالكلاب فيجب أن يبحث عن السرور في مكان آخر». وعادت اليه الحمى القديمة تحرق بدنه وكان لا يزال جائع العاطفة!

واذا كانت أولان في سذاجتها، وتشنج في صداقته، لم يريا ما به، فان زوجة عمه قد أدركت تواً ما هنالك، فقالت بعينين ضاحكتين: «ان وانج لنج يسعى الى اقتطاف زهرة في جهة ما!» فنظرت أولان اليها بانكسار ولم تفهم ما تعنيه، فاستطردت المرأة تقول: «هل لا بد للبطيخة أن تنشطر شطرين حتى يمكنك أن تري ما بها من لب؟ حسناً! اذن فاعلمي أن زوجك قد شغف حباً بامرأة أخرى!».

وسمع وانج لنج زوجة عمه تقول ذلك صباح يوم وهي بالفناء الذي تطل عليه نافذته، وكان راقداً في غرفته متعباً يفكر في حبيبته. فأخذ ينصت وقد عجب من نفاذ نظر تلك المرأة التي كشفت ما بنفسه، ثم سمعها تقول: «حين يشرع الرجل في تلميع شعره و يشتري لنفسه ثياباً جديدة و يلبس فجأة حذاء من المخمل، فثقي بأن هناك امرأة أخرى!».

ثم سمع أولان تقول شيئاً لم يصل الى أذنه، وردت عليها زوجة عمه قائلة: «لا تظني أيتها الحمقاء أن الرجل يقنع بامرأة واحدة ولا سيما اذا كانت ترهق نفسها بالعمل وقد استنفدت جسمها في الكد من أجله! ان هواه لا بد أن ينصرف الى غيرها. وأنت أيتها الحمقاء لم تكوني قط أهلا لهوى رجل ولا أكثر من دابة تكدح له. وليس لك أن تتذمري اذا كان غنياً واشترى لنفسه امرأة أخرى وأحضرها الى البيت، لأن جميع الرجال دأبهم كذلك، وهكذا كان زوجي المتعطل يفعل لولا أنه عاش طول حياته فقيراً ولا يملك الفضة ما يطعم به نفسه!».

وقالت غير ذلك كلاماً كثيراً لم يسمعه وانج لنج من سريره، ولكن ثبتت في ذهنه كلمة واحدة مما قالت، دلته على الطريقة المثلى لارواء ظمئه الى فتاته. أجل انه سيشتريها وسيحضرها الى بيته، و يجعلها وقفاً عليه، فلا يأتي اليها رجل آخر، وهكذا يمكنه أن يشبع منها ظمأه ونهمه. وقام تواً من فراشه وأشار خفية الى زوجة عمه فتبعته الى

خارج البيت، وجلسا معاً تحت نخلة حيث لا يسمعهما أحد ثم قال لها: «اني في حاجة الى أكثر من امرأة واحدة، ولم لا عندي أرض تطعمنا جميعاً؟!».

فقالت باهتمام: «ولم لا حقا؟ ان كل الرجال كذلك. وانما الرجل الفقير وحده هو الذي لا يفتأ يشرب من كوب واحدة!».

وكانت قد أدركت ما يرمي إليه، فحقق ظنها وقال: «ولكن من الذي يقوم بالوساطة لي؟ ان الرجل لا يقدر أن يذهب الى امرأة و يقول لها تعالي الى بيتي..!».

فقالت له: «دع هذ الأمر لي وما عليك إلا أن تخبرني من هي المرأة وأنا أدبر الأمر!».

وعندئذ قال وانج لنج في خجل، لأنه لم يكن قد أفشى سره لأي مخلوق من قبل: «انها المرأة المسماة (لوتس)...».

ولم يذهب الى مشرب الشاي الكبير حتى رتب الأمر، وكان يقول لنفسه: «اذا لم ترض أن تأتي الى بيتي وتكون لي وحدي فاني أقطع رقبتي ولا أذهب اليها ثانية». غير أنه لما فكر في امكان هجرها شعر بقلبه تتمزق نياطه، فعاد الى زوجة عمه يقول لها: «لا تغلقي الباب لقلة النقود.. ان عندي من الفضة والذهب قدرما أريد. ولن تؤدي (لوتس) أي عمل في بيتي بل لن تلبس عندي إلا الحرير ولن تأكل إلا أطايب الطعام!».

فضجرت زوجة عمه وقالت: «كفى!. أتحسب أن هذه أول مسألة أدبرها بين رجل وامرأة؟ دعني اذن أتصرف!».

ولم يبق عليه بعد ذلك إلا أن يعد البيت لاستقبال (لوتس)، فأمر العمال أن يبنوا قاعة أخرى بالمنزل وحولها ثلاث غرف جديدة، وأشرف على عملهم بنفسه حتى لا يخبر تشنج بالغرض من ذلك. وأخذ العمال

يمزجون الطين لتشييد الجدران واشترى هو القرميد من المدينة لعمل السقف منه!

ولما تم البناء اشترى طوباً ورصف به أرض الغرف الثلاث. ثم اشترى قماشاً أحمر وجعل منه ستائر تعلق فوق الابواب، وابتاع أيضاً أثاثاً جديداً وصوراً تعلق على الجدران، وأعد كعكاً فاخراً وحلوى ووضعها على المائدة الجديدة. ولكنه في خلال ذلك خجل من أن يكلف أولان أي شيء وانما كانت زوجة عمه تعلق الستائر وتؤدي من الاعمال المنزلية ما لا يستطيع هو أن يؤديه!

ولما تم ذلك كله أمر بحفر بركة صغيرة وفرش أرضها بالآجر واشترى خمس سمكات ذهبية ووضعها في مائها. ولم يجد بعد ذلك شيئاً يعدهه فمكث ينتظر على أحر من الجمر!

واستمرت الحال كذلك حتى جاءت اليه زوجة عمه يوماً وقالت له: «إن المرأة التي تدير مشرب الشاي لصاحبه قد قبلت أن تترك لوتس في مقابل مائة قطعة فضية تقبضها، وستأتي الفتاة اليك اذا اشتريت لها قرطين من حجر اليشم، وخاتماً من الذهب وطقمين من الثياب الحريرية واثني عشر حذاء ولحافين من الحرير لسريرها!».

ولم يسمع وانج لنج من ذلك كله سوى كلمة «لقد تم الأمر». فجرى الى الغرفة الداخلية واستخرج فضة من مخبئها وملأ بها راحتيها. ولكن في خفاء لأنه لم يرد بعد أن يعلم أحد بوفرة الحاصلات في السنوات الأخيرة المتوالية، وقال لزوجة عمه: «خذي لنفسك عشر قطع فضية!».

وتظاهرت بالرفض والاباء في حين مدت يدها فسلمها ذلك المبلغ وهو يحسب أنه ينفقه في وجهه الصحيح. ثم اشترى لحم خنزير ولحم بقر وصنوفاً من السمك والخضر ومقداراً من أعشاش الطيور لعمل حساء بها، وغير ذلك من أطايب الطعام، ثم قعد ينتظر بصبر نافد!

وقد جاءت لوتس في يوم حار من أيام الشهر الثامن الذي هو ختام الصيف، ورآها وانج لنج قادمة من بعيد وكانت راكبة محفة مغلقة يحملها رجال على أكتافهم وتتبعها المرأة كوكو. عندئذ تولاه الفزع بغتة وساءل نفسه: «ماذا أحضرت الى بيتي؟». ودخل الى الغرفة التي كان ينام فيها سنوات طويلة متوالية مع زوجته وأغلق الباب وراءه، ومكث في الظلام ينتظر في اضطراب شديد حتى سمع زوجة عمه تناديه بصوت مرتفع ليخرج لأن لوتس قد وصلت الى باب الدار!. وهنا خرج على مهل مضطرباً زائغ البصر فلما رآته كوكو صاحت به في مرح: «ما كنت أحسب أننا سنعقد صفقة من هذا القبيل!». ثم ذهبت الى المحفة التي وضعها الحمالون على الارض وأزاحت ستاراً وقالت: «أخرجي يا زهرة اللوتس فها هنا بيتك وهذا سيدك!».

ثم تقدمت منها زوجة عمه فسارت بينها وبين كوكو الى الغرف الجديدة التي بناها لها وانج لنج. ولم يكن أحد من البيت قد رآها وهي تدخل لأن وانج لنج أبعد العمال وعلى رأسهم تشنج ليعملوا في حقل بعيد، وكانت أولان قد ذهبت الى حيث لا يدري ومعها طفلاها الصغيران، والغلامان كانا بالمدرسة. أما أبوه الشيخ فكان نائماً الى جوار الجدار ولا يسمع أو يرى شيئاً، وأما البلهاء الصغيرة فكانت لا تعرف أحداً غير أبيها وأمها. ولما دخلت لوتس الى غرفتها سحبت كوكو الستائر وراءها.. وبعد فترة من الوقت خرجت زوجة عمه من لدنها، ضاحكة بخبث، وأخذت تضرب بكفيها كأنما تزيح عنهما شيئاً وهي تقول: «انها تفوح منها رائحة العطر والطلاء!». ثم قالت ولا تزال تضحك: «انها ليست صغيرة السن كما يبدو عليها. بل أحسبها ما كانت لترضى الانتقال الى بيت مزارع مهما قدم لها من حلي وحرير لولا أنها في ختام سن الشباب فهي موقنة أنها عما قريب لن ينظر اليها رجل!».

ولما رأت دلائل الألم على وجه وانج لنج من هذا الكلام الصريح أضافت قائلة: «ولكنها في الحق جميلة ولم أر قط أجمل منها، وستكون

حلوة المذاق بعد كل تلك السنوات التي قضيتها مع تلك الجارية الغليظة العظام التي أخذتها من بيت هوانج!».

ولكن وانج لنج لم يجب بكلمة وانما كان يتنقل في نواحي البيت وهو يستمع ولم يقدر أن يقف ساكناً. وأخيراً تجرأ ورفع الستار الأحمر ودخل عند لوتس ومكث الى جوارها طول يومه حتى أرخى الليل سدوله.

وفي خلال ذلك كله لم تعد أولان، وكانت في فجر ذلك اليوم قد تناولت فأساً ونادت الطفلين التوأمين وأخذت معها طعاماً ملفوفاً في ورقة كرنب ثم لم تعد إلا في الليل حيث دخلت المطبخ وأعدت طعاماً ووضعته على المائدة كما تفعل دائماً ثم نادت الرجل الشيخ ووضعت عودين في يده وأطعمت البلهاء ثم أكلت قليلا من الطعام مع أطفالها. ولما أووا الى فراشهم اغتسلت تأهباً للنوم ثم دخلت غرفتها ونامت وحدها على السرير!

وبعد ذلك صار وانج لنج يذهب الى الغرفة التي ترقد بها لوتس كسلى على سريرها فيجلس بجانبها ويرقب كل حركاتها وسكناتها. وكانت لا تخرج قط وانما كانت ترقد، في حين تغسل كوكو بدنها النحيل بماء دافىء ثم تدهنه بالزيت ثم تعطر شعرها. ذلك لأن لوتس كانت قد أصرت على أن تمكث معها كوكو كخادمة لها!. وكانت تدفع لها أجراً سخياً، فآثرت المرأة أن تخدم واحدة بدل عدد من النساء، وصارت تعيش مع سيدتها لوتس بمعزل عن الآخرين في الجناح الذي شيده وانج لنج.

وكانت الفتاة تمكث طول النهار في غرفتها المعتمة وهي تأكل حلوى وفاكهة ولا تلبس إلا ثياباً خفيفة من الحرير، وكان وانج لنج يجدها كذلك فيشبع ويرتوي من غرامه... فاذا ضجرت أخيراً من الرقاد، خرجت الى البركة الصغيرة ذات السمك الذهبي فاذا مدت أحدى

قدميها الصغيرتين حسب وانج لنج أن لا شيء في العالم يقارن بجمال قدميها الدقيقتين و يديها النحيلتين!

كان لا بد لمجيء لوتس وخادمتها كوكو ان يحدث أثراً في البيت، لأن وجود امرأتين في بيت واحد لا يكفل الهدوء والطمأنينة، ولكن وانج لنج لم يكن يقدر ذلك، ثم صار يتجاهل نظرات أولان العابسة وملاحظات كوكو الحادة. وما لبث مع الايام أن شعر بوجود عداء بين أولان وكوكو.. وأدهشه ذلك لأنه كان يتوقع خصومة بين أولان و بين لوتس إذ كان قد سمع بأشياء تحدث من هذا الطراز بين الزوجين، فبعض النساء يؤثرن أن يشنقن أنفسهن اذا جاء زوج احداهن بامرأة أخرى الى المنزل، و بعضهن يجعلن حياة الزوج جحيماً لا يطاق. ولكنه كان مرتاح البال لأن أولان امرأة تحب الصمت بطبيعتها، غير أنه لم يقدر أنها اذا لزمت الصمت حيال لوتس فان غضبها سينفجر ضد كوكو!

ولم يكن يفكر إلا في لوتس حين قالت له: «دعني أتخذ من هذه المرأة خادمة لي فاني وحيدة في العالم إذ مات أبي وأمي وأنا طفلة صغيرة فباعني عمي حين أصبحت فتاة حسناء لأعيش تلك العيشة. والآن ليس لي أحد في العالم!». وكانت تبكي وهي تقول له ذلك فلم يقدر أن يرفض لها طلباً. وقد رأى أنها ستكون وحيدة في بيته ولن يخدمها أحد، ولا ينتظر من أولان أن تخدمها بأي حال، بل انها لن تكلمها ولن تعترف بوجودها في البيت.. وعلى ذلك رضي أن يستخدم كوكو لتقوم على خدمتها!

ودخلت كوكو المطبخ يوماً لتحضر ماء ساخناً لسيدتها، فوجدت القدر خالية، وكانت أسئلتها لا تلقى أي جواب من أولان. فاضطرت الى أن تغلي ماء بنفسها. كما اضطرت للسبب نفسه الى أن تعمل بنفسها عصيدة أرز للوتس، ولما شكت كوكو الى وانج لنج جاء الى أولان غاضبا وقال لها:

ـ ألا يمكنك أن تضيفي قليلا الى ما تطهين؟

فأجابت قائلة: «اني على الأقل لست جارية للجواري في هذا البيت!».

وعندئذ تملكه الغضب وهزها من كتفيها وقال لها: «لا تكوني حمقاء!. انه ليس للجارية ولكن لسيدتها!».

فصبرت على هذا العنف منه ونظرت اليه وقالت: «تلك التي أعطيتها اللؤلؤتين اللتين كانتا لي؟».

وإذ سمع ذلك تدلت يداه ولم يحر جواباً وولى غضبه وذهب مستحييا ثم قال لكوكو: «سنبني فرناً آخر ومطبخاً ثانياً. ان روجتي الأولى لا تعرف شيئاً من لذائذ الطعام اللازمة للأخرى لأجل جسدها الذي يشبه الزهرة وستشاركينها أنت فيها. وعندئذ تطهين ما يحلو لكما!».

وفي أحد الايام استيقظ أبوه بغتة من نومه. ودب على عصاه حتى وصل الى باب علقت عليه الستائر بين الغرفة الكبرى والفناء الذي تتريض فيه لوتس. ولم يكن ذلك الشيخ قد لحظ ذلك الباب من قبل، ولا أبدى ما يدل على علمه ببناء الجناح الجديد، أو بمجيء أحد الى البيت، ولم يخبره وانج لنج قط بأنه اتخذ لنفسه امرأة ثانية. لأنه كان أصم لا يسمع أي حديث ولا يفقه أي نبأ!

ومد الشيخ يده فأزاح الستار، واتفق أن كان ذلك وقت المساء حين كان وانج لنج يتريض مع لوتس في الفناء وقد وقفا بجانب البركة وأخذا يتطلعان الى السمك، فلما رأى الشيخ ولده واقفا بجانب فتاة نحيلة مطلية الوجه، صاح بصوته المرتعش: «أتوجد عاهرة في البيت؟!».

وجعل يكرر هذه الجملة، وخاف وانج لنج أن تغضب لوتس فتصرخ وتضرب كفيها أحدهما بالأخرى كما تفعل كلما غضبت. فذهب الى أبيه وقاده بعيداً وهو يهدئه بقوله:

ـ اطمئن يا أبي. انها ليست عاهرة ولكنها زوجتى الثانية!

ولكن الشيخ لم يسكت.! وسواء أسمع ما قاله ابنه أم لم يسمعه، فقد صار يصيح مرة بعد أخرى: «أتوجد عاهرة هنا؟!». ثم قال لوانج لنج: «لقد كانت لي امرأة واحدة. وكان لأبي امرأة واحدة. وكنا نفلح الارض!». وما لبث أن صاح من جديد: «اني أقول انها عاهرة!».

وقد خلق ذلك اضطراباً في بيت وانج لنج إذ كان يستحي أن يلوم أباه، وفي الوقت نفسه يخشى أن تغضب لوتس وهي سريعة الغضب!. وقد أحدث ذلك هماً جديداً له وجعل من غرامه عبءاً فوق كاهله!

وذات يوم سمع صرخة صادرة من الغرف الداخلية، وتبين صوت لوتس فجرى اليها، واذا به يرى أن طفليه التوأمين كانا قد ذهبا بأختهما البلهاء الى غرفة لوتس مدفوعين بباعث الفضول، وكان أطفال وانج لنج الأربعة لا يفتأون يتساءلون عن تلك السيدة التي جاءت وسكنت تلك الغرف، غير أن الوالدين الكبيرين قد تهيبا الذهاب الى هناك، أما الطفلان التوأمان فقد جرؤا في ذلك اليوم على الذهاب ومعهما أختهما البلهاء المسكينة.

وشكت لوتس الى وانج لنج من قدوم الطفلين اليها وودت لو وجد طريقة لمنعهما. غير أنه لم يجد وسيلة لذلك سوى أن ينهاهما عن المجيء اليها!

وانتهى الصيف ونظر وانج لنج صباح يوم الى حقوله فكان كمن يصحو من النوم، فقد رأى أن الماء انحسر عن الارض وبدت هذه لامعة تحت أشعة الشمس، وصاح في نفسه صوت أعمق من صوت الحب، يناديه بالعودة الى الارض، فمزق الثوب الجديد الذي يرتديه، وخلع حذاء المخمل من قدميه وجواربه الحريرية من تحته، وشمر سراويله الى ركبتيه، ووقف منتصب القامة قوياً مشتاقاً وصاح قائلا:

ـ أين الفأس؟. أين المحراث؟.. أين البذور لزراعة القمح؟.. تعا يا تشنج يا صديقي... نادي الرجال!. سأخرج معكم الى الارض!

وهكذا شفي وانج لنج من حمى الحب حين شعر بالارض الرطبة تحت قدميه، وشم رائحتها تنبعث من الأخاديد، وصار يأمر عماله بأن يعملوا هنا وهناك، وأن يحرثوا هذه البقعة ثم تلك، وهو واقف وراء الثيران يفرقع وراءها سوطه، ثم نادى تشنج وسلمه المقود، وتناول بنفسه فأساً وأخذ يعمل في الارض شاعراً بلذة عظيمة!

ولما حل المساء عاد الى بيته منهك القوى يشعر بالظفر في نفسه، وجذب الستار الذي بباب الغرفة الداخلية فوجد لوتس تسير لابسة ثيابها الحريرية، ولما رأته صاحت جزعاً من الطين والتراب على ثيابه، وارتاعت حين اقترب منها، ولكنه ضحك وأمسك بيديها الصغيرتين في يديه الملوثتين بالطين، ثم ضحك مرة أخرى وقال لها: «ها أنت ذي ترين أن سيدك ليس إلا مزارعاً، وانك لست إلا زوجة مزارع!».

ولكنها صاحت احتجاجاً: «لن أكون زوجة مزارع، مهما تكن أنت!».

فضحك ثانية وخرج من لدنها. ثم تناول عشاء الأرز ولم يغتسل إلا كارهاً قبل أن يأوي الى فراشه. وضحك وهو يغتسل لأنه لا يغتسل من أجل أية امرأة، فقد أصبح حراً طليقاً!

ثم خيل اليه أنه غاب عن أرضه طويلا، فان الارض كانت تتطلب الحرث والزرع، فصار يكدح فيها كل يوم، وانقلب الشحوب الذي أحدثه فيه الحب في الصيف، سمرة داكنة من أشعة الشمس، وكانت يداه قد علتهما طراوة من خمول الحب، فعادتا جامدتين من الكد بالفأس، وترك مقبضا المحراث أثرهما فيهما!

وصار اذا عاد الى بيته ظهراً أو مساء يأكل بشهية من الطعام الذي أعدته أولان من الأرز والكرنب والفول وعيدان الثوم محشوة في الخبز.

واذا وضعت لوتس يدها على أنفها فراراً من رائحة الثوم التي تفوح منه، كان يضحك ولا يبالي!.

وعادت اليه صحته، وصار يذهب الى لوتس أحياناً، ولكنه سرعان ما يلتفت الى شؤونه الأخرى!

وهطلت الأمطار في موسمها وجادت المحاصيل وباعها وانج لنج في أسواق المدينة بأسعار عالية، لأنه أرجأ البيع حتى ارتفع السعر، وفي هذه المرة أخذ ابنه الأكبر معه الى المدينة، وشعر بالفخر اذا أخذ هذا الابن يقرأ له و يكتب له ما يتطلب القراءة أو الكتابة. وقد وقع على العقد باسم أبيه!

ولما تم ذلك وعادا الى القرية معاً، خطر لوانج لنج أن ابنه قد بلغ مبلغ الشباب فيجب أن يختار له زوجة، حتى لا يفعل كما فعل هو في شبابه، ولا يذهب الى بيت كبير ليأخذ جارية فاضت عن الحاجة!

وهكذا آلى وانج لنج أن يبحث لولده الأكبر عن زوجة، ولم يكن ذلك بالمهمة اليسيرة لأنه أراد ألا يصاهر أسرة فقيرة عادية. وقد تحدث بذلك ذات ليلة الى تشنج بعد أن صارا وحدهما بالقاعة الوسطى من البيت، وبحثا معا ما يجب شراؤه لزراعة الربيع. ولم يتوقع كبير عون من تشنج في هذه المسألة لأنه رجل بسيط، ولكنه كان يعلم أن له أمانة الكلب ووفاءه، وقد سره أن يصارح أحداً بما يجول بخاطره. وكان تشنج واقفاً بانكسار أمام المائدة في حين جلس وانج لنج على مقعد، وقد دعاه وانج لنج الى الجلوس معه ولكنه اعتذر تأدباً، ولما سمع منه تلك الرغبة تنهد وقال: «لو كانت ابنتي هنا لقدمتها زوجة لولدك بغير مقابل لأبرهن على عرفاني بصنيعك. ولكني لا أدري أين هي ولعلها قد ماتت!».

فشكره وانج لنج ولم يرض أن يصارحه بأن ولده يجب أن يتزوج فتاة أعلى مقاماً بمراحل من ابنته!.. لكنه منذ ذلك الحين كتم رغبته،

وجعل يبحث خفية عن فتاة من اسرة غنية من المدينة تصلح زوجة لأبنه. وقد حرص على الا يخبر زوجة عمه بذلك. فانها قد تفيد اذا طلب الانسان لنفسه امرأة من مشرب شاي، اما البحث عن زوجة من أسرة طيبة فان غيرها أولى بهذه المهمة!.

ولما جاء فصل الربيع تطور الولد الأكبر لوانج لنج تطورا مفاجئا ولم يعد طفلا وصار تغلبه الكآبة، و يصدف عن الأكل، و يكره الدراسة والكتب، ففزع وانج لنج لهذا التحول وجعل يحثه على الأكل بغير جدوى، ثم علم من رنده الأصغير أن أخاه الأكبر يغيب عن المدرسة أحياناً، وهنا تناول قصبة وانهال بها عليه وهو يقول: «أأنفق الفضة على دراستك بغير جدوى؟».

ولما سمعت أولان صوت الضرب جرت من المطبخ و وقفت بين زوجها وولدها حتى سقطت عليها ضربات عديدة مع حرص وانج لنج على تفاديها والعجيب ان الفتى تحمل الضرب بغير شكوى أو صياح او بكاء. وقد فكر وانج لنج في هذا ليلا واذا بأولان تجيء اليه وتقول. «لا فائدة من أن تضرب الولد كما فعلت اليوم. لقد رأيت مثل هذه الحالة تعتري الأسياد الصغار في البيت الكبير فكانوا تتولاهم الكآبة و يكرهون الأكل، وعندئذ كان السيد الكبير يجد لهم جواري اذا لم يجدوهن لأنفسهم».

- فجادلها وانج لنج قائلا: «لا حاجة بنا الى تقليد القوم في ذلك البيت الكبير!.. انني حتى كنت في مثل سن ولدنا ما كنت مكتئبا».

فقالت له أولان: «اني لم أشهد تلك الحالة إلا على الأسياد الصغار. أما أنت فاذكر أنك كنت مشغولا بالكد في الارض. في حين أن ولدنا لا يكاد يشغله شيء!».

ففكر وانج لنج هنيهة ورجع به الفكر الى ذكريات شبابه ثم قال: «اني لن أشتري له جارية كما كانوا يفعلون في البيت الكبير، ولكني سأخطب له فتاة وسأزوجه في أقرب وقت!».

حملة الجراد

عاد الولد الأكبر لوانج لنج الى البيت ذات صباح، محمر الوجة من كثرة الخمر التي احتساها، وكان يترنح في مشيته. وسمعه وانج لنج يتعثر في فناء الدار فجرى ليرى ما هنالك، فلما وجد ابنه على تلك الحال لأنه لم يكن معتاداً إلا على الخمر الخفيفة التي تصنع من أرز يتخمر، ثم رآه يسقط على الارض، ارتاع ونادىء أولان فرفعاه معاً، وغسلت أمه وجهه وثيابه، ثم أرقدته على السرير في غرفتها، وبعدئذ استغرق في نوم عميق!

وذهب وانج لنج الى الغرفة التي ينام فيها ولداه فوجد ابنه الأصغر يتثاءب ويضع كتبه في قطعة مربعة من القماش ليذهب بها الى المدرسة، فسأله: «ألم ينم أخوك الأكبر بجانبك في السرير ليلة أمس؟».

فأجاب الغلام بتردد: «كلا». وبان عليه الخوف فصاح به أبوه قائلا: «أين كان اذن؟». وأخذ يهزه بعنف. ولما لم يرد أن يجيب أمسكه من عنقه وهم بضربه فخاف الغلام وقال: «لقد أوصاني أخي الأكبر بألا أخبرك وإلا وخزني بابرة محماة، ووعدني بأن يعطيني دراهم اذا كتمت عنك السر!».

فاشتد بأبيه الغضب وقال: «تكتم أي سر؟».

فنظر الغلام حوله خائفا ثم قال: لقد ذهب ثلاث ليال متوالية ولكني لا أدري ماذا كان يفعل سوى أنه ذهب مع ابن عمك!».

فتركه وانج لنج وذهب تواً الى الغرف التي يسكنها عمه وأسرته، وهناك وجد ابن عمه أحمر الوجه من أثر الخمر ولكن أثبت قدماً من

ولده لأنه كان أكبر منه وقد اعتاد مباذل الشباب. فصاح به وانج لنج: «الى أين قدت ولدي؟».

فقال الشاب ساخراً: «ان ابنك لا يحتاج الى أحد يقوده فهو يستطيع أن يسير وحده!».

ولكن وانج لنج كرر السؤال و بوده لو يقتل ابن عمه هذا الذي أفسد ولده!. وارتاع الشاب من منظره فقال أخيراً: «لقد كان عند البغي التي تسكن ساحة البيت الكبير!».

ولم يرتح بال وانج لنج إلا بعد أن ذهب بنفسه الى تلك البغي وأمرها أن تطرد ابنه الأكبر إن هو عاد اليها. ونقدها مبلغاً من المال.

ثم رجع الى البيت ونادى كوكو تواً وكلفها أن تذهب الى تاجر القمح بالمدينة لتخطب ابنته لولده. ثم دخل عند ولده وكان لا يزال نائماً ورآه جميلا طاهراً وعندئذ فكر في تلك البغي العجوز المطلية الوجه فاشمأزت نفسه وشعر بغثيان، ثم جاءت أولان الى جانب السرير وأخذت تمسح العرق الذي يتصبب من جبين ولدها.

ثم قام وانج لنج وذهب غاضباً الى غرفة عمه وقد نسي قرابته منه وانما تذكر أنه أبو الشاب الذي دل ولده على طريق الفساد فصاح به: «لقد آويت في بيتي ثعابين ما لبثت حتى لدغتني!».

وكان عمه جالساً الى مائدة يتناول طعام الفطور فقال له ببلادة: «كيف ذلك؟».

فقص عليه وانج لنج ما كان من ولده، ولم يزد عمه على أن قال: «وكيف تستطيع أن تمنع فتى من أن يصبح رجلا؟» وضحك ضحكة مثيرة أخرجت وانج لنج عن طوره فصاح به قائلا: «أخرج من بيتي أنت وولدك وزوجتك!».

ولكن عمه لم يحرك ساكناً وقال له ببرود: «أخرجنا من بيتك اذا استطعت!».

وفتح رداءه فرأى وانج لنج في بطانته لحية زائفة حمراء وقطعة من قماش أحمر. فتولاه خوف وذهول، وذهب عنه غضبه واعترته رعشة، إن تلك اللحية الحمراء وتلك القطعة من القماش الأحمر، هما الشارة التي اتخذتها عصابة من اللصوص كانت تعيث فساداً في المناطق الريفية الشمالية. وكثيرا ما حرقت بيوتاً وخطفت نساء وأعملت السلب والنهب وشنقت المزارعين بالحبال على أبواب منازلهم. فاذا أصبح [illegible] وجدوا وقد فقدوا عقولهم من الرعب إن لم يموتوا بنار الحريق!

ومنذ ذلك لم يطلب الى عمه مغادرة المنزل... بل ذهب الى ابن عمه وأعطاه بعض نقود فضية لينفقها في لهوه!

غير انه صار يرقب ولده عن كثب وصار لا يسمح له أن يغادر البيت بعد غروب الشمس، وهذا الذي أغضب الفتى فصار يضرب اخوته الصغار لغير سبب!

ثم صار يذهب الى حقوله كل يوم. فأحس البرء من سقمه والنجاة من همومه، فقد فعلت الارض الطيبة فعلها وشفته أشعة الشمس وأحاطته رياح الصيف الدافئة بالأمن والسلام.

وكأنما أراد القدر أن يشغله عن التفكير في همومه، فبعث من الجنوب سحابة صارت تقترب رو يداً رو يداً، وراقبها مثله أهالي القرية فتولاهم الفزع، حتى هبت ريح فطوحت بشيء تحت أقدامهم. ولما التقطوه وجدوه جرادة ميتة سقطت لخفتها من بين أسراب الجراد الطائر. وعندئذ نسي وانج لنج كل ما كان يشغل باله، نسي زوجتيه وابنه وعمه وأسرته، وهرع مع بعض أهالي القرية يكافحون هذا العدو المغير. ولكن بعضهم الآخر قنعوا بهز رؤوسهم مستسلمين قائلين: «لا طائل من مكافحة الجراد فان الله يريد لنا أن نجوع!».

على أن وانج لنج لقي جزاء كده فان أحسن حقوله بقيت بمنجاة من فتك الجراد حتى اذا حلق من جديد وارتفع في الجو كان لدى

وانج لنج ما يحصده من زرعه، وقد أنقذت زراعة الأرز، ومن ثم كان راضياً. وبعدئذ أخذ كثير من الأهالي يشوون الجراد و يأكلونه ولكن وانج لنج لم يشاركهم في ذلك، ومع هذا لم يعترض على أولان إذ أخذت تقلي الجراد في الزيت وصار العمال يأكلونه، والاطفال يتذوقونه وهم خائفون من عيونه الكبيرة....

على أن حملة الجراد هذه أفادت وانج لنج فقد مكث سبعة أيام وهو لا يفكر إلا في أرضه وزراعته!

وفي ذات يوم، بعد أن اطمأن وانج لنج الى استقرار الأمن والسلام في بيته، جاءه ولده الأكبر على أثر عودته من الحقول ظهراً، وقال له: «اذا أردت مني أن أصير عالماً فان ذلك المعلم الشيخ لم يبق عنده ما يعلمنيه!».

وكان وانج لنج في تلك اللحظة قد غمس فوطة ماء ساخن بالقدر وأمسك بها وهي تبعث بخاراً أمام وجهه فقال له: «وماذا تريد اذن؟».

فتردد الفتى لحظة ثم قال: «أريد أن أسافر الى مدينة بالجنوب وأدخل مدرسة كبيرة أدرس فيها لأكون عالماً».

فمسح وانج لنج وجهه بالفوطة الساخنة وقال بحدة من أثر التعب الذي يحسه من العمل بالحقول: «اني أقول لك انك لن تذهب فان العلم متوافر في هذه الجهات».

فرد الفتى غاضباً: «اذن فاعلم أني سأذهب الى الجنوب لأني لا أرضى أن أمكث في هذا البيت الأحمق الذي أراقب فيه كأني طفل، وفي تلك البلدة الصغيرة التي تمتاز على قريتنا: سأذهب وأتعلم وأرى جهات أخرى!».

فنظر وانج لنج الى ولده فرآه شاحب الوجه وقد ارتدى جلباباً فضي اللون من الكتان، رفيعاً رطباً لأجل الصيف، وقد علت شفتيه شعرات

سوداء هي مقدمة شارب صغير، وكانت بشرته ناعمة و يداه رقيقتين كيدي امرأة. ثم نظر وانج لنج الى نفسه فرأى ثيابه ملطخة بالطين من أثر الكد بالحقول وكان يرتدي سروايل قطنية زرقاء ونصف جسمه الأعلى مجرد من الثياب، فلو رآهما أحد على هذا الشكل لحسبه خادماً وحسب ابنه سيداً، وأغرته هذه الفكرة بازدراء مظهر ولده فقال له: «الآن اذهب الى الحقول وضع قليلا من الطين على جسمك حتى لا يحسبك الناس امرأة، واشتغل قليلا في مقابل الأرز التي تأكله!».

ونسي وانج لنج أنه كان فخوراً بأن ابنه كان متعلماً يعرف القراءة والكتابة، واندفع الى الخارج يضرب الارض بقدميه الحافيتين و يبصق باشمئزاز. وظل الفتى واقفاً ينظر الى أبيه في بغض ولكن وانج لنج لم يلتفت وراءه!

ولما ذهب وانج لنج في تلك الليلة الى الغرف الداخلية وجلس الى جانب لوتس وهي راقدة على السرير وكوكو حانية عليها تروح عنها بمروحة، قالت له لوتس في غير اكتراث: «ان ابنك الأكبر يشكو و يريد الذهاب الى الجنوب!».

فسألها: «ما شأنك بذلك؟. اني لا أحب أن يأتي الى هذه الغرف بعد أن كبر!».

فأسرعت لوتس تقول: «كلا!. كلا!. ان كوكو هي التي قالت لي ذلك!».

وقالت كوكو: «انه فتى وسيم وقد كبر على التبطل هنا!».

فتذكر وانج لنج ما كان من كدره نحوه وقال: «كلا!. انه لن يذهب الى الجنوب!».

ورأت لوتس أنه غاضب فصرفت كوكو.. وفي الايام التالية لم يذكر أحد كلمة عن هذه المسألة!

ثم بدا على الفتى أنه راض عن بقائه وكف عن الذهاب الى المدرسة بالبلدة و صار اذا عاد أبوه الى البيت يأوي الى غرفته و يقرأ في الكتب، وكان وانج لنج راضياً عن ذلك يقول لنفسه: «لقد كانت نزعة من نزعات الشباب، وهو لا يعرف ماذا يريد، ولم يبق إلا ثلاث سنوات و يتزوج، ولعلي بمزيد من الفضة أستطيع أن أجعلها سنتين أو سنة واحدة!».

ثم نسي وانج لنج ولده لأن المحاصيل كانت جيدة برغم ما التهمه الجراد، فعوضت ما كان قد أنفقه على لوتس. وعاد يقدر قيمة الذهب والفضة، وعجب كيف كان ينفق بلا حساب على امرأة؟! ومع هذا كانت أحياناً تستهوي قلبه وان لم يجن بحبها كذي قبل، وان يكن قد أدرك صدق ما قالته له زوجة عمه في البداية، من أنها أكبر سناً من مظهرها. ولم تكن تفكر قط في أن تحمل وتلد، غير أنه لم يبال ذلك لأن له أبناء وبنات، وكان لا يريد منها إلا متعته، وكانت قد سمنت وامتلأ بدنها النحيل وزادت بذلك جمالا على جمال!

وكان جديراً بوانج لنج أن يهنأ بحياته التي لا ينغصها هم، لولا أنه ذات ليلة كان جالساً وحده وهو يحسب على أصابعه ما يبيعه من حاصلات الحنطة والأرز، واذا بأولان تأتي اليه في هدوء، وكانت بمضي السنين قد غارت عيناها وبرزت عظام وجهها، وقالت له بايجاز: «أحس ألماً كالنار في أحشائي!».

وكان بطنها قد كبر دون حمل، ولكنها كانت لا تزال تستيقظ عند الفجر وتؤدي ما ألفته من عمل، وكان وانج لنج لا ينظر اليها إلا كما ينظر الى مائدة أو كرسي في البيت أو شجرة في فنائه، دون أن يمعن النظر كما يفعل اذا أبصر ثوراً يخفض رأسه أو خنزيراً يعزف عن الأكل!

وظلت مع هذا تؤدي عملها صامتة ولا تكلم سوى زوجة عم قرينها عند الضرورة، ولا تكلم كوكو بأي حال، ولم تذهب قط الى الغرف الداخلية، واذا خرجت لوتس من جناحها لتتريض قليلا، أوت أولان توا الى غرفتها ولم تخرج منها إلا اذا أنبأها أحد بانها ذهبت!

ولم يخطر لوانج لنج أن يعرض عليها استئجار خادمة لتعاونها أو تحمل عنها عبء العمل مع أنه استأجر لنفسه عمالا في الحقول!

عرس ومأتم!

ولم يجد وانج لنج بداً من الموافقة على سفر ابنه الأكبر الى الجنوب، وشعر بعد ذلك بأن البيت خلا من الهم، وحسب أن من الخير للفتى نفسه أنه سافر. ثم أخذ يعني بأولاده الآخرين إذ كان دائماً مشغولا عنهم بأعمال الزرع والحصاد.. وقد عزم أن يخرج ولده الثاني من المدرسة ليتدرب على اعمال التجارة حتى لا يتملكه طيش الشباب كأخيه!

وكان هذا الابن الثاني يختلف عن أخيه الأكبر في أمور كثيرة، فقد كان قصير القامة صغير القد أصفر البشرة، وقد ورث عن جده الميل الى السخرية اللاذعة، وقد أمل وانج لنج منه أن يصبح تاجراً بارعاً. ورأى انه من الخير له أن يكون له ابن في المتاجر التي يبيع فيها حاصلاته فيجعل الموازنة ترجح كفتها قليلا لصالحه... ومن ثم قال يوماً لكوكو: «اذهبي الى والد خطيبة ابني الأكبر وقولي له ان عندي ما أقوله له. [illegible] أن أتناول معه كأس نبيذ!».

فذهبت كوكو الى التاجر وجاءت تقول: «انه يسره أن يراك ظهر اليوم نفسه في بيت احدكما!».

غير أن وانج لنج لم يرد أن يأتي التاجر الى بيته حتى لا يضطر الى الاستعداد لمجيئه. ولذا اغتسل وارتدى رداءه الحريري وذهب الى شارع الكباري حيث يقع بيت ليو التاجر. وفتحت له الباب امرأة خادمة وكانت تعرف أنه والد خطيب السيدة الصغيرة. ولما صار وحده في غرفة الجلوس أخذ ينظر حوله و يفحص الستائر المعلقة بالباب والخشب

الذي صنعت منه المنضدة، وقد سره أنها كلها تدل على يسر ورخاء وان لم تنبىء عن غنى فادح. وهو في الحق لم يكن يريد لابنه الأكبر زوجة من أسرة كبيرة الثروة فتتكبر عليه وتتمرد وتطلب لنفسها غالي الثياب!

ثم سمع وقع خطى ثقيلة تقترب فقام واستقبل التاجر ليو وقد انحنى كل منهما للآخر وهو يسترق النظر اليه وقد سرى بينهما ميل متبادل. ثم جلسا وشربا نبيذاً ساخناً أتت به الخادمة وأخذا يتكلمان ببطء عن أمور شتى، وعن أثمان الحاصلات وما يكون عليه سعر الأرز هذا العام. وأخيراً قال وانج لنج: «لقد جئت لأمر، واذا لم يصادف منك قبولا فلندعه ونتكلم في شئون أخرى. ولكن اذا كنت في حاجة الى خادم لك في متجرك الكبير فان عندي ولدي الثاني وهو ذكي ذرب اللسان، أما اذا كنت في غير حاجة اليه فلنتكلم في شئون أخرى».

فقال ليو: «اني في حاجة شديدة الى مثل هذا الشاب اذا كان يعرف القراءة والكتابة».

فقال وانج لنج بفخر: «ان ولدي الاثنين متعلمان!».

فقال ليو: «حسناً! اذن دعه يأت الي حين يشاء، وسيكون راتبه في البداية طعامه فقط حتى يتعلم العمل، وبعد سنة اذا أثبت كفاءة فسأعطيه قطعة فضية في نهاية كل شهر قمري، وبعد ثلاث سنوات يرتفع راتبه الى ثلاث قطع ذهبية وعندئذ لا يكون صبياً بل يرتفع في سلم التجارة كما تؤهله له كفايته. والى جانب هذا الراتب يمكنه أن يكسب ما يستطيع من هذا المشتري أو ذاك البائع، ولن أعترض على ذلك. ولما كانت أسرتانا مرتبطتين برابطة المصاهرة فاني لا أطلب منه ضمانة!». وعندئذ قام وانج لنج شاكراً.

غير أنه في تلك الليلة نام قلقاً بجانب لوتس واستيقظ فأخذ يفكر في مجرى حياته وكيف كانت أولان أول امرأة عرفها وكيف كانت له الخادمة الأمينة.

وفي الأيام التالية بعث ولده الثاني الى متجر ليو بالبلدة، ووقع على وثائق خطبة ابنته الثانية لابن ليو، واتفق معه على الصداق وهدايا الثياب والحلي وحدد يوم الزفاف. وعندئذ ارتاح باله وقال لنفسه: «الآن قد دبرت مستقبل أبنائي، أما ابنتي البلهاء المسكينة فلا تستطيع إلا أن تجلس في الشمس. وأما ابني الأصغر فسأحتفظ به للعمل في الزراعة ولن يذهب الى المدرسة ما دام لي ولدان يعرفان القراءة والكتابة».

وشعر بالفخر لأن أحد أولاده سيكون عالماً والثاني تاجراً والثالث مزارعاً!

وهكذا اطمأن باله من ناحية أولاده ولكن فكره كان يتجه بالرغم منه الى زوجته التى ولدتهم له.. ولأول مرة منذ زواجه بها شغل فكره بها، وصار لا ينظر اليها الآن نظرة الرجل الى امرأة ولكن نظرة الذي يؤنبه ضميره بسببها، وكانت قد نحل جسمها وزادت بشرتها صفرة. وكان يسمعها في الصباح أحياناً وهي تتأوه حين تقوم من فراشها وحين تشعل الفرن. فاذا سألها ما بها سكتت ولم تفصح. وصار من تأنيب ضميره ينظر اليها كلما جاءته بالطعام أو كلما أبصرها تروح وتجيء بالمنزل. وفي أحد الايام انحنت لتكنس الارض بعد أن تناولوا الطعام فرأى وجهها ينقلب شاحباً من أثر ألم تحسه وفتحت فاها وأخذت تلهث صامتة، ووضعت يدها على بطنها فسألها بحدة: «ماذا بك؟». فأجابت: «انه الألم القديم الذي في أحشائي!».

فقال وانج لنج لابنته الصغرى: «خذي المكنسة من أمك فانها مريضة!»

ثم قال لأولان بعطف لم تعهده منه منذ سنين: «ارقدي في سريرك وستأتيك البنت بماء ساخن!».

فأطاعت وذهبت الى سريرها صامتة. ثم جلس يستمع الى أنينها

حتى لم يعد يحتمل سماعه وقصد الى المدينة ليحضر لها طبيباً دله عليه كاتب في سوق الحبوب التي يشتغل بها ولده الثاني!

وكان الطبيب جالساً متبطلا يحتسي كوب شاي، وهو شيخ ذو لحية طويلة وله منظار كبير فوق أنفه، و يرتدي جلباباً قذراً أسمر يغطي كماه يديه، ولما ذكر له وانج لنج أعراض المرض الذي تعانيه زوجته فتح درجاً وأخرج منه قدراً من الاعشاب ولفها في قطعة قماش وقال له: «الآن اذهب معك!».

ولما وصلا الى البيت كانت أولان قد غلبها النعاس، وكان العرق يسيل على جبينها وعلى شفتها العليا. ومد الطبيب يده اليابسة الصفراء التي تشبه يد قرد، وجس نبضها ثم هز رأسه و بان عليه الجد وقال: «تمدد في الطحال وتعب في الكبد، وورم في الرحم وتحلل في المعدة. والقلب قليل الحركة ولا شك أن به ديداناً!».

فكاد قلب وانج لنج يقف عن الحركة حين سمع ذلك وصاح به غاضباً: «اذن عالجها!».

وهنا فتحت أولان عينيها ونظرت اليهما وهي لا تكاد تدري شيئاً من شدة الألم. ثم استطرد الطبيب الشيخ قائلا: «انها حالة صعبة. واذا أردت مني أن أعالجها من غير أن أضمن الشفاء فان أجر العلاج يكون عشر قطع فضية، وسأصف لها في هذه الحالة أعشاباً وقلب نمر مجففاً وسن كلب، تغلى كلها معاً وتشرب المنقوع. ولكن اذا أردت لها شفاء تاماً مضموناً فاني أتناول منك خمسمائة قطعة فضية!».

ولما سمعت أولان هذا الرقم الضخم تنبهت حواسها وقالت: «كلا. ان حياتي لا تسوي هذا القدر! اننا يمكننا أن نشتري بهذا المبلغ قطعة أرض جيدة!».

فاشتد بوانج لنج تأنيب الضمير وقال بحدة: «اني لا أريد وفيات في هذا البيت!». وقال للطبيب: «سأدفع لك خمسمائة قطعة فضية!».

وعندئذ لمعت عينا الطبيب الشيخ بالطمع، ولكنه خاف عقوبة القانون اذا لم يف بعهده وماتت المرأة ولذا قال آسفاً: «اني اذا نظرت الى بياض عينيها أراني قد أخطأت. لا بد لي من خمسة آلاف قطعة فضية لأضمن لك شفاءها التام!».

فنظر وانج لنج الى الطبيب في صمت وأدرك ما يقصده. انه لا يملك مثل هذا القدر من الفضة إلا اذا باع أراضيه، ولكنه أيقن أنه حتى في هذه الحالة لا جدوى من العلاج، فكأن الطبيب انما قال: «ان هذه المرأة ستموت!»

وخرج مع الطبيب ودفع له عشر قطع فضية. ولما ذهب دخل وانج لنج المطبخ المظلم الذي قضت أولان معظم أوقاتها فيه، وكان الآن خالياً فلا يراه أحد هناك، ثم أدار وجهه نحو الحائط المسود من الدخان، وأخذ يبكي!

وكانت أولان تموت موتاً بطيئاً!. وقد ظلت شهور الشتاء على سريرها وهي تجود بروحها وأدرك وانج لنج وأولاده أنها كانت عماد البيت وأصل راحتهم جميعاً. وبدا كأن أحداً لا يعرف الآن كيف يشعل وقود الفرن وكيف يطهو الطعام وأي نوع من الزيت يليق لهذا الصنف أو ذاك. وصار الفتات يمكث تحت المائدة من غير أن يزيحه أحد. وبذل الغلام الصغير جهده ليملأ فراغ امه في خدمة جده، وكان هذا لا يفهم لماذا صارت أولان لا تحضر له الماء الساخن ولا تساعده على الرقاد كذي قبل، وساءه ذلك، حتى أخذه وانج لنج يوماً الى غرفة أولان وأراه اياها وهي راقدة على السرير فأدرك أنها مريضة. أما الفتاة البلهاء فانها وحدها لم تفهم شيئاً، وكانت أمها هي التي تطعمها وتجلسها في الشمس نهاراً وتقودها ليلا الى فراشها. فصار وانج لنج يحاول جهده أن يقوم بهذه المهام. وقد نسيها ليلة فباتت طول الليل في البرد خارج الدار وأصبح وانج لنج يسب أولاده ولكنه ذكر انهم لا يزالون أطفالا صغاراً.

وفي خلال الأشهر التي مرضت فيها أولان كان وانج لنج لا يكترث لأرضه وزراعته، وقد عهد الى تشنج بكل ما كان يعمله، وصار في الليل وفي الصباح يذهب الى باب غرفة أولان و يسأل همساً عن حالها. وكثيراً ما كان يجلس الى سريرها فاذا وجد الجو بارداً أشعل الفحم في مدفأة من الخزف، وكانت تحتج على ذلك خشية التبذير.

وفي أحد الايام نفد صبره وقال: «لست أحتمل ذلك! سأبيع كل أرضي اذا كان في ذلك شفاؤك!».

فابتسمت له وقالت بصوت كالهمس: «كلا!. لن أدعك تفعل ذلك، لأني لا بد لي أن أموت على أي حال. ولكن الارض ستبقى لك بعدي!».

ولكنه لم يقدر أن يسمعها تذكر موتها، فكان يقوم تواً كلما ذكرته. ومع هذا كان موقناً انها ستموت، فاقتضاه الواجب أن يذهب الى صانع توابيت ونظر الى ما عنده منها واختار تابوتاً أسود من الخشب الثقيل الجامد. وقال له النجار: «اذا اشتريت اثنين فان ذلك يكون أرخص بنسبة الثلث مما لو اشتريت اثنين مفردين. ولماذا لا تشتري تابوتاً لنفسك أيضاً فتطمئن؟!».

فقال له: «كلا!.. سيقوم أولادي لي بهذه المهمة حين أموت!».

ولكنه وتذكر أن أباه الشيخ قد أصبح على حافة القبر فرضي أن يشتري تابوتين معاً! ولما عاد الى البيت أنبأ أولان بما فعله فسرت، وبعد ذلك صار يمكث عندها عدة ساعات كل يوم من غير أن يتبادلا سوى كلمات قلائل، وأحياناً كانت تهذي وتتحدث عن أيام طفولتها، وسمعها تقول في هذيانها: «سأحضر اللحم الى الباب ولن أدخل عند السيد الكبير لأني قبيحة الوجه».

وكثيراً ما كانت تصيح: «لا تضربني.. لن آكل من الطبق ثانية». وأحياناً كانت تقول: «أبي... أمي... أمي». وقالت مرة: «اني أعرف اني قبيحة الوجه ولا يمكن أن يحبني أحد!».

ولما قالت هذه الجملة الأخيرة في هذيانها تناول وانج لنج يدها في يده، وقد آلمه أن ما تقوله حق، فخجل من نفسه إذ لم يشعر نحوها حتى في هذه اللحظة بالحنان الذي تثيره لوتس في نفسه. وهذا الذي جعله يزيد شفقة عليها فصار يشتري لها طعاماً خاصاً وحساء غالياً وقلوب الكرنب. وفي تلك الأيام لم يكن يجد متعة عند لوتس لأنه كلما ذهب اليها بغية التسلية كان يفكر في أولان حتى اذا ضمها الى صدره كان لا يلبث قليلا حتى يتركها لتفكيره في زوجته الاخرى المريضة!

وأحياناً كانت أولان تفيق من ذهولها وتتنبه لما حولها، وقد طلبت كوكو مرة فدهش وانج لنج وناداها اليها، ولما جاءت استندت أولان الى ذراعيها بجهد وهي ترتعش وقالت لكوكو: «لقد عشت أنت في جناح السيد الكبير وكانوا يعدونك حسناء. ولكني أنا كنت زوجة لرجل وقد ولدت له أولاداً، وأنت لا تزالين جارية رقيقة!».

ولما أرادت كوكو أن ترد عليها أخرجها وانج لنج قائلا لها همساً: «انها لا تدري ما تقوله!» حتى اذا عاد الى أولان وجدها لا تزال معتمدة على ذراعيها وقالت له: «حين أموت لا أريد أن تأتي هذه المرأة أو سيدتها الى غرفتي وتلمسا متاعي. واذا فعلتا فاني سأبعث روحي بلعنة الى هنا!». ثم عادت الى النوم!

وفي ذات يوم قبل عيد رأس السنة، تحسنت حالتها فجأة كما تشتعل الشمعة ساطعة قبل انتهائها، وجلست في سريرها وطلبت شاياً تشربه، ولما جاء وانج لنج قالت له: «ان عيد رأس السنة قد اقترب ولم يعد كعك ولا لحم، وأنا لا أرضى أن تدخل تلك الجارية مطبخي، ولذا أريد منك أن تبعث في طلب خطيبة ابني الأكبر. انني لم أرها بعد، وحين تأتي سأنبئها بما ينبغي عمله!».

وقد سر وانج لنج لتحسن صحتها، وبعث كوكو الى التاجر ليو، ولما علم هذا بمرض أولان وأنها قد لا تعيش طويلا رضي أن تذهب بنته

اليها، وكانت في السادسة عشر [illegible] فهي أكبر من كثيرات تزوجن وذهبن الى بيوت أزواجهن.

وجاءت الفتاة محمولة على كرسي ومعها أمها وخادمة، ثم عادت أمها بعد أن سلمت ابنتها الى أولان، أما الخادمة فبقيت. وانتقل الاطفال من الغرفة التي كانوا ينامون بها وأفردت هذه الغرفة للعروس. ولم يكلمها وانج لنج لأن ذلك لا يجوز ولكنه كان يومىء برأسه كلما انحنت له، وقد سر منها لأنها كانت تعرف واجبها وكانت تنتقل في البيت في هدوء مسبلة أجفانها. وكانت فتاة طيبة، ولها نصيب من الجمال، ولكنها لم تكن بارعة الحسن حتى يركبها الغرور.

وكان مسلكها سليماً، وقد أخذت تعني بأولان وتخدمها، وخفف ذلك من ألم وانج لنج إذ صار في البيت الآن امرأة تعني بزوجته المريضة. ومكثت أولان بادية الرضا ثلاثة أيام، ثم خطر لها خاطر، فقالت لوانج لنج حين جاء اليها صباحاً ليسأل كيف قضت الليلة:

ــ هناك شيء أريده قبل أن أموت!

فقال لها: «لا تتحدثي عن الموت فان ذلك يكدرني!».

فابتسمت ثم قالت: «لا بد لي أن أموت لأني أحس دنو منيتي. ولكني لن أموت حتى يعود ابني الأكبر الى البيت ونحتفل بزواجه بهذه الفتاة الطيبة التي تخدمني. عندئذ أموت راضية مطمئنة!».

ولم يتوان وانج لنج عن بعث رسول الى ولده في الجنوب ليخبره بأن أمه مريضة في خطر الموت وأنه يجب أن يعود فوراً. وكلف ذلك الرسول أيضاً أن ينبىء ولده بأنه سيزف الى عروسه في اليوم الثالث لعودته وان أباه قد أعد وليمة العرس ودعا الضيوف لذلك الموعد!

وبعدئذ ذهب وانج لنج الى القرية ودعا رجالا ونساء، ثم ذهب الى المدينة ودعا كل من يعرفهم وطلب الى عمه أن يدعو كذلك أصدقاءه

وأصدقاء ولده. وما [illegible] ذلك إلا لأنه لم ينس قط علاقة [illegible] اللصوص ذوي اللحى الحمراء، وكان يجامله منذ علم ذلك.

وجاء الابن الأكبر في الليلة السابقة ليوم زفافه بعد [illegible] أكثر من سنتين. وما إن رآه وانج لنج حتى نسي ما سبب له من كدر، وكان قد أصبح شاباً طويل القامة ربعة الجسم وسيم الوجه. [illegible] أسود لامع. وكان يرتدي جلباباً من الحرير الأحمر الداكن وسترة [illegible] المخمل بغير أكمام، وبعد أن حيى والده قاده الى سرير [illegible] الدمع على خديه حين رآها مريضة ولكنه قال لها كلاما لطيفا [illegible] في نفسها الأمل والعزاء!

وبديهي أنه ما كان يجوز له أن يرى عروسه قبل [illegible] أخذتها لوتس عندها، وتعاونت مع كوكو وزوجة العم [illegible] استعداداً للزواج، فجعلنها تغتسل صباحاً وربطن قدميها [illegible] أبيض جديد تحت جواربها الجديدة، ودهنت لوتس جسمها بزيت لوز معطر، ثم ألبسنها الثياب التي جاءت بها من بيتها، وكانت ثوبا أبيض من الحرير عليه أزهار يلبس على اللحم، ثم رداء من صوف الخروف الفاخر، ثم ثوب الزفاف من (الساتان) الأحمر، ومسحن جبينها بالدهن ونزعن فائض شعرها وحاجبيها ببراعة، ثم وضعن مسحوقا أبيض وطلاء أحمر على وجهها ووضعن على رأسها تاج العروس وعلى وجهها قناعاً ذا خرز وألبسنها حذاء مزركشاً في قدميها الصغيرتين وصبغن أطراف أصابعها، وعطرن كفيها، وهكذا أعددنها للزفاف. وقد استسلمت الفتاة لكل ذلك في خفر وحياء!

وبعد ذلك جاء ابن وانج لنج مرتدياً تلك الثياب الجديدة التي جاء بها وقد حلق ذقنه من جديد، ووراءه أخواه. ولما رآهم وانج لنج امتلأ قلبه فخرا بهم. وكان جدهم لم يدر ما يدور حوله ولم يسمع إلا قليلا مما قيل له، والآن أدرك ما هنالك فأخذ يضحك بصوت كصوت الدجاج ويقول: «ها هنا زواج.. والزواج معناه أولاد وأحفاد!».

وكان وانج لنج يختلس النظر الى ولده ليرى هل نظر الى عروسه. والواقع أنه استرق اليها النظر من طرف عينيه، وكان ذلك كافياً فقد بان عليه الرضا والسرور، فقال وانج لنج لنفسه: «حسناً!. اذن قد اخترت له واحدة تسره!».

ثم انحنى الشاب والفتاة معاً للجد ثم للأب، و بعدئذ ذهبا الى أولان حيث كانت راقدة في سريرها، وكانت قد طلبت أن تلبس ثوبها الاسود الممتاز فجلست في سريرها حين جاءا اليها، وانحنيا أمامها فأشارت اليهما ليجلسا على السرير بجانبها ودعتهما لأن يشربا النبيذ و يأكلا أرز الزفاف أمامها قائلة: «وسيكون هذا السرير لكما حين أنتهي!».

ولكنهما لم يجيبا بشيء على قولها هذا، وجلس الاثنان بجانبها ساكتين وكل منهما في خجل من صاحبه، وجاءت زوجة العم بجسمها البادن، وقدمت لهما كأسين من النبيذ الساخن، فمزجا ما في الكأسين معا رمزاً الى أنهما أصبحا شخصاً واحداً. ثم أكلا الأرز ومزجاه كذلك، دلالة على أن حياتهما قد أصبحت واحدة وبهذا تمت مراسم الزواج. ثم انحنيا ثانية لأولان ولوانج لنج وخرجا سوية وانحنيا للمدعوين!

وبعد ذلك بدأت الوليمة وكانت الغرف والفناءان مملوءة بالموائد، وقد فاحت روائح الأطعمة وعلت أصوات الضحك، لأن الضيوف كانوا كثيرين جاءوا من كل فج، سواء من دعاهم وانج لنج أو من جاءوا معهم من غير أن يراهم من قبل، لأنه كان معروفاً بغناه والطعام سيكون وافرا في هذا الظرف. وكانت كوكو قد جاءت بطهاة من المدينة ليعدوا الطعام للوليمة، وكانت الألوان مما لم يعتده أحد في مطبخ مزارع. ومن ثم أكل الجميع وشربوا وكانوا كلهم في مرح وسرور.

وقد طلبت أولان فتح الابواب والستائر حتى تسمع الضجة والضحك وتشم رائحة الطعام. وكلما جاء اليها وانج لنج سألته: «هل لدى كل منهم الكفاية من النبيذ؟.. وهل الأرز الحلو وسط المائدة ساخن؟. وهل وضعوا فيه المقادير الصحيحة من الدهن والسكر والفواكه؟».



اولان في فراش المرض [illegible]

[illegible] الى صعقت [illegible]

[illegible] انا راهبة فريدة [illegible] هذا الذي ان يوشس اجلي [illegible]

[illegible] بزوجك وحدك وجد زوجك

[illegible] عليك [illegible] عبر هؤلاء!».

وكانت [illegible] بهذه الحصة الأخيرة [illegible] التي لم تتكلمها قط. ثم [illegible] كانا [illegible] لعلها تتكلم. وقد رفعت جسدها [illegible] بعد برهة وتكلمت وكأنها لا تحس بوجود أحد فقالت: «اذا [illegible] قبيحة [illegible] فان لي مع هذا ولداً. واذا كنت جارية فان لي ولداً في البيت.

[illegible] كيف تستطيع تلك [illegible] أن تدعم زوجي كما كنت [illegible] الجمال وحده لا يلد اطفالاً للرجل!».

[illegible] وانج لنج ليخرجا وجلس الى جانبها وهي [illegible] حيناً آخر ثم حملقت فيه بعينيها وكأن [illegible] تعرفه وكأنها تسائل نفسها من يكون. و بعدئذ [illegible] الأخير.

[illegible] الآن استعداداً لدفنها، [illegible] كلف زوجة عمه وولده [illegible] في التابوت الكبير الذي كان قد [illegible] رجالاً ليختموا التابوت كما جرى [illegible] لدفنها، وقد دله [illegible] اول يوم ملائم، فدفع [illegible] رئيس الكهنة على [illegible] يوم الدفن، لأنه لم يطق أن [illegible]

[illegible] وانج لنج مراسم الحداد بدقة، فجعل كل من بالبيت

يلبسون ثياباً بيضاء، ويربطن كل منهم حول رسغه قطعة قماش بيضاء، وجعل النساء يربطن شعرهن بشريط أبيض!

وبعد ذلك انتقل وانج لنج بكل متاعه الى جناح لوتس وأمر ابنه وعروسه أن يتخذا غرفة المتوفاة سكناً لهما!

وكأنما لم يقنع الموت بضحية واحدة فمات الشيخ وهو نائم.. وقد وجدته ابنة وانج لنج الصغرى صباحاً ولا حراك به ففزعت وجرت الى أبيها ولما استوثق وانج لنج من موته بنفسه ووضعه برفق في التابوت الذي اشتراه له من قبل وختمه ليدفنه مع أولان في يوم واحد، في قبر يعده بقطعة أرض يملكها فوق التل، على أن يكون قبره هناك أيضاً حين يوافيه أجله! ووضع تابوت أبيه فوق دكتين بالغرفة الوسطى حتى يأتي اليوم المحدد للدفن!

ولما أهيل التراب فوق التابوتين وسوى سطح القبرين، مكث وانج لنج وحده وأرسل الكرسي الذي جاء به الى المدينة خالياً. وعادت به الذكريات الى يوم أخذ اللؤلؤتين من أولان، وهي تغسل الثياب على حافة البركة، وود الآن لو لم يكن فعل ذلك. على أنه عزم ألا يدع لوتس تضع هاتين اللؤلؤتين في أذنيها بأي حال!

وفي أثناء عودته وحده ماشياً الى البيت قال لنفسه: «لقد دفن في ذلك القبر الشطر الأفضل من جسمي. والآن ستختلف الحياة في البيت أمام ناظري».

ثم بكى قليلا وجفف دمعه بظهر يده كما يفعل الأطفال.

الرجل الكبير!

في خلال تلك المدة كلها كان وانج لنج لا يكاد يفكر في زراعته إذ كان مشغولا بزواج ابنه وجنازة زوجته وأبيه، ولكن جاءه تشنج يوماً ينذره بارتفاع الماء في النهر و يتوقع فيضاناً يغمر الحقول فخرج معه ورأى منسوب الماء مرتفعاً فعلا في الخندق الذي تقع عليه قطعة الارض الاولى التي اشتراها من آل هوانج، وقد أصبح ذلك الخندق أشبه ببحيرة وامتلأت القنوات بالماء. ولما حل فصل الصيف تدفقت مياه الفيضان فجرفت في طريقها كل السدود!

وكأنما لم يكف ماء الفيضان، فصارت السماء تمطر مدراراً، أياماً متوالية!

وجلس وانج لنج بباب داره وكان الماء لم يقترب منها لارتفاعها فوق سفح تل، ولكنه كان قد غمر أرضه، وقد خاف وانج لنج أن يصل الماء الى القبور كذلك!

وفي تلك السنة لم يكن ثمة حصاد، وعانى الناس الجوع من جديد، وهاجر بعضهم الى الجنوب ولكن بعضهم مكثوا في قراهم وانضموا الى عصابات اللصوص التي تعيث في الارض فساداً، حتى لقد صارت تعمل النهب والسلب في المدن، وآخرون عمدوا الى الاستجداء كما استجدى وانج لنج وذووه من قبل!

وقد أدرك وانج لنج ن المجاعة ستستمر لأنه لن يكون حصاد في السنة المقبلة كذلك، ففرض على نفسه الاقتصاد الشديد، وتشاجر مع كوكو إذ ارادت أن تطهو كل يوم كذي قبل، وقد سر إذ فصل الماء بينه

وبين المدينة فلا يستطيع الذهاب اليها، وبعد ذلك صار لا يسمح بشراء شيء أو ببيع شيء إلا ما يأذن هو في شرائه أو بيعه، وصار تشنج يأتمر بأمره ولا يستمع الى كوكو برغم حدة لسانها!

وقد خزن وانج لنج كل ما بالبيت من مؤونة وصار يعطي زوجة ابنه بقدر ويعطي تشنج ما يلزمه وعماله، وان كان آلمه أن يطعمهم دون أن يؤدوا عملا، وأخيراً لما هل الشتاء ببرده القارس وتجمد الماء في كل مكان، اضطر آسفاً أن يبعث أولئك العمال الى الجنوب ليستجدوا رزقهم أو يعملوا قدر امكانهم حتى ياتي الربيع فيعودوا. على أنه كان مع ذلك كله يعطي لوتس سكراً وزيتاً في الخفاء لأنها لم تكن معتادة شظف العيش... حتى في رأس السنة لم يأكلوا إلا سمكة صادوها من البحيرة وخنزيراً من المزرعة ذبحوه!

على أن وانج لنج لم يكن فقيراً وان تظاهر بالفقر، فانه كان قد خبأ فضة كثيرة في جدران الغرفة التي ينام فيها ولده الأكبر مع عروسه، دون أن يعلما بذلك، وخبأ مقادير أخرى في زلعة دفنها تحت أرض أقرب حقوله، وأخرى تحت جذور البوص، وكان قد خزن حبوباً لم يبعها في السوق من حاصلات السنة السالفة، فلم يكن ثمة خطر من موت أسرته جوعاً!

ولكن كان على مقربة منه اناس يعانون الجوع، فكان يعلم أن الكثيرين يكرهونه لأن عنده ما يطعم به نفسه وذويه ولذا صار يوصد أبواب بيته جيداً ولا يدع أحداً يعرفه يدخل. وكان موقناً أنه لولا سطوة عمه على اللصوص لنهبوا ماله وغذاءه واعتدوا على نساء بيته كذلك، ولذا كان يحسن معاملة عمه وزوجته وولدهما كما لو كانوا ضيوفاً عنده وصاروا يشربون الشاي قبل غيرهم ويغمسون عيدانهم في الطعام قبله وأسرته.

وقد أدرك هؤلاء الثلاثة ان وانج لنج يخشاهم فتعالوا عليه وصاروا يشكون من الطعام والشراب، وبخاصة المرأة التي اعتادت الألوان

الغالية التي كانت تتناولها في الغرف الداخلية، فقد شكت الى زوجها فجاء الى وانج لنج يقول: «أترانا سنعاني الجوع مرة أخرى؟». ثم ضحك واستطرد قائلا: «انك سعيد الطالع فاني أعلم أن أناساً أقل منك غنى ومالا قد علقوا بعروق السقف في بيوتهم!».

ولما سمع وانج لنج ذلك من عمه تصبب العرق البارد من جبينه، وأعطى عمه فضة، وهكذا صار أولئك الثلاثة يشترون لحماً و يأكلونه وحدهم من دون جميع من بالمنزل... وصار العم يدخن الطباق في اسراف في حين كان وانج لنج لا يدخن إلا نادراً!

وقد شغل الابن الأكبر لوانج لنج بزوجته وصار لا يكاد يرى ما يجري حوله، وهمه الأكبر أن يقي عروسه نظرات ابن عم أبيه حتى انقلب الاثنان عدو ين بعد أن كانا صديقين، ومن ثم صار لا يكاد يدع زوجته تخرج من الغرفة إلا مساء حيث يخرج الشاب الآخر مع أبيه. غير أنه لما رأى مسلك أولئك الثلاثة نحو أبيه تولاه الغضب، وصارح أباه برأيه، ولكن وانج لنج قال له: «اني أبغض أولئك الثلاثة من قلبي، غير أن عمي زعيم عصابة لصوص، وما دمت أطعمه وأداريه فنحن في أمان. فليس من الحكمة أن نبدي لهم جانب الكدر!».

وعندئذ سكت الاثنان إذ لم يجدا وسيلة للخلاص منهم. غير أن الابن ما لبث قليلا حتى صفق بيديه فرحاً وقال لأ بيه: «لقد هديتني أنت الى الوسيلة المثلى! هيا بنا نشتري لهم أفيوناً وندعهم يستمتعون به كما يفعل الأغنياء، وسأتظاهر بالتودد الى ابن عمك من جديد وأغريه بالذهاب الى مشرب الشاي الذي يستطيع فيه أن يدخن الأفيون بقدر ما يحب، في حين تأتي به هنا لعمك وزوجته!».

ففكر وانج لنج هنيهة ثم قال: «ولكن الأفيون غالي الثمن كالأحجار الكريمة!».

فقال ابنه الأكبر: «مهما يكن ثمنه غالياً فهو خير لنا من احتمال تبجحهم والصبر على نظرات ابنهم الوقح الى زوجتي!».

وقد عمل وانج لنج بهذه النصيحة، وفي ذلك اليوم اشترى من المدينة ست أوقيات من الأفيون لعمه وزوجته!. كما عجل بزفاف ابنته الصغرى الى ابن التاجر ليو خوفاً من ابن عمه!

اطمأن وانج لنج بعد أن ذهبت الابنة الثانية الى بيت خطيبها، وقال لعمه يوماً: «ما دمت أخا أبي فاليك بعض الطباق من نوع ممتاز!».

ثم فتح وعاء الأفيون وكان لزجاً زكي الرائحة، فتناوله عم وانج لنج وشمه وضحك قائلا: «لقد سبق أن دخنت منه قليلا، ولكنه غالي الثمن، اني أحبه!».

فتظاهر وانج لنج بعدم الاكتراث وقال: «كنت قد اشتريت منه قليلا لأبي إذ انتابه الأرق، واليوم وجدته كما هو لم يستعمله ولذا فكرت فيك. فخذه ودخن منه حين تحب أو حين تشعر ببعض الألم!».

وأخذ العم الأفيون بشغف، ثم وضع وانج لنج غليوناً هنا وآخر هناك، وتظاهر بأنه يدخن الأفيون هو نفسه، ولكنه كان يأخذ الغليون الى غرفته ويدعه هناك دون أن يقربه، ولم يسمح لولديه ولا للوتس بأن يلمسوا الأفيون بزعم أنه غالي الثمن!

ولما انتهى الشتاء وبدأ الماء ينحسر عن الحقول حتى صار وانج لنج يمشي فيها، تبعه ابنه الأكبر ذات يوم وقال بفخر: «سيكون لدينا قريباً فم جديد يتطلب الطعام، وهو فم حفيدك».

فضحك وانج لنج إذ سمع ذلك ومسح يديه احداهما بالأخرى جذلا وقال: «هذا نبأ سار حقاً!». ثم أوفد تشنج الى المدينة ليشتري سمكاً وحلوى لتأكل زوجة ابنه وتطعم الجنين الذي في بطنها!

ولما أقبل الربيع بدأ الناس الذين هاجروا يعودون الى بيوتهم وأرضهم وان كان الفيضان لم يبق على شيء من مساكنهم، ولكن كان من اليسير عليهم اعادة تشييدها من الطوب النيىء وتسقيفها بالحصر،

وجاء كثير منهم الى وانج لنج ليقترضوا منه مالا فصار يقرضهم بفوائد باهظة لشدة حاجتهم الى المال، وكان لا يقبل سوى الارض ضماناً للقروض!. وبعضهم كانوا يبيعونه أجزاء من أرضهم حتى يستطيعوا أن يشتروا بذوراً للجزء الباقي، فكان يشتري تلك الارض بثمن بخس، وآخرون كانوا لا يرضون أن يبيعوا أرضاً، فاذا لم يجدوا مالا ليشتروا به محراثاً وبذوراً باعوا بناتهم، وقد جاء بعضهم الى وانج لنج لهذا الغرض لأنهم يعلمون أنه رجل غني، وقد فكر في حفيده المنتظر وفي الأطفال الآخرين الذين سوف يملأون البيت بعد زواج ولديه الآخرين، فاشترى خمس جوار اثنتين منهن في الثانية عشرة من عمرهما واثنتين أصغر قليلا، وواحدة لخدمة لوتس لأن كوكو كبرت سنها ولم تعد تستطيع العمل كما ينبغي!.. هذا الى أنه منذ ذهبت ابنته الثانية الى بيت زوجها ليس فيه امرأة تقوم بخدمته!

وفي أحد الايام جاء اليه رجل يحمل فتاة في السابعة من عمرها ليبيعها وكانت جميلة ولكن وانج لنج رفض شراءها لصغرها وضعفها، غير أن لوتس تشبثت بها فلم يسعه إلا أن يشتريها لها، وقد اشتراها بعشرين فضية!

وحسب وانج لنج أنه قد استتب له الأمن والسلام في البيت.. فتوجه الى الحقول وأخذ معه ولده الثالث الذي يعده ليكون مزارعاً، وكان هذا الفتى يمشي وراء أبيه، مطأطىء الرأس بادي الحزن، ولا يدري أحد ماذا به ولا ماذا يكربه.

حتى اذا عاد وانج لنج الى بيته لم يجد الهدوء الذي توقعه، فان ابنه الأكبر لم تشف نفسه من البغض الذي يكنه لابن عم أبيه. وقد رأى بنفسه كيف أن قريبه هذا جبلت نفسه على الشر والفساد، ثم حدثت أمور جعلته لا يخرج من البيت ليذهب الى مشرب الشاي إلا اذا خرج ابن عم أبيه كذلك. وقد خاف منه على الجواري، وكذلك على لوتس في الغرف الداخلية!

ولما عاد وانج لنج من الحقول مع ولده الأصغر، شكا اليه ولده الأكبر من ابن عمه ذاكراً أنه لا يحتمل البقاء في المنزل مع وجود ذلك الشاب فيه، وصارح أباه بأن ابن عمه لا يفتأ ينظر نظرات شريرة الى زوجته والى الجواري بل الى لوتس نفسها. وكان وانج لنج قد عاد من الحقول مسروراً لانحسار الماء ولذهاب ابنه الأصغر معه، فساءه أن يزعجه ابنه الأكبر بهذا الحديث وقال له: «انك طفل أحمق لا يشغل فكرك سوى هذا الأمر. ولقد جننت بزوجتك جنوناً، ولا يليق بالرجل أن يجعل زوجته فوق كل شيء في الوجود! وماذا تريد مني أن أفعل؟».

وسكت الشاب صابراً حتى هدأ غضب أبيه ثم قال له: «وددت لو تركنا هذا البيت وانتقلنا الى بيت في المدينة. اننا لا يخلق بنا أن نظل نعيش في الريف مثل عبيد الارض. ونحن اذا تركنا هذا المنزل أمكننا أن نخلف فيه عمك وزوجته وولدهما، ونعيش بعيداً عنهم في أمان بالمدينة!».

فضحك وانج لنج مرارة ثم قال بحزم: «هذا بيتي!. و يمكنك أن تعيش فيه أو تغادره. اننا لولا الارض لمتنا كلنا جوعاً!. ان الارض الطيبة هي التي جعلت منك شيئاً آخر خيراً من ابن فلاح!».

غير أن الشاب لم يسلم بسهولة فقال: «هناك بيت هوانج الكبير. ان الجزء الامامي منه قد امتلأ بأناس من حثالة الشعب. ولكن الردهات والغرف الداخلية موصدة خالية، و يمكننا أن نستأجرها ونعيش فيها بأمان وأنت وأخي الأصغر يمكنكما أن تذهبا كل يوم الى الحقول وتعودا، وهناك لن يكدرني ذلك الكلب ابن عمك كل حين!».

ثم ترك لدمعه العنان حتى يؤثر في أبيه وقال: «انني دائماً أرعى حسن السير ولا أقامر ولا أدخن الأفيون، وقانع بالمرأة الي اخترتها لي، وانما أسألك هذا الأمر اليسير عليك وليس لي رجاء سواه!».

ولا شك أن دموع ابنه كانت كافية للتأثير فيه، ولكن كلمة بيت آل هوانج كانت أشد تأثيراً في نفسه، فهو لم ينس قط كيف دخل ذلك البيت متهيباً، وكيف وقف وجلا أمام البواب. وكان طول حياته يشعر بأن الناس يحسبونه أدنى مرتبة من أولئك الذين يعيشون في المدينة!

وهكذا جعل يفكر تفكيراً جدياً فيما قاله ولده الأكبر، وراقت له الفكرة، وود لو يقيم فعلا حيث أقام آل هوانج!. ولكنه لم يرد أن يعجل بالقبول قبل أن يبرر ما اعتزمه، فراقب ابن عمه عن كثب حتى رآه مرة ينظر نظرات مريبة الى الفتيات فغمغم قائلا: «حقاً!. لست أستطيع أن أعيش مع هذا الكلب الهائج في بيت واحد!».

ونظر الى عمه فرآه قد نحل جسمه وضعف بنيانه من أثر الأفيون، وقد اصفر لون بشرته وانحنى ظهره وبان عليه الكبر وصار يبصق دماً حين يسعل. ثم نظر الى زوجة عمه فرآها قد ادمنت الأفيون كذلك وكانت راضية بغليونها لا تطلب به بديلا، وقد أصابها دوار وذهول. وهكذا أدى الأفيون المهمة التي أرادها منه!

ولكن كان هناك ابن عمه وهو لم يتزوج بعد، وقد أصبح كالوحش الهائج، ولم يتعلق بالأفيون مثل أبو يه. ولم يرد وانج لنج أن يزوجه في البيت فينسل أطفالا على شاكلته. وكان لا يرضى أن يعمل إذ لا حاجة به الى أن الكد وحاجاته عليها مقضية، لكنه كان يقضي ساعات من الليل خارج البيت، ثم قل خروجه هذا بعد أن عاد الناس الى القرية والمدينة وأوى اللصوص الى التلال في الشمال الغربي ولم يرد هو أن يذهب معهم، وهكذا بقي شوكة في البيت، يتثاءب و يكلم من يشاء و يروح و يجيء بقليل من الثياب حتى عند الظهر!

وفي أحد الايام ذهب وانج لنج الى المدينة ليرى ابنه الذي يعمل في سوق الحبوب، فسأله رأيه فيما اقترحه أخوه الأكبر من سكنى دار آل هوانج.. وكان هذا الابن الثاني قد كبر وأصبح شاباً أنيقاً مثل الكتبة الآخرين بالسوق، فقال لأبيه: «انها فكرة صائبة، وهي تناسبني تماماً

لأني في هذه الحالة أستطيع أن أتزوج وأعيش مع زوجتي أيضاً في تلك الدار، ونكون جميعاً تحت سقف واحد كشأن الأسر الكبيرة!».

لم يكن وانج لنج قد دبر أي شيء لزواج ابنه هذا فقال له: «لقد قلت لنفسي منذ مدة طويلة انك ينبغي لك أن تتزوج ولكني شغلت بشواغل كثيرة ثم أنك لم تبد رغبة في الزواج!».

فقال الابن: «أريد لنفسي فتاة من القرية من أسرة ريفية مستقرة لا تكون لها أقارب فقراء، ويشترط أن تجلب لي صداقاً طيباً، على ألا تكون قبيحة الوجة ولا بارعة الحسن، وأن تجيد الطهو حتى اذا كان هناك خدم في البيت أمكنها أن تشرف على عملهم!».

وزاد وانج لنج دهشة من ولده واعجاباً به، فانه لم يكن قد عرفه عن كثب مع أنه ولده. ثم قال له: «حسناً!. سأبحث لك عن فتاة من هذا القبيل. وسأكلف تشنج البحث عنها في القرية!».

ثم مضى وهو لا يزال يضحك حتى اذا وصل الى البيت الكبير وقف متردداً أمام الأسدين الحجريين.

ولعل وانج لنج في الايام الخالية حين كان آل هوانج يسكنون هذه الدار كان يحسب نفسه من العامة، ولكنه الآن وقد صارت له أراض شاسعة وثروة وفيرة صار يزدري هؤلا الناس ويستقذرهم فسار في طريقه شامخ الأنف مشمئزاً كما لو كان هو نفسه من الأسرة الرفيعة التي كانت تسكن تلك الدار!

ومضى خلال الفناء بدافع الفضول حتى وجد في المؤخرة باباً أغلق على فناء وراءه وجلست عنده امرأة تغفو حيناً وتصحو حيناً، وقد عرف فيها زوجة البواب القديم، وان كانت قد نحل جسمها وتغضن وجهها وشاب شعر رأسها!. ولما نظر اليها عجب من كثرة السنين التي انقضت ومن سرعة فواتها كذلك ثم قال لها بصوت لا يخلو من الحزن: «استيقظي وافتحي لي الباب!».

فصحت المرأة من غفوتها وقالت: «لا أفتح لك الباب إلا اذا كنت ستستأجر الغرف الداخلية كلها معاً!».

فقال وانج لنج وقد اعتزم أمراً: «سأستأجرها كلها اذا راقتني!».

ودخل وراءها وكان يعرف طريقه حق المعرفة. وقد كانت الغرفة صامتة موحشة، وأخذ يقول لنفسه: «هذه هي الغرفة الصغيرة التي تركت فيها سلتي يوم جئت لأتزوج أولان. وتلك هي الشرفة الطويلة ذات العمد الحمراء». ثم تبع المرأة الى القاعة الكبيرة، وكانت ما زال بها المقعد المرتفع الذي كانت السيدة العجوز تجلس عليه! وحفزه حافز عجيب لأن يجلس على ذلك المقعد وأن يضع يده على المنضدة التي أمامه، وإذ ذاك شعر بأهميته... وكانت المرأة واقفة تنتظر، فقام من مقعده وقال لها وهو يضرب المنضدة بقبضة يده: «سيكون لي هذا البيت!».



كان وانج لنج قد أصبح من الكبر ميالا الى سرعة ما يعتزمه، فكان قليل الصبر يحب الانتهاء من أي أمر يحزبه ثم يستريح و يطمئن. وقد أنبأ ابنه الأكبر أنه قرر سكنى البيت الكبير وعهد اليه في اتمام ذلك، ثم أرسل في طلب ابنه الثاني وكلفه المجيء للاشراف على نقل الاثاث والمتع في يوم عينه. ثم انتقلوا الى البيت الكبير، تتقدمهم لوتس وكوكو مع الجواري والأمتعة، ثم الابن الأكبر وزوجته مع الخدم. ولكن وانج لنج تخلف في بيته القديم مع ابنه الأصغر. فانه لما حان الرحيل من الارض التي ولد فيها، وجد ذلك عسيراً عليه وأبطأ في انفاذه. ولما استحثه ولداه قال لهما: «أعدا غرفة لي وحدي، وسآتي في اليوم الذي أحب، وذلك قبل مولد حفيدي، فاذا شئت بعد ذلك العودة الى هنا عدت!».

ولما حثاه مرة أخرى قال لهما: «هنا ابنتي البلهاء المسكينة ولا أدري

أآخذها معي أم أتركها هنا. على أني لا بد لي من أخذها معي فليس سواي من يتعهد طعامها و يرعاها!».

وكان يقصد بذلك تأنيب زوجة ابنه التي لا تصبر على اقتراب الفتاة البلهاء منها وكانت تقول: «ان مثل هذه البنت كان أجدر بها أن تموت!. و يكفي أن يحكم علي برؤيتها فان ذلك يفسد الجنين الذي في بطني!».

وكان ابنه الأكبر يعلم كراهية زوجته لأخته المسكينة فسكت ولم يجب. ثم أراد وانج لنج أن يخفف من وقع ذلك اللوم فقال: «سآتي الى البيت الكبير حين نعثر على فتاة تصلح زوجة لأخيك. والأيسر لي أن أبقى هنا مع تشنج حتى تتم تلك المسألة!».

وهكذا لم يبق بالبيت القديم، مع وانج لنج وولده الأصغر وابنته البلهاء، سوى عمه وزوجته وابنهما، وتشنج ورجاله، وانتقل العم وزوجته وابنهما الى الغرف الداخلية التي كانت للوتس من قبل، وحسبوها كأنها ملك لهم، غير أن ذلك لم يغضب وانج لنج فقد أيقن أن عمه لن يعيش طو يلا، ومتى مات خلص من واجبه نحوه، واذا لم يرضخ ابنه بعد ذلك لارادته فلن يلومه أحد اذا طرده من البيت. وعندئذ انتقل تشنج ورجاله الى الغرف الخارجية، وسكن وانج لنج وولده الأصغر وابنته البلهاء الغرف الوسطى، واستأجر امرأة قو ية للقيام على خدمتهم!

وصار وانج لنج ينام قدر كفايته، و ينشد الراحة ولا يبالي شيئاً، لأنه أصبح بغتة متعباً!. وسره الهدوء الذي يشمل البيت، وكأن ابنه الأصغر فتى هادئاً لا يضايق أباه حتى ان هذا كان لا يعرف شيئاً عنه. وأخيراً عهد وانج لنج الى تشنج في أن يبحث عن فتاة لابنه الثاني، وكان تشنج قد كبرت سنه ونحل بدنه، وصار وانج لنج لا يسمح له بأن يكد بالفأس أو يسير وراء الثور والمحراث، وانما كان يشرف على عمل الآخرين و يراقب وزن الحبوب وكيلها!

وبعد أيام عاد تشنج فقال لوانج لنج: «توجد على بعد ثلاث قرى فتاة من أسرة طيبة ضاحكة الثغر، جميلة القد، صحيحة البدن، وأبوها يسره أن يرتبط معك برابطة المصاهرة، وهو يملك أرضاً وسيعطي ابنته صداقاً طيباً. غير اني لم أعده حتى تبت أنت في الأمر!».

وبدا لوانج لنج أن هذه الفتاة تصلح لولده، وكان تواقاً لأن ينهي الموضوع فوافق تواً. ولما جيء اليه بوثائق الخطبة وضع عليها علامته وقال: «الآن لم يبق إلا ولد واحد أزوجه وعندئذ أخلص من مشاكل العرس والزواج وأعيش هانئاً مطمئناً!».

ولما حدد يوم الزواج ارتاح باله وصار يجلس في أشعة الشمس و ينام كما كان أبوه يفعل من قبل!. ثم لحظ أن تشنج قد انتابه ضعف الكبر. ولما كان ولده الأصغر لا يقدر أن يحمل التبعات، فقد رأى أن يؤجر بعض حقوله النائية لآخرين بالقرية فأقبل الكثيرون على استئجارها واتفق معهم على قيمة الايجار، بحيث يكون له نصف المحصول الذي يحصد بحسبانه مالك الارض، وللمستأجر النصف الآخر. وكانت هناك شروط أخرى كأن يقدم وانج لنج الأسمدة والكسب المتخلف من طاحونته بعد طحن السمسم، وأن يقدم المستأجر بعض الحاصلات التي يحتاج اليها بيت المالك!

ولما خلا وانج لنج من شواغل الاشراف والادارة صار لديه متسع من الوقت، فكان يذهب أحياناً الى المدينة و ينام في الغرفة التي أفردت له بالبيت الكبير. ولكنه كان لا يكاد يطلع النهار حتى يعود الى الارض، فكان ينتعش إذ تطرق أنفه رائحة الحقول!

وكأنما رضيت عنه الآلهة فشاءت أن تسبغ عليه نعمة الهدوء الذي لا تشوبه شائبة، فجاء اليه ابن عمه وقد ضايقه من البيت خلوه من النساء إلا من تلك المرأة البادنة التي تقوم على خدمة الجميع وهي بعد زوجة أحد العمال، وقال له: «يقال أن حرباً تدور في الشمال وقد

اعتزمت أن أصير جندياً واشترك فيها، هذا اذا اعطيتني فضية أشتري بها ثياباً وفراشاً!».

فكاد قلب وانج لنج يقفز من الفرح، ولكنه أخفى ما بنفسه وقال له في رياء: «ليس لعمي ولد غيرك، فاذا ذهبت فمن يحمل جسده حين يموت؟. وما أدرانا ما قد يصيبك في الحرب؟!».

ولكن الشاب ضحك وقال: «اني لست أحمق، ولن أقف في مواطن الخطر. واذا دار قتال فسأبتعد عنه حتى ينتهي. وانما أردت التغيير ورؤية بلاد أخرى قبل أن أكبر وأعجز عن ذلك!».

وعندئذ سارع وانج لنج الى اعطائه ما طلب من نقود!

ولما سمعت أم الشاب بما اعتزمه بكت، ولكن وانج لنج بادر الى اعطائها مزيداً من الأفيون وهو يقول لها: «لا شك أنه سيصبح ضابطاً عظيماً نفخر به جميعاً!».

وهكذا نعم وانج لنج بالهدوء في بيته الريفي، في حين اقترب موعد ميلاد حفيده في البيت الذي بالمدينة، فصار بعد ذلك يطيل من مكوثه بهذا البيت الأخير، و ينتقل بين غرفه وهو يعجب من تصاريف القدر الذي جعله الآن يسكن بيت آل هوانج مع زوجته وأولاده وحفيده القادم!

وصارت يده سخية بالنقود، أخذ يشتري حريراً وزيتاً وأثاثاً فاخراً وأطايب الطعام، حتى صارت كوكو تقول له: «لقد عادت الأيام القديمة في هذا البيت لولا أن جسمي قد جف وذبل ولم يعد لائقاً حتى لسيد شيخ!».

وكان يضحك من قولها هذا، وقد سره انها قرنته بالسيد الشيخ!

وفي صباح أحد الايام سمع تأوه امرأة فذهب مسرعاً الى الجناح الخاص بولده الأكبر وقابله هذا قائلا: «لقد حانت ساعة الوضع،

وتقول كوكو أنه سيتطلب وقتاً، وان الولادة ستكون عسيرة لضيق الرحم!».

فعاد وانج لنج الى غرفته وجلس ينتظر وهو يسمع الصراخ، ثم تملكه الخوف وأحس الحاجة الى معونة من روح فذهب الى دكان البخور فاشترى عيداناً منه وقصد بها الى معبد بالمدينة لآلهة الرحمة وأعطى راهباً هناك نقوداً وطلب اليه أن يشعل البخور للآلهة وذكر له الغرض وهو يقول: «اذا جاء المولود ذكراً فسأدفع لك ثمن ثوب أحمر جديد للآلهة، ولكن اذا جاء انثى فلن أدفع شيئاً!».

ثم ذهب برغم الحر الى المعبد الريفي الصغير الذي يقبع فيه الها الارض وأشعل أمامهما بخوراً وقال: «لقد عنينا بكما، أنا ووالدي وابني، والآن اذا لم يولد لابني ولد ذكر فلن نعني بكما بتاتاً!».

وإذ فعل كل ما استطاع، عاد الى البيت الكبير وجلس الى المائدة وصفق بيديه ليطلب جارية تحضر له شاياً، وأخرى لتأتيه بفوطة مغموسة في ماء حار ليمسح بها وجهه، ولكنه بقي يصفق من غير أن يأتي اليه أحد إذ كان كل من بالدار مشغولين بالوضع. وأخيراً جاءت لوتس تترنح على قدميها الصغيرتين تستند الى كوكو لثقل جسمها بعد أن سمنت، وقالت له ضاحكة:

ــ لقد ولد لابنك ولد وهو والوالدة بخير. وقد رأيت المولود وهو جميل سليم الجسم!

فضحك وانج لنج مسروراً وقال: «كنت جالساً هنا قلقاً كمن يولد له أول ولد!». ثم عادت به الذكريات الى أولان وكيف كانت تضع أطفالها وحدها دون عون من أحد، ثم تعود الى العمل بالحقل وبالبيت في اليوم نفسه!

ثم جاء ابنه الأكبر ضاحكاً فخوراً يقول: «ان المولود ذكر!. والآن يجب أن نجد له مرضعة لترضعه، لأني لا أرضى أن تفسد زوجتي

جمالها بالارضاع والتربية. ولا تفعل ذلك أية سيدة من الطبقة العالية بالمدينة!».

فقال وانج لنج برنة حزن لا يدري سببه: «اذا كان لا بد من ذلك ولا تقدر زوجتك أن ترضع ولدها فليكن ما تريد!».

ولما أتم الوليد الشهر الأول من حياته أقام أبوه وليمة دعا اليها أناساً من المدينة وحماه وحماته وجميع الكبراء. وصبغ باللون الاحمر مئات من البيض وأهداها الى المدعوين، وأكل الجميع هنيئاً وشربوا مريئاً وكان الفرح يملأ البيت لأن الطفل كان ممتلئاً صحة وقد تخطى اليوم العاشر وعاش فذهب كل خوف عليه!

ولما انتهت المأدبة قال الابن الأكبر لأبيه: «الآن توجد ثلاثة أجيال في هذه الدار، فيجب أن نقيم لوحات الأسلاف كما تفعل الأسر الكبيرة لكي تعبد في أيام الأعياد، لأننا الآن أصبحنا أسرة موطدة الدعائم!».

وقد سر وانج لنج كثيراً بهذه الفكرة، وأمر بتنفيذها، وأقيم صف من الألواح في القاعة الوسطى، لوحة لجده، ولوحة لأبيه، ثم لوحه تركت بيضاء ليكتب عليها اسمه، وأخرى لأسم ولده، حين يموتان. واشترى الابن الأكبر آنية للبخور ووضعها أمام الألواح. ولما تم ذلك، تذكر وانج لنج وعده لآلهة الرحمة فذهب الى المعبد وأعطى الكاهن نقوداً ليشتري بها ثوباً أحمر جديداً للآلهة! وفي طريقه الى البيت جاءه عامل من عماله يجري ويقول له: «ان تشنج يجود بروحه بغتة، وقد طلب أن يراك». فغضب وانج لنج حين علم ذلك وقال: «أحسب أن الالهين الملعونين اللذين بمعبد الارض قد تملكتهما الغيرة لأني وهبت آلهة الرحمة في المدينة ثوباً جديداً، ولعلهما لا يعلمان ألا سلطان لهما على الاطفال ولكن على الارض وحدها!».

ثم لم يرض أن يصبر حتى يتناول غداءه وذهب توا الى غرفة تشنج وكانت مزدحمة بالعمال. فلما سألهم كيف حدث الأمر قالوا له: «لقد

أراد أن يعمل في الدراس بنفسه وكان هناك عامل استؤجر حديثاً فلم يدر كيف يستخدم المدقة في ضرب الحنطة. وأراد تشنج أن يريه كيف يعمل ولكن هذا كان ارهاقاً في سنه!».

وكان تشنج يتأوه في سريره فمال عليه وانج لنج وقال له: «ها أنذا وسأشتري لك تابوتاً لا يماثله إلا تابوت أبي!».

ولكن أذني تشنج كانتا مملوئتين دماً ولعله لم يسمع ما قاله وانج لنج لأنه لم يبد ما يدل على ذلك، وكان يجود بروحه لاهثاً. ولما فاضت روحه مال عليه وانج لنج وبكى، ثم أمر له بتابوت من أحسن نوع، واستأجر كهنة لجنازته، ومشى ورائه مرتدياً ثياباً بيضاء للحداد. بل أمر أبنه الأكبر كذلك بأن يضع شريطاً أبيض على كل من رسغيه كما لو مات أحد أقاربه، واحتج الابن على ذلك قائلا: «انه لم يكن إلا رئيساً للخدم، ولا يليق بنا أن نلبس الحداد على خادم!».

وأصر وانج لنج على لبس الحداد ثلاثة أيام، وكان يريد أن يدفن تشنج بداخل المقبرة حيث دفن أبوه وأولان، ولكن أولاده أبوا ذلك إذ لا يليق أن يرقد خادم مع جدهما وأمهما، وعلى ذلك اضطر وانج لنج الى أن يدفنه عند مدخل المقبرة وقال لنفسه: «هذا مكان يليق به لأنه كان دائماً يقف حارساً لي من كل سوء!».

وبعد ذلك صار وانج لنج لا يذهب الى حقوله إلا قليلا، فقد كره أن يذهب اليها وحده بعد وفاة تشنج. وما لبث حتى أجر كل أراضيه وأقبل المزارعون على استئجارها لجودتها وخصبها، ولكنه ما كان ليبيع شبراً منها. وأسكن أحد عماله مع أسرته بيته الريفي ليعنوا بعمه وزوجته وهما مستغرقان في أحلام الأفيون!.. وأخذ ابنه الأصغر وابنته البلهاء معه الى البيت الكبير بالمدينة، وصار لا يقصد الى بيته الريفي إلا نادراً!

متاعب جديدة

لم تبق هناك أمنية يتمناها وانج لنج فقد نال كل ما يتمناه!.. وهذا ما كان يحدث به نفسه وهو يجلس على كرسي تحت أشعة الشمس وبجانبه ابنته البلهاء، وأمامه النرجيلة (الشيشة) يدخن طباقها في أمان!

غير أن ولده الأكبر كان يعكر عليه صفو هدوئه، ولا يفتأ يطلب هذا وذاك للبيت وللأسرة، و يقترح تجديد الاثاث تأهباً لزفاف أخيه. وأخيراً أهاب بأبيه أن يخلي الغرف الخارجية من مستأجريها حتى يصير البيت كله لهم، كما ينبغي لأسرة كبيرة غنية!. وأراد وانج لنج أن يريح باله من هذه المتاعب فقال له: «افعل ما تشاء، ولكن لا تزعجني به!».

وما سمع الشاب ذلك حتى أسرع الى شراء أثاث جديد وستائر جديدة، صوراً لنساء حسان تعلق على الجدران وأشياء أخرى كثيرة مما كان قد رآه في مدن الجنوب. وكان اذا مر بالفقراء الذين يسكنون الغرف الخارجية التي خارج البوابة سد أنفه حتى لا يشم روائحهم الكريهة، فكانوا يتأذون من ذلك و يقولون فيما بينهم: «لقد نسي رائحة السماد الذي كان ببيت أبيه!». ولكن لم يجرؤ أحد منهم أن يقول له ذلك لأنه ابن أحد الاغنياء!.. حتى اذا حل العيد الذي تجدد عند الايجارات وجد أولئك المساكين أن ايجارات الغرف والأفنية التي يسكنونها قد ضوعفت بحيث يعجزون عن دفعها، وقد أدركوا أن ابن وانج لنج هو الذي فعل ذلك بعد أن اتفق عليه مع ابن (هوانج) بالكتابة اليه حيث هو في المدن البعيدة، وكان الأخير لا يهمه إلا أن

يحصل على مال وفير من ايجار الدار القديمة. وعلى هذا لم يسع أولئك المساكين إلا أن يغادروا مساكنهم لاعنين ذلك الفتى الذي أجلاهم عنها.

غير أن وانج لنج لم يسمع شيئاً من ذلك لأنه كان قابعاً بالغرف الداخلية لا يكاد يخرج منها. وجاء ابنه الأكبر بنجارين يصلحون ما أفسده أولئك القوم في الغرف والابواب. ولما تم ذلك زرع البستاني أزهاراً جديدة وجيء بعمال حفروا بركاً ووضع فيها أسماكاً حمراء للزينة!.. وقد سمع الناس في شوارع المدينة بما فعله ابن وانج لنج وتحدثوا بما يدور في ذلك البيت الكبير بعد أن صار يسكنه رجل غني من جديد، وصار الذين كانوا بالأمس يلقبون وانج لنج بالمزارع، يلقبونه (بالرجل الكبير) أو (وانج الغني).!

وكان المال الذي تطلبه ذلك كله، قد خرج من يد وانج لنج على دفعات حتى لم يكد يشعر به. ولعله ما كان ليعرف كثرة ما أنفقه لولا أن جاءه ابنه الثاني صباح يوم وقال له: «ألا نهاية لهذا التبذير في المال؟. وهل نحن مضطرون الى أن نعيش في قصر؟ ان هذا المال الذي أنفق لو أنه أقرض للناس لأتى بفائدة قدرها عشرون في المائة ولكان مورداً حسناً!. وما فائدة تلك البرك وتلك الاشجار التي لا تثمر فاكهة؟».

وخشي وانج لنج أن يختلف ولداه في ذلك الأمر فقال لابنه الثاني: «ان هذا كله انما تم استعداداً لزواجك!».

فقال الشاب وهو يبتسم: «ان مما يدعو الى العجب أن تبلغ تكاليف الزواج عشرة أمثال قيمة العروس!. ان ميراثنا الذي ينبغي أن يقسم بيننا بعد موتك، يبعثر الآن هباء لا لشيء سوى ارضاء لكبرياء أخي الأكبر!».

وكان وانج لنج يعرف قوة ارادة ولده هذا وبراعته في الحديث والجدل، فبادر الى اسكاته بقوله: «حسناً!. سنضع نهاية لكل ذلك.

وسأكلم أخاك وأقبض يدي عنه. ان فيما أنفق الكفاية. وأنت على حق!».

وفي مساء اليوم نفسه قال وانج لنج لابنه الأكبر: «يكفي ما تم من الطلاء والصقل والاصلاح والشراء. ولا تنس أننا لا نخرج عن كوننا أسرة ريفية!».

فقال الشاب بكبرياء: «كلا!. لسنا كذلك. ان الناس في المدينة قد بدأوا يقولون عنا: «أسرة وانج الكبيرة». فيجدر بنا أن نلائم بين معيشتنا وبين هذا الاسم. واذا كان أخي لا ينظر الى أبعد من مخازن الفضة، فاني وزوجتي سنحافظ على مجد الأسرة!».

وكان وانج لنج لا يعلم أن الناس يلقبون أسرته بذلك اللقب، إذ كان من النادر أن يذهب الى مشرب الشاي أو سوق الحبوب ما دام ابنه الثاني يقوم بأعماله، ولكنه سر مما علم وقال لولده:

ان الأسر الكبيرة قد نشأت في الريف وامتدت جذورها في الارض! فقال الشاب: «أجل لكنها لا تمكث هناك بل تتفرع وتثمر أزهاراً وفاكهة!».

وعندئذ قال وانج لنج: «لقد قلت ما أردت أن أقول، وكفانا تبذيراً للمال!.. ان الاشجار اذا أريد أن تثمر فاكهة، يجب أن يحافظ على جذورها في تربة الارض!».

وحسب وانج لنج أن ابنه الأكبر سيتركه و يدعه في أمان، ولكن هذا قال له: «اني لا أطلب شيئاً لنفسي ولا لولدي ولكن لأخي الأصغر الذي هو ولدك، فلا يليق أن ينشأ جاهلا و يجب أن يتعلم!».

وكان ذلك شيئاً جديداً على وانج لنج.. إذ كان قد رتب مستقبل ولده الأصغر على أن يكون مزارعاً مثله، فقال لولده الأكبر: «لا حاجة بنا الى مزيد من المتعلمين في هذه الدار. ان اثنين فيهما الكفاية، وسيكون مآله الى الزراعة بعد أن أموت!».

فقال ابنه الأكبر: «انه من أجل ذلك يبكي ليل نهار، ولهذا تراه شاحب الوجه نحيل البدن!».

ولم يكن قد فكر قط في أن يسأل ولده الأصغر عما يريد أن يكون عليه مستقبله ما دام هو قد قرر أن يجعله مزارعاً، ولهذا بوغت بما قاله ولده الأكبر، وقطب جبينه ثم تناول نرجيلته ببطء وأخذ يفكر في ولده الأصغر. وكان هذا فتى يميل الى الصمت مثل أمه، ولهذا لم يلتفت اليه أحد. ثم سأل وانج لنج ابنه الأكبر: «هل سمعت منه ذلك؟».

فأجاب بقوله: «اسأله بنفسك يا أبي!». وعندئذ صاح وانج لنج في حدة: «يجب أن يبقى أحدكم في الزراعة!».

فقال الابن الأكبر: «لماذا يا أبي؟.. انك لست بحاجة الى أبناء يشتغلون في الارض كالعبيد. انه أمر لا يليق بنا، بل يغري الناس بأن يقولوا خلف ظهورنا: (هذا رجل يجعل ابنه يعمل في الارض كالعبد الرقيق في حين يعيش هو كأحد الأمراء). فكيف تقبل هذا؟!».

وكان الشاب يعرف أن أباه يهتم برأي الناس فيه، ولهذا استطرد فقال: «يمكننا أن نعين له معلماً يعلمه ثم نرسله الى مدرسة في الجنوب، وعندئذ يصبح لك ثلاثة أبناء متعلمين، فأبقى أنا هنا في الدار لأساعدك، وأخي في التجارة، وأخي الأصغر يختار ما يحلو له».

ونجحت حيلة الابن الأكبر، إذ طلب اليه أبوه أن يدعو اليه أخاه الأصغر، فلما جاءه هذا، نظر اليه وانج لنج ملياً، ولحظ لأول مرة أنه فتى طويل القامة نحيل الجسم، لا يشبه أباه ولا أمه إلا في رزانته وصمته، ولكن له من الجمال نصيباً أوفر مما كان لأمه، بل كان أجمل أخوته ما عدا الابنة الثانية التي انتقلت الى بيت زوجها. وكان حاجباه الاسودان يبدوان كبيرين كلما عبس!. ثم قال له أخيراً:

ـ ان أخاك الأكبر يزعم أنك تريد أن تتعلم، ومعنى هذا أنك لا تحب أن تعمل في الارض، فلا يكون لي ولد مثلي!

وسكت الفتى ولم يجب. فصرفه أبوه غاضباً إذ حار في أمره. غير أنه لم يكد يولي عنه الغضب حتى نادى ابنه الأكبر، وكلفه أن يبحث عن معلم لأخيه. ثم استدعى ابنه الثاني وقال له: «ما دمت لن يكون لي ولد يعمل في الارض فواجبك أن تشرف على الايجارات وأن تحسب الايراد الذي يأتي من كل حصاد، و يمكنك أن تزن وتكيل وستكون وكيلي!».

وسر الابن الثاني بذلك إذ أدرك أن المال سيمر بيده فيعرف الدخل والخرج وعندئذ يستطيع أن يقف التبذير والاسراف!

وكانت زوجة الابن الأكبر أمينة في أداء واجباتها فصارت تحمل وتلد بانتظام، وصار وانج لنج كل سنة يجد في الغرف مزيداً من الاطفال ومن الجواري لخدمتهم. وكلما قيل له: «جاء بالبيت فم جديد يتطلب الطعام». ضحك وقال: «عندنا من الأرز الكفاية لاطعام الجميع ما دمنا نملك الارض الطيبة!».

وزاد سروره حين وضعت زوجة ابنه الثاني، وكان المولود بنتاً كما ينبغي لها احتراماً لزوجة أخي زوجها... وهكذا لم تمض خمس سنوات حتى صار لوانج لنج أربعة أحفاد وثلاث حفيدات!

وخمس سنوات ليست كثيرة في حياة الرجل إلا اذا كان في عنفوان شبابه أو كان قد بلغ الكبر والشيخوخة. وقد ذهبت تلك السنوات الخمس بعم وانج لنج. وكان في أيامه الاخيرة قد عجز عن الجلوس والرقاد بلا معين. ولما ذهب اليه وانج لنج ليرى ما به قال له ذلك العم:

ـ اذا مت قبل أن يأتي ابني الضال، فعدني بأن تجد له زوجة صالحة.

وقد لفظ نفسه الأخير في أحد الأمسيات، وكانت الخادمة البدينة قد ذهبت اليه بآنية حساء، فوجدته قد مات!

ودفنه وانج لنج في يوم قارس البرد، واتخذ له قبراً بجانب قبر أبيه ولكنه أوطأ قليلا منه، وأعلى من القبر الذي أعده لنفسه. ثم أمر الأسرة كلها بالحداد عليه لمدة عام، لا حزناً على هذا الذي كان عبئاً ثقيلا على كاهله، ولكن لأن ذلك هو الواجب في أسرة كبيرة اذا مات فرد من أعضائها!

وبعد ذلك نقل وانج لنج زوجة عمه الى بيته الكبير بالمدينة، وأفرد لها غرفة في أقصى البيت وكلف كوكو أن تبعث جارية لتقوم على خدمتها، وصارت المرأة العجوز تدخن غليون الأفيون في سريرها راضية، وكان تابوتها الى جانبها تراه فتطمئن!



حسب وانج لنج أن أموره كلها قد استقرت، وان في استطاعته أن يجلس أو ينعس تحت أشعة الشمس من غير أن يكدر صفوه أحد، وكان قد بلغ الخامسة والستين من عمره، وأحفاده من حوله كالأعواد الرطبة، وبينهم ثلاثة أبناء لولده الأكبر أكبرهم في العاشرة من عمره، وولدان لابنه الثاني. ولم يبق إلا قليل و يزوج ابنه الثالث!

ولكن لم يكن في البيت هدوء ولا سلام، فان زوجة الابن الأكبر وزوجة الابن الثاني كانتا قد فرق بينهما الخلاف وأصبحتا تتشاجران لأوهى الأسباب. وكان أطفالهما كذلك يلعبون معاً ثم يعتركون كالقطط والكلاب، ثم تهرع كل أم الى الدفاع عن أطفالها، وترى دائماً أنهم على حق، وأن أطفال الاخرى هم المخطئون!

وكان كذلك يلقى متاعب أخرى من لوتس فقد غضبت عليه منذ تولى حماية جاريتها الصغيرة من ابن عمه. وصارت تغار من هذه الجارية الصغيرة حتى لتبعدها من الغرفة كلما دخل اليها تتهمه بأنه

ينظر الى هذه الجارية نظرات مغرضة.. ولم يكن قد نظر اليها إلا على أنها فتاة بائسة مذعورة. ولكن منذ اتهمته لوتس تلك التهمة أخذ يتفرس في الفتاة و يعجب بما في شحوب وجهها من جمال «زهرة الخوخ»، التي سميت باسمها!..

وكان يقول للوتس ضاحكاً من غيرتها: «ماذا تقولين؟. أتحسبينني لا أزال أشتهي انثى أنا الذي لا آتي الى غرفتك أكثر من ثلاث مرات في السنة؟». ولكنه كان في الوقت نفسه خائن العينين، ينظر الى الجارية الصغيرة خفية فيجري دمه في عروقه!

لقد كانت لوتس جاهلة بكل شيء في الحياة، فيما عدا شأن الرجال مع النساء، وقد تعلمت أن الرجال حين يبلغون الشيخوخة تصحو حيو يتهم فترة قصيرة، ولذا حنقت على تلك الفتاة وأرادت أن تبيعها الى مشرب الشاي، ولكنها كانت في حاجة شديدة اليها لأن كوكو كبرت وصارت ميالة للكسل. أما وانج لنج فقد تفادى لقاء لوتس أياماً متوالية حتى تهدأ سورة غضبها، ولكنه شغل بتلك الفتاة الشاحبة الوجه أكثر مما كان يتوقع!

وكأنما لم تكفه تلك المتاعب، واذا بابنه الأصغر يسبب له هماً جديداً!. فقد كان هذا الفتى دائم السكون، دائباً على التعلم والاطلاع، حتى لا يكاد يحس وجوده أحد. غير أنه كان قد استهواه ما سمعه عن الحروب ووقائع القتال والسلب والنهب، وصار يطلب الى معلمه كتاباً عن الحروب والعصابات. ثم جاء يوماً الى أبيه وقال له: «اني الآن أعرف مستقبلي.. سأكون جندياً وسأشترك في الحروب!».

فارتاع حين سمع ذلك وحسب ابنه قد جن. وحاول جهده أن يثنيه عن عزمه، ولكن الفتى أصر على ما أراده قائلا له: «ستنشب حرب لم نسمع بمثلها قط، ستهب ثورة جامحة تؤدي الى قتال رهيب لم يحدث مثله من قبل، وبعد ذلك تصبح أرضنا حرة!».

فدهش وانج لنج من هذا الكلام وقال لابنه: «أليست أرضنا حرة الآن؟. إني أؤجرها لمن أشاء، فتأتيني بفضة وحبوب، وأنت وأخوتك تأكلون منها وتكسون. ولست أدري أن هناك حرية أكثر من ذلك!».

فغمغم الفتى قائلا: «أنت لا تفهم!.. أنت شيخ كبير السن لا تفهم شيئاً!».

ففكر هنيهة وعجب من ولده هذا الذي استمد منه هناءته بل حياته نفسها ثم يكون بعد ذلك جاحداً!.. ثم خطر له خاطر آخر فقال له: «سأزوجك قريباً يا ولدي!».

فحدج الفتى أباه بنظرة ينبعث منها الشرر وقال: «اذن.. سأذهب من هنا حقاً!. ان المرأة لا تحقق لي كل آمال الحياة كما هي بالنسبة لأخي الأكبر!».

فأدرك أنه أخطأ واستدرك قائلا: «كلا!. لن أزوجك.. ولكن اذا كانت هناك جارية ترغب فيها...».

فقطع الفتى كلامه وقال بكبرياء: «اني لست شاباً عادياً، ولكن لي آمالي ومطامعي!. وأنا أبحث عن المجد وأجري وراءه. والنساء كثيرات في كل مكان!».

ثم كأنما تذكر شيئاً كان غائباً عن باله فقال: «على أن الجواري اللاتي في هذا البيت هن أقبح جوار في الوجود اللهم إلا تلك الفتاة الصغيرة القد الشاحبة اللون التي تقوم على خدمة السيدة في الغرف الداخلية!».

ففهم وانج لنج أنه يقصد زهرة الخوخ وشعر بغيرة عجيبة، ثم قارن بين نفسه في كبره وشيب شعره وبين هذا الفتى الجميل، فلم يكونا في هذه اللحظة أباً وابناً، بل كانا رجلين أحدهما شيخ والثاني شاب يتنازعان امرأة واحدة، وعلى هذا قال لولده بغضب: «ابتعد عن الجواري!.. اني لا أرضى في بيتي بما اعتاده شباب الاشراف! اننا قوم

فلاحون معتصمون بالاخلاق الفاضلة، ولن يكون في بيتي شيء من هذا القبيل!».

ففتح الفتى عينيه دهشة ثم هز كتفيه وقال لأ بيه: «انك أنت الذي ذكرت كل ذلك أول الأمر!». ثم انصرف على أثر ذلك، وبقي أبوه وحده في غرفته تتنازعه عواطف شتى ولكن يبرز من بينها حنقه على ولده الأصغر لأنه استحسن تلك الجارية الصغيرة!

ولم يستطع أن يبعد من ذهنه ما قاله ابنه الأصغر عن زهرة الخوخ. وصار يرقبها كلما دخلت أو خرجت حتى شغل بها ليل نهار، لكنه لم يتحدث بذلك الى أحد. وفي ليلة من ليالي الصيف كان جالساً وحده تحت شجرة مزدهرة، فشعر بدمه يجري حاراً في عروقه وكأنه عاد شاباً، وانه لكذلك اذا بشبح يمر بالقرب منه وسط الظلام، فلما أمعن النظر تبين أن (زهرة الخوخ) هي التي هناك، فناداها بصوت كأنه همس، ثم كرر النداء حين وقفت في مكانها لتعرف من يناديها، وقال لها: «تعالي الي!». ولما جاءت اليه وضع يده على سترتها وقال بصوت مختنق: «أنت طفلة... وأنا... رجل شيخ!».

فجلست الفتاة عند قدميه وأمسكت بهما وقالت همساً: «وأنا أحب الشيوخ!.. ان لهم عطفاً وحناناً!».

وهنا مال عليها وقال لها: «ان فتاة صغيرة مثلك يجب أن يكون لها شاب مديد القامة مثل... مثل ابني!».

فقالت له: «ان الشبان ليسوا رحماء، بل هم قساة غلاظ القلوب!».

وطغت على قلبه موجة حب لهذه الفتاة فأنهضها برفق ثم أخذها الى غرفته.

وقد دهش وانج لنج بعد أن قضى ليلته مع الفتاة [illegible] بصغيرة مثلها في مثل سنه!.. أما الفتاة فكانت بلا عاطفة وانما [illegible] به كما تتعلق الابنة بأبيها!

ولم يقل بعد ذلك شيئاً لأحد، و بقي ما حدث سراً الى أن لمحت عين كوكو النفاذة (زهرة الخوخ) وهي تنسل في فجر يوم من غرفة وانج لنج. فلمعت عيناها اللتان كعيني الصقر وقالت: «هكذا؟!. هكذا تعود قصة السيد الشيخ من جديد!».

وسمعها وانج لنج وهو في غرفته فخرج اليها وهو يبتسم ابتسامه حياء وكبرياء معاً وقال لها: «لقد قلت لها أن تأخذ شاباً ولكنها آثرت الشيخ الكبير!»

فقالت كوكو بخبث: «ما أبدع أن تسمع السيدة بذلك!».

فقال لها: «الواقع أني لا أدري كيف حدث هذا الأمر. ولم يكن في نيتي أن أتخذ لنفسي امرأة جديدة ولكن الأمر حدث من تلقاء نفسه!».

ثم استطرد قائلا: «اذا كان يجب أن تعرف السيدة ذلك، فاخبريها أنت به، واذا أمكنك أن تمنعيها من الغضب فاني أعطيك قبضة من الفضة!».

فوعدته كوكو بذلك وهي تضحك وتهز رأسها تعجباً. وعاد وانج لنج الى غرفته، ولم يخرج منها إلا بعد أن عادت اليه كوكو بعد قليل وقالت له: «لقد أنبأت السيدة بالأمر، وتملكها الغضب، لكني ذكرتها بالثوب الاسود الوارد من الخارج الذي تتوق اليه وعدتها أنت به، وهي تريد أيضاً خاتمين من العقيق، وستطلب أشياء أخرى وجارية أخرى تخدمها، على ألا تدخل زهرة الخوخ عندها أبداً، وعلى ألا تذهب أنت اليها أيضاً في الوقت الحاضر لأنها تشمئز من رؤيتك!».

فوعدها وانج لنج بكل ذلك... وسره ألا يرى لوتس وشيكاً حتى تهدأ سورة غضبها و ينجز مطالبها!

و بقي أولاده الثلاثة، وقد شعر بالخجل الشديد منهم، لكنه كان يشجع نفسه بقوله: «ألست سيد هذا البيت؟. أليس لي أن أستمتع بجارية اشتريتها بمالي؟!».

وجاء الابن الأصغر في المساء، وكان وانج لنج جالساً يدخن في الغرفة الوسطى بينما (زهرة الخوخ) جالسة أمامه الى الجانب الآخر من المائدة في صمت وقد وضعت يديها في حجرها، وراحت تنظر اليه كما تنظر الابنة الى أبيها، ثم وقف الابن الأصغر أمام أبيه عابس الوجه مقطب الجبين وما لبث أن قال: «الآن سأدخل الجندية. سأدخل الجندية!». ولكنه لم ينظر الى الفتاة وانما كان ينظر الى أبيه وحده!

ومن عجب أن وانج لنج شعر بالخوف من هذا الفتى وهو الذي لم يخف ولديه الآخرين. وأراد أن يقول له شيئاً وأخرج غليونه من فمه ولكن لم تنطق شفتاه بلفظ، وعاد الفتى يقول: «الآن سأذهب من هنا!».

ثم التفت الى الفتاة فجأة ونظر اليها فغطت وجهها بيديها حتى لا تراه!. وعندئذ خرج الفتى من الغرفة، فالتفت وانج لنج الى (زهرة الخوخ) وقال لها برفق وانكسار: «اني كبير السن بالنسبة لك يا حبيبتي، واني لأعلم ذلك علم اليقين. انني رجل شيخ!».

ولكن الفتاة بكت وقالت: «ان الشبان قساة القلوب!. وأنا أوثر الشيوخ!».

ولما انبلج الصبح كان الابن الأصغر قد غادر البيت الى حيث لا يدري أحد!

الأرض الطيبة

كما يموج الخريف بحرارة كاذبة قبل أن يستحيل شتاء، كذلك كان حب وانج لنج للفتاة (زهرة الخوخ) فقد زالت حرارته القصيرة المدى وانقضت عاطفته وشيكاً، وصار وانج لنج شغوفاً بتلك الفتاة ولكن من غير عاطفة أو هيام. وهكذا وجد نفسه فجأة شيخاً كبيراً بارد الحس، ومع هذا مكث ميالا اليها، يرتاح الى وجودها معه في الغرفة، وكانت تخدمه في أمانة واخلاص، وكان دائم الشفقة عليها، وقد انقلب غرامه لها حباً أبو ياً رقيقاً!.. ومن أجله كانت رحيمة بابنته البلهاء، و بعد ذلك صار يؤثر العزلة ولا يجد عزاء إلا في هاتين الاثنتين!

وهكذا صارت الايام تمضي وهو يوغل في الكبر، وصار ينام تحت أشعة الشمس كما كان أبوه يفعل من قبل!

وكان في القليل النادر يذهب الى الغرف الداخلية و يرى لوتس. ولكنها كانت لا تذكر قط الفتاة التي اتخذها لنفسه، وانما كانت تحييه تحية طيبة، وقد أصبحت هي أيضاً امرأة عجوزاً، هانئة بالطعام والخمر، و بالفضة التي تنالها كلما طلبتها. وكانت تجلس مع كوكو كصديقتين لا كسيدة وخادمة، وتتحدثان عن أمور شتى، وتأكلان وتنامان، ثم تعودان الى الحديث قبل الأكل والنوم!

واذا ذهب وانج لنج الى غرف ولديه كان يلقى الاحترام والترحاب، وكان يسأل عن أطفالهما قائلا: «كم لي من الاحفاد الآن؟!». فيقول أحد ولديه: «ان لأولادك الآن أحد عشر ابناً وثماني بنات!».

وهنا يضحك وانج لنج بصوت كصوت الدجاج و يقول: «أضيفوا اثنين كل عام!». ثم يجلس وأحفاده حواليه، فينظر اليهم و يقول: «هذا يشبة جد أبيه، وهذا تبدو عليه ملامح التاجر (ليو).. وهذا كما كنت أنا في صغري!».

ثم يسألهم قائلا: «أتذهبون الى المدرسة؟». فيجيبون جميعاً: «نعم يا جداه!».

ثم يسألهم قائلا: «وهل تدرسون الكتب الأربعة؟». فيجيبون ضاحكين من كبره وجهله: «كلا يا جداه!. لا أحد يدرس الكتب الأربعة منذ الثورة!».

وهنا يقول لهم: «لقد سمعت عن الثورة، ولكني كنت دائماً مشغولا بأرضي فلم أحضرها!».

وبعد حين صار لا يذهب الى ولديه وأحفاده، و يكتفي بأن يسأل كوكو: «هل اصطلحت زوجتا ولدي معاً؟». فتجيب كوكو قائلة: «انهما كالهرتين ترقب احداهما الأخرى!. غير أن ابنك الأكبر يضجر من شكاوى زوجته، ومن حديثها عما كان في بيت أبيها. وهي مضجرة حقاً. وقد سمعت بأنه يعتزم اتخاذ امرأة ثانية. وهو يذهب كثيراً الى بيوت الشاي!».

وسألها مرة أخرى: «ألم تسمعوا شيئاً عن ولدي الأصغر الذي سافر من زمن بعيد؟».

فأجابت قائلة: «انه لا يكتب خطابات ولكن أحياناً يأتي أحد من الجنوب فنعلم أنباءه منه، و يقال أنه أصبح الآن ضابطاً كبيراً وله شأن عظيم في شيء يقال له (الثورة) ولكني لا أدري أي نوع من الاعمال هذا الشيء!».

وكلما حل الربيع، شعر وانج لنج برغم كبره وضعفه وعدم اكتر[illegible] لشيء، بحنين الى أرضه. لقد ترك الارض منذ سنوات بعيدة واستقر[illegible]

بيت كبير كرجل واسع الثراء، ولكن أصوله كانت في بطن الأرض، واذا نسي الارض شهوراً متوالية فقد كان يتذكرها في الربيع فيذهب اليها ليزورها!

انه الآن لا يستطيع أن يسوق محراثاً، ولكنه يذهب ليرى غيره يحرث و يزرع. وأحياناً كان يأخذ معه خادماً يحمل له فراشاً و يقضي ليلته في بيته الريفي، في السرير الذي شاركته فيه أولان ثم ماتت عليه. فاذا انبثق الفجر قام من فراشه وذهب الى الارض ليلتقط قطعة من الصفصاف أو زهرة من الازهار فيمسكها في يده طول يومه!

وفيما هو يتفقد أرضه في يوم من أيام الربيع، وجد نفسه عند المقبرة التي أعدها لأسرته فوق أحد التلال، ودفن بها من ماتوا من ذو يه. ووقف متكئاً على عصاه يرتعش من الكبر، ونظر الى القبور فتذكرها واحداً بعد آخر. لقد أصبح من ماتوا ودفنوا هاهنا أقرب اليه من أبنائه الذين يعيشون معه تحت سقف بيته ما عدا ابنته البلهاء المسكينة و (زهرة الخوخ).. وعاد به ذهنه سنوات عديدة الى الوراء، حتى تذكر أيضاً ابنته الثانية التي لم يسمع عنها شيئاً منذ زمن طو يل، وكانت محببة اليه مثل هؤلاء الذين أصبحوا في جوف الثرى.. ثم قال لنفسه أخيراً: «سأكون هنا قريباً!». ثم دخل المقبرة ورأى البقعة التي سيدفن فيها تحت قبري أبيه وعمه وفوق قبر تشنج وغير بعيد من أولان.. وأمعن النظر في تلك القطعة من الارض التي سيرقد فيها ثم غمغم قائلا: «يجب أن أرى التابوت».

ولما عاد الى المدينة بعث في طلب ابنه الأكبر. ولما جاء قال له: «أريد أن أقول لك شيئاً!». فقال له ابنه: «اني مصغ اليك».

ولكنه نسي ما أراد أن يقوله، فبكى لتأثره من ذلك ونادى زهرة الخوخ وسألها عما كان يريد أن يقوله. ولما كان هذا بعيداً من علمها فقد أعادت عليه السؤال نفسه. وهنا تذكر ما كان يريد أن يقوله لابنه فقال: «لقد اخترت بقعة من الأرض التي أدفن بها. انها تحت قبري

أبي وعمي وفوق قبر أمك وقريبة من قبر تشنج.. وأريد أن أرى تابوتي قبل أن أموت!».

فصاح ابنه كما ينبغي له وقال: «لا تقل ذلك يا أبي، ولكن سأصدع بأمرك!».

ثم اشترى ابنه له تابوتاً من خشب ذي رائحة زكية، وهو خشب صلب كالحديد يبقى على الزمن حتى بعد أن تنخر العظام. وخطر لوانج لنج خاطر مفاجىء فقال لابنه: «أريد أن ينقل هذا التابوت الى البيت الريفي وفيه أمضي أيامي الأخيرة وفيه أموت!».

ولما رأوا تصميمه على ذلك، نفذوا له رغبته، فانتقل الى البيت الريفي مع زهرة الخوخ وابنته البلهاء ومن يحتاجون اليه من الخدم!.. وهكذا عاد وانج لنج يعيش في أرضه، وترك البيت الكبير الذي في المدينة للأسرة التي أسسها!

